زيد الشهيد

رواية

جاسم وجوليا

جاسم وجوليا

JASSIM AND JULIA

الكتاب: جاسم وجوليا

المؤلف: زيد الشهيد

الطبعة: الأولى ٢٠١٦

ردمك: ٩٧٨-٩٩٣٣-٥٤٤-٦١-٤

الإخراج الفني: دار أمل الجديدة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٢٩٠ لعام ٢٠١٦

أمل الجديدة

طباعة - نشر - توزيع

سورية - دمشق

جوال ٠٠٩٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦- ٠٩٣٩٣٢٠٠٢١٢٦-

هاتف: ٠٠٩٣١١٢٧٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.co

حقوق الطبع محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر.

All rights reserved, Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, Electronics, mechanical photocopying, recording of otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

زيد الشهيد

جاسم وجوليا

JASSIM AND JULIA

رواية

وقال الربُّ لموسى:

اذهب انزل لأنَّ شعبَك الذي أصعدته من أرضِ مصر قد فسد

من كتاب

شريعة حمورابي وأصل التشريع

في الشرق القديم

لمسة قدر

رُغـمَ الأيـام السـبعة الـتي مـرَّت وهـو في هـذا الحيّـز مـن المكان استمرَّ يردد:

مـا هـذا الهول الـذي أنـا فيـه داخـل هـذي الكينونـة الـتي تجمع الحقب في بناية تطل على شارعين؟

مـا هـذا الصـمت الـذي يفـتح إزائـي أبوابـاً مـن الهمـس والهـديل؛ الضـجيج والزعيـق؛ الأنّـات والصـرخات، التهديـد والوعيد، ثم الهمود والجثوم.

كيـف لـي أن أقـول وأتحـدث وأنـا الـذي أقـفُ وحيـداً، تتسـاجل أمـام نـاظريَّ مشـاهدُ أجيـالٍ ولِـدت وماتـت، وأزمنـة توالت وتساوقت كأنها ترنيمة ذاكرة لا تنتهي؟!

في الـداخل مـا زال يتمـتم رغـم المـرارة الـتي تتناسـل في فمـه، والجـزع الـذي يمـلأ جـرار الـروح: ألسـتُ أنـا اليـوم بمثابةِ الوسيط الأزلي لماضٍ يعيش بين جدران وحاضر يملأ الفضاء الرحب؟!.. أليس هذا الماثل بمثيرٍ للفضول وباعثٍ على الحوار؟

يُمنّـي الـنفس بنهلِ واغـترافِ مـاء المعرفة النمير، تـأتي بـه عيـونُ الحقـب: دافقـاً، عـذباً، سلسـبيلا. ويـتلمّس بأصـابع فضـوله العطشـى بشـرة الـزمن الغـابر فيحسّـها تعـجّ بالحيـاة والرواء، رافضةً الموت واليباب.

يخرج من قاعة ليدخل أخرى، ويلج فناءً ليبرح آخر بعدما انقطع الحارس عن السهر ليلاً كواجب مناط به، وفرَّ الموظفون، ووجد أنّه امسك صولجان حرية التجوال في القاعات.

في الروح دَهشٌ لما يرى، وفي الرأس ذهولٌ لما يجري.

في الخارج هاجسُ خوفٍ منتشرٍ في النفوس كالوباء، تمثله أصوات مدافع وأزيز رصاص وهدير طائرات، يقترب شيئاً فشيئاً لقادمين عبروا البحار واجتازوا الفيافي سعياً لحيازة موطئ قدمٍ على ارضٍ وضعوها ضمن مشروعٍ خمَّنوه يستحق الحيازة.

الأيامُ القادمة ترهصُ على كفٍّ قدرٍ مُضبَّبٍ ومصيرٍ مرعب.

الساعات الآتية تنذر بما لا يأتي بالطمأنينة، بل الفزع يتربص حيان حلوله.

الشفاه تتمتم من نفوس أنهكها الجزع، ونضب منها الصبر، وقلت عندها الحيلة:

"ماذا يجري؟!.. وما الذي فعلناه؟ لماذا هذا التوارث الأبدي للحزن، والوشاح الأسود تتشح به مدننا؟.. لماذا جُعلنا أرضاً واطئة تهاجمُها السيولُ أنّى تدفقت، فاستحال مصيرُنا الغرق أو التشرّد أو التبعثر؟!.. أتراها لعنة أزلية حلّت علينا دون

إرادةٍ منّا وعقاب سماوي جرى حتى بدون ذنبٍ ارتكبناه؟!

يتناهى إليه أنينٌ يُطلقه فمُ تمثال مكتوف اليدين أو يبثه رقيم طيني حُفرت عليه نقوش كحَفرِ المسامير أو خوار يأتي من ثورٍ مجنّح حُكم عليه بالهمود والتحنّط أو صراخ يسيل من مسلّة تحكي حروباً وقتالاً وصرعى وأسرى مُقادين كالخراف.

أنين متواصل لوجع إنسانية معذبة جراء حقوق مسلوبة وأموال منهوبة وأعراض مهتوكة، سببتها اعتداءات سافرة واستحواذات قاهرة وغارات في وضح النهار.

يأتيه صوت جوليا، الحبيبة المتضرعة، وكلام سالم، الأخ المُحذِّر، وأنين الأم المتوجعة، وكلام أخواته في تقدير الموقف قبل أن يتّخذ القرار.

يطلق آهةً حرّى وهو يطالع معصميه.. ثم يساوره ارتياح غامر إذ يجدهما طليقين.

راس الحواس

بغتةً...

ثلاث سيارات لاندكروز بيضاء اللون توقفت في ساحة رأس الحواش.

شعر شرطيُّ المرور الأسمر النحيف المنتصب بالارتباك.. بينه وبين قدوم بديله في الواجب دقائق فمن أين انبثقت له هذه المفاجأة؟!

ذُهلَ المارَّةُ المترجلون على الأرصفة أو الخارجون توّاً من المحلات للمرأى.. فالذي يشاهدونه اللحظةَ يزرع الريبة والقلق في النفوس، والأيام القليلة القادمة يتوجّسونها حُبلى بالمفاجآت.. دواخلهم يمور فيها الهلع، وهُم لا قدرة لهم على تحمّل ما يخبئُه المجهول. يتساءلون بريبة: أوصلَ الأمريكان إلى بغداد فيحاول هؤلاء إثبات وجودهم كرمزٍ لحكومة ما زالت تُمسك بزمام البلاد وتحكم السيطرة على الوضع أمْ هي محاولة لإشغال الناس كيما تتحقّق خطوات هروب الرئيس بعدما توارى لأكثر من عشرين يوماً فلم يعُد يُرى على شاشة التلفاز ولم يعد يسمع له صوتاً من إذاعةٍ على الإطلاق؟!.. هل نحنُ على أعتابِ خوفٍ جديد ورعبٍ مهول لا يُبقي للحياة شيئاً ولا يَذر؟!.. ثم ماذا بقي لنا وصفارات الإنذار تعوي كل لحظة والطائرات تهدر مُطلقةً صواريخها

وحمَمها الكترونياً وبذكاء خرافي على مفاصل بغداد الحيوية؟ وكيف نتفادى طوابير دبابات ودروع تتناقل الأخبار تطويقها للعاصمة منتظرة أمرَ الانقضاض عليها؟!

اللعنة!.. بغداد تحتضر!!

الأفول الزاحف لنهار الأول من نيسان ٢٠٠٣ يبث تيارات باردة من مناخ شتائي أرعن وسط محنة انقطاع التيار الكهربائي لساعات نازعاً الرحمة وماسحاً من قاموسه مفردةَ الرأفة مُذ اندلعت الحرب في ١٩ آذار بينما الشمس كعادتها كل يوم تنسحب مقبوضة الفؤاد أمامَ أنظارِ ناسٍ في محنةٍ يحسبونها لا تنتهي.

تصالبت عيون المارّة والمتسوقين وأصحاب المحلات على السيارات الثلاث التي توقفت على جانب الطريق. سيارات نزل منها شبابٌ يافعون، وجوههم تحمل ملامح بدوية صارمة، بملابس يحاولون جعلها مهندمة. توزعوا عند رأس الشارع ومداخل الشوارع الفرعية.. مصابيح تسكب ضياءها الأبيض من نيونات باهتة وأخرى صفر كابية على واجهات محلات كماليات تعرض ملابس رجالية وفساتين نسائية وبلوفرات وقمصان بموديلات عفت عنها الأناقة ونأى عنها الترف.. محلات كانت في سبعينيات القرن الماضي وما قبلها من عقود زمنية تعج بالبضاعة النسائية المترفة لمجتمعٍ راقٍ

تعكس هويته بيوت الحي المبنية بطراز ارستقراطي، أصحابها من التجار والمتعلمين الذين كانوا يوماً ما يتبوءون الوزارات والمراكز العليا في الحكومات الملكية المتعاقبة.

عيون مَن هبطوا من سيارات اللاندكروز شرعت تمسح وبطريقة ومضية حركة الناس. تدخل المحلات وتخرج في بحث يترك وجوه المارّة تطفح بشحوب رملي؛ والسماء تهمي طلاً من الكَمد... أكثر مَن أمطرت عليهم غيوم الهلع هم أصحاب المحلات حين دوهِمت أماكن عملهم.. كلٌّ منهم شعر أنه واقع لا محال في هوة الضياع وسطوة هؤلاء الباعثين على القلق المميت.. لم ينطقوا بكلمة؛ بل تركوا عيون المقتحمين تلتقط بطريقة البحث المتوجِّس ما يستحق التقاطه من وجوه وملامح إضافة إلى أماكن بهيئة زوايا يمكنها إخفاء قوامات بشرية عن الأنظار فيما انتصب بعض منهم في عرض الشارع من الجهة التي تأتي بها السيارات قادمة من الكاظمية عبر جسر الأئمة يتفرسون في وجوه ركاب السيارات، ويطلبون ما يثبت هوياتهم.. لم يدرك أصحاب المحلات هنا أنَّ ثمة عربات لاندكروز أخرى توزعت في الصوب الثاني، هناك أيضاً، تبحث في الطرقات المؤدية إلى قلب مدينة الكاظمية. بعضها يدقّق في الهويات، وبعض يدخل المحلات القريبة ويخرج بعيون تعكس قلقاً داخلياً.

صاحب مطعم صغير لبيع الفرّوج السّفَري همس في أذن عامله: يبدو أنهم في أمرٍ جلل: "ماذا حدث؟"..

لا أحد يدري!.. لا أحد يمكنه رسم الصورة الحقيقة سوى شاب ثلاثيني العمر استقل سيارة أجرة من خلف المقبرة الملكية طالباً نقله إلى كراج العلاوي في صوب الكرخ.

لم ينتبه سائق الأجرة الذي أقلَّ الشاب أنه ينقل سجيناً هارباً يحسب الثواني بدواخل محتدمة وأعصاب تتلظى على جمر انصراف الوقت وصولاً إلى المكان المرتجى ليندس بين الركاب صوب مدينته الجنوبية. (كان السائق انتبه إلى انتشار سيارات اللاندكروز قبل أن ينحرف من راس الحواش ويدخل طريقاً فرعياً يحمل راكبين أقلهما من شارع المغرب... كان لاحظ السيارات تؤمَر بالتوقف ويقوم بعض الأشخاص المدنيين بتفحص ما في داخلها.. عرفهم رجال أمن السلطة لم يوقفوا سيارته قبل قليل لأنه جاء قادماً من وجهة غير التي يقصدونها.. لذلك وخشية أن يفعلوا الآن ويتفرسوا في وجهه ووجه راكبه ويطلبوا هويته ويتحققوا بالأسئلة لم يتخذ الدرب عبر ساحة عنتر ثم جسر الصرافية وبعدها عبوراً باتجاه صوب الكرخ، وصولاً إلى كراج العلاوي حيث مقصد الراكب.).

الراكب الشاب سمع السائق يدمدم بكلمات غير

واضـحة لـكنـه فهـم أنهـا كلمـات تـذمّر وسـير في أزقّـة متداخلة. دوّامة الحياة وقسوتها ، عسـف السلطات وجورهـا ، ظلـم العـالم ولامبالاتـه لمعانـاة شـعب عـاش الأسـر منـذ ثلاثـة عقود يجسدها هذا السـائق المتذمر.. حدس تلك اللحظة أن الله وقف إلى جانبه فجعل السائق يتحرك بعيداً عـن لـوامس الاكتشـاف.. ثمـة معادلـة سـرمدية أكـدتها السـماء وأثبتتهـا الأيام: ما يُعطى إليك باليد اليمنى يؤخَذ باليسرى، يومٌ لـك ويومٌ عليك؛ تماماً مثلُ ما تُغلق بوجهِك بـابٌ تُفتح لـك نافـذة، إنَّ بعد العسرِ يسرى.

حـين أدرك السـائق تقـاطع جسـر الصـرّافية وشـهد زحامـاً مروريـاً أبصـر خلالـه النـاس ينزلـون مـن سـيارات الكوسـتر وباصـات مصـلحة نقـل الركـاب ليتجهـوا صـوب النهـر ازداد تذمرُه. والراكب الشاب الذي سمع بعض من غادر السيارات يقولـون "نصـعد بـالزورق لنعـبر خـير مـن أن ننتظـر" امتلـك شجاعة السؤال ففاه يخاطب السائق:

- "عن أي زورق يتحدث هؤلاء الناس؟ "

- خط الـزوارق الـتي تنقـل النـاس إلى الكـرخ.. إنهـا خـير وسـيلة للـتخلص مـن هـذا القهـر الـذي نعانيـه نحـن السـائقين أكثر من غيرنا.. إنها كارثة نعيشها يومياً.

شعر بحميمة الكلمة فبادره بسؤال فيه شجاعة:

- "يعني هل تنصحني بالنزول واتخاذ طريق العبور بالزورق؟ أقصد هل أفضل لي لو عبرت بالزورق؟"

ردَّ السائق باهتمام:

- طبعاً.. - واستدرك - لا تظنني أقول ذلك لأجعلك تنزل من سيارتي.

تمتم الشاب بشكر: لا.. لا.. ونزل.

تحرَّك مسرعاً يتبع الناس تحت الأضواء الخافتة المنبعثة من بعض مصابيح فناءات حدائق البيوت المتراصفة. أناس كالأسرى تسوقهم الظلمة نحو الهاوية. يسوقهم القدر القاسي في طريق التعثّر وهم ينتظرون الخلاص. سريعاً تأتيه شفرات المقارنة وينبثق سؤال الحسرة: ما فرقهم عن شعوب بلدان الشمال من كرة الأرض؟! أولئك يتهادون على أنغام الهناء وهؤلاء يترنحون على لظى التجنّي؟!... حثَّ الخطى واندفع مع الهابطين من الرصيف نزولاً إلى ضفة دجلة. اعتلى معهم زورقاً سرعان ما انطلق ليرسيهم بلحظات عند جرف الضفة الثانية.

خلَّف وراءه صوبَ الرصافة وصار في صوب الكرخ... وكان عليه أنْ يستقل سيارة أجرة أخرى تأخذه من جديد إلى كراج العلاوي غير البعيد.

العلاوي

حين لمحَ الأنوار تنسكب من منارة جامع ابن بنيّة في المدى القريب من امتداد الشارع شعر بنأيه عن مكمن الخطر وتمنّى أن يُكمل الحظُّ مشوارَه معه فيصِل الكراج. لو لم يكن سجينا هارباً لكان يخطو مترجلاً يطالع فضاء المكان. يشهد حركة الناس في أوج نشاط العودة إلى بيوتهم، أعشاش الدفء ومكامن الحنين. يشهد احتشاد موقف باصات نقل الركاب بالعيون المتطلعة إلى أرقامها المحصورة بمستطيل زجاج في واجهاتها الأمامية: ذاك الباص للبيّاع، وذلك للدورة. هذا للطوبجي، وهذا للكاظمية. نحن بانتظار باص المنصور؛ يقول أحدهم. آخر يسأل مُنظِّم السير: هل قدِمَ باص المأمون؟. أنفار يجتمعون أمام أنظار شرطي مرور كي يرفع يده يوقف السير ليعبروا متجهين إلى الكراج الموحد، يركبون منطلقين صوب مدنهم القريبة أو البعيدة.. أناس يحملون حقائب في طريقهم إلى محطة القطار، يقطعون تذاكر مُبكّرين كي يتجهوا إلى البصرة كآخر محطة جنوبية أو إلى الموصل المحطة الشمالية الأخيرة. آه لو لم يكن سجيناً.

ما أن صارت سيارة الأجرة على بعدِ أمتار من ساحة المتحف حتى تشكّلَ زحاماً جديداً.. دفع السائق برأسه من

النافذة يسأل سائق سيارة أجرة توقفت بمحاذاته: ما الذي يحدث؟.. جاءه صوت السائق: شرطة مرور وأشخاص بملابس مدنية.. لا أدري! صِدام بين سيارتين أم تفتيش؟.

كلام السائق أثار في الشاب التوجّس.. تهجّس شيئاً لغير صالحه، فترجّل من السيارة متخذاً جدار المتحف المعتم.. ومن هناك أبصر على وهج ضوء تُحدثه مصابيح السيارات المتوقفة عربات لاندكروز بيضاء وأشخاص ركاب العربات.. لا يدري كيف تناهى لمسمعه صدى خطى متسارعة لأشخاص يتحدثون. أحدهم يخاطب صاحبه بأنه سمع عن مجموعة هربوا من السجن، وأنَّ قوات الأمن مستنفرة في عموم بغداد بحثاً عنهم، وأنَّ رجال الأمن يتخفّون سعياً لإلقاء القبض عليهم. ولا يدري كيف سمع نفسَ الشخص يدعو أصحابه للعبور إلى الجانب الثاني فهو يشاهد ثلاثة منهم يتجهون صوبهم:" هيّا لنبتعد عن الشر.. قد يحسبونا من الهاربين فنقع في قبضتهم.". عبروا إلى الرصيف المقابل. لمحهم بمحاذاة مقهى صغير له تخوت خشبية متهالكة بلا رواد، وعامل المقهى يطالع الزحام.. مرَّت خاطفةً مثلَ برقٍ ذكرى تعود لعشرين عاماً. لم يكن ذلك المكان مقهى بل دكاناً يضع فيه المسافرون حقائبهم كأمانات مؤقتة (أتذكر؟.. سألته الذاكرة).. الحوار

الحذر والخائف للذين عبروا ولم يعد يبصرهم أوقعه في بركة هلع.. هاجمه رعب جارف جعل جسده يغرق في ارتعاش فيبدو كما لو انه يداهم بقشعريرة قاسية.

ها هم الثلاثة يتجّهون صوبه فعلاً.. وها هو ساقطٌ في فخٍّ سطوتهم لا محالة.. ماذا يفعل في لحظاتٍ حاسمة تتوالى مسرعةً لترميه في قبضتهم.. عودته تجعلهم يحثّون الخطى صوبه ويلحقونه حتى لو فرَّ راكضاً.. لا يدري كيف وقف الحظ إلى جانبه مرة أخرى عندما رأى نفسه في العتمة المطبقة جوار سياج الحديد المشبك للمتحف الوطني.

تلك اللحظة استنفر إصراره على الحياة واستجمع كل ما في جسده من قوة.. استدعى كل ما في قلبه من دعاء وعبارات تضرّع أنْ يجتاز هذه الومضة الزمنية التي ستعجِّل في إنقاذه من هذا الموقف الواقع في شباكه حتماً.

غب تلك اللحظة لا يدري كيف استحال قرداً فتسلَّق السياج ونزل بخفة خرافية لتستقبل قدماه الحديقةَ المعشبة وتضمه شجرة الزيتون الجامعة لعتمة حالكة فتقول له: تعال أخفيك بسوادي فاجعل منك ظلمة لا يمكن لعين مهما اتسع بؤبؤها اكتشافك.

المقهى

نعم لم يكن ذلك المكان مقهى بل دكاناً للأمانات يضع فيه المسافرون أو ممّن يحمل شيئاً ثقيلاً يربكه في تجواله وقضاء عملٍ في مكان ما.. يتذكّره.. ذاكرة الطفولة لا تُمحى؛ لكنَّ ربكة الحدث والموقف العسير المُحمَّل بالمفاجآت الذي فيه شوَّشت لديه رغبة استعادة تلك الذكرى.. ذكرى كانت له فيها لمسات وأفعال يوم كان صبياً صاحبَ أباه القادم من جبهة الحرب، حرب الخليج الأولى، أو تلك التي يطلقون عليها الحرب العراقية - الإيرانية، لزيارة أخيه الذي جيء به جريحاً.. من قاطع بسيتين مُصاباً بحروق من الدرجة الثانية قريباً من الثالثة فادخلوه مستشفى الرشيد العسكري.. قال له أبوه: لنضع حقيبتنا في محل الأمانات هنا مقابل عشرين فلساً أسهل لنا من حملها طوال الطريق للوصول إلى عمِّك.. يذكر يومها أنَّ أباه كان حزيناً لما جرى لأخيه. وقلبه يعتصر خوفاً على الأخ الآخر، عمّه أكرم الذي سيق بعدهما ليكون في لواء مشاة يرابط على شط العرب في قرية أخليت من سكانها.. كان أبوه استلم رسالة منه يعلمه انه في قرية اسمها (البحار): "تخترق بساتينها الاحواز وتحتشد بالنخيل وأشجار الفواكه" القرية خالية من سكانها. وبين حين وحين يحضر أناس

مدنيون، يقولون إنها قريتهم، ويوصوننا بالحفاظ على ما فيها من ممتلكات ومقتنيات لأنهم كما صرحوا أكثر من مرة تركوا كل شيء في مكانه خشية من هجوم إيراني قد يحدث في أية لحظة.. إنهم منشدّون إلى أرضهم وأعشاشهم.. نقرأ وفي أكثر من جدار عبارة ترجّي تقول: إنها أمانة الله ورسوله بأعناقكم أيها الجنود.. ".. يذكر أن جندياً قادهما بعدما أعطى أبوه اسم أخيه ووحدته العسكرية والقاطع الذي يرابط فيه لعسكري برتبة عريف يدير استعلامات المستشفى. دخلوا ردهة ثم خرجوا منها، ثم دخلوا لأخرى وخرجوا، فوجدوا أنفسهم أمام ردهة كتب على مدخلها (ردهة الحروق). تقدمهما الجندي الذي قادهما غير مبالٍ بما يرى على الأسرّة من أجساد حمراء مسلوخة، وأعضاء تضج بها فقاقيع بيضاء تمتلئ بسوائل صافية. أو أعضاء متفحمة.. عيون مغمضة، وأخرى متراخية، وأخرى متسعة كأنها تتضرع.. وعلى بعد عشرة أسرّة وثلاث نوافذ شبه مفتوحة تسمح بهواء الحديقة في الصباح الحزيراني الذي يستقبل بعد أيام حرارة تموز اللاهبة توقف الجندي. عينا أبيه امتلأتا استفهاماً، وفضوله تأجج لمعرفة ما سيقوله الجندي الدليل.

- هذا هو الجندي حاتم جابر.. قال ببرود.

لم يكن هناك الأخ. وكاد الأب يسأله: أين أخي، عندما قال:

- حروقه شديدة.. وخشية عليه من تدهور مناعته ومهاجمة الفايروسات المنتشرة في الهواء ارتأى الطبيب وضع هذه الخيمة عليه.

كانت الخيمة نصف اسطوانية بقماش سمائي شبه شفاف. رفع الجندي الدليل قطعة قماش فاستطاعا رؤية الأخ / العم عارياً وقد طلي جسده بمرهم اصفر. كان مُسبل العينين؛ غير أنَّ عينيه اتسعتا فرحاً لرؤيتهما. تفتحتا كتفتح زهرة عباد الشمس لهجوم وجه الشمس. المفاجأة جعلتهما يتفجران بدمع ترقرق صافياً كشفه ضوء النهار المندفع من أفواه النوافذ المشرعة. دمع يضاهي صفاء بحيرة ساعة ضحى؛ وكانت الرموش أشجار لوز هفهفت أوراقها لريح اخترقت تضاريس الأفق وانهالت على غابة الرغبة... قال الجندي: سأترككما. نصف ساعة لكما. أرجو أن لا تتأخرا.

شرح الجندي المسلوخ بصوت واهن كيف انه ومجموعة من الجنود كانوا نائمين في موضعهم عندما سقطت قذيفة هاون على مقربة من باب الموضع، مزقت شظية منها صندوق عتاد مركون في شق أرضي من إحدى زوايا الموضع فراح

يتفجـر، مفجـراً صـناديق قنـابر الهـاون والقنابـل اليدويـة الدفاعيـة والهجوميـة مـا اضـطرهم إلى البقـاء في أمـاكنهم خشية أن يرفعوا الرؤوس فيقتلون برصاص أهوج صار يتناثر باتجاهـات مختلفـة.. تنـاثر الرصـاص سـبب اشـتعال الملابـس المعلقـة علـى جـدار الموضـع ووصـلت النـار إلى البطانيـات والافرشـة والوسـائد، ثـم نالـت خشـب السـقف المعمـول مـن جذوع نخيل قلعت مـن بسـاتين قريبـة، وهـم لا قـدرة لهـم علـى النهوض ليقتلوا بغير ما معركة. جحيم يشبه جحيم معركة أو هو الحشـر بعينـه... وصلتهم النـار. هـاجمهم أزيـز متشـابك ومتنافر، من أعلى، من أسفل، من جهات وزوايا.. هـاجمتهم صـرخات الأمهـات ورعبهـا علـيهم. هـاجمهم شـحوب الآبـاء. جاءتهم مـدنهم، زارتهـم أعشـاش الطفولـة وفضـاءات الأزقـة، تأوهـت الحبيبـات المنتظـرات عـودتهم وحلـم الاقـتران الموعـود. تشـظى العقـل. تفككـت مجسـات التصـرف.. يـا إلهـي !!.. انـتفض احـدهم غـير مبـال لمـا سيحصـل أو هـو ظـن بفعلتـه سـينجو، فمزقـه الرصـاص المجنـون؛ والتهمـت النـيران الـتي كانت تتعالى رفيقاً آخر لهم حتى الموت. وكـان هـو ينتظـر الشـهادة عنـدما توقـف الجنـون. ووجـد نفسـه هنـا علـى هـذا السـرير.

- الحمد لله انك على قيد الحياة.. التوابيت تتوالى كل

يوم.. همس في أذن أخيه.. هذه الحرب لن تتوقف والنفوس تنقبض لمجرد سماع خبر حدوث معركة أو حصول تعرض لقطعات الجيش في جبهات الحرب.. كلُّ أب يتهجّس جلب ولده شهيداً. كلُّ أمٍّ تجهش بالبكاء إذ تمرق سيارةٌ تحمل تابوتاً ملفوفاً بالعلم العراقي.

- وهذه الحروق، يا أخي؟.. أنا الآن معطوب.

النافذة

وصله كلام رجال الأمن الثلاثة يتحدثون عن دربٍ خالٍ لا يوجد فيه أحد ويطلب أحدهم من الاثنين الآخرين العودة لمواصلة التفتيش في مكانٍ آخر وتخفيف زحمة المرور فيما يقترح آخر التوقّف في المكان استعانةً بالعتمة فلربما تأتي المصادفة ويقع الهاربون في قبضتهم. تجمّد في مكانه لسماع ذلك متضرعاً للسماء أن لا تُحدث حركةً يتسبب بها قِطٌّ يلاحق قِطةً ليضاجعها أو قط يدخل في عراك مع قط آخر غريم له، أو همهمة كلب حراسة في حديقة لا يدري إن كانت تضم كلاباً أم لا ، ولا يدرك تفاصيلها الآن.. وحين سمع من بعيد صوتاً ينادي على الثلاثة للمجيء والانضمام للإسراع في التفتيش سحب الأنفاس ارتياحاً ، واعتبر أنه يجتاز برزخاً نارياً حارقاً باتجاه أرض الطمأنينة وإنْ حفِلت

بالمجهول.

ظلَّ منكمشاً في مكانه ريثما يضمن خلوّه من الوقوع في فخ الاكتشاف وإلقاء القبض عليه، ومن ثم إعادته إلى زنزانة الموت البطيء، هل سيبقى حياً حين يقع في قبضتهم، هو الذي سيحسبون بهروبه مرَّغ كبرياءهم الأمني وهتك هيبتهم الجبروتية؟

تموت أصوات المنبهات فيتفشى بدلها صمتٌ ممض قضى فيه ما يربو على الساعة وأصوات سائقين عرف من خلال حوارهم وهم ينتظرون إنها عملية تفتيش شهدوا مثيلاً لها قبل قليل في باب المعظم والاعظمية والكاظمية مثلما سمع غيرهم يعلنون الخشية من دمار حرب اندلعت قد تحرق البلادَ وتمحقها. فالعدو يقصف بطائراته المقاتلة والقاصفة مناطق من المدينة؛ وهناك في الجنوب يوجِه جنودَه ودروعَه تضرب أم قصر ويشتبك بمرارة مع قوات وطنية أعاقت تقدّمه منذ عدة أيام. ذلك أن التهجّس باتساع دائرة حرب يتنامى ليستحيل لديهم يقينا لا تنفع التضرعات في تجنبه ولا التكبيرات في درئه. الشاهد على كل ذلك تلك البارجات الحربية التي قدمت خلال أشهر، باستعدادات حثيثة، من جهات العالم المختلفة تمخر المياه والعباب لترابط على مقربة من قلب الهدف (العراق)، ويشهد الهدير المتواصل يومياً

لطائرات تنتهك ما متبقٍّ بقلوب الناس من أمل في عدم استمرار الحرب وتجمّد الدعوات الطويلة الموجّهة إلى السماء لتحجيم دمارِها، وإيقاف صرير مدوّم في الآذان يعلو أواره يوماً بعد آخر مُفصِحاً عن قصف يومي وأخبار متواترة عن دهاء العدو وإحكام نجاح حربه النفسية.

يسمع اثنين يتهامسان ويتساءلان: لماذا يصر نظامٌ يدري أنه عاجز أمام قوة تدميرية كونية على التظاهر بالقوة والمقدرة على المجابهة؟ لماذا يجعل الوطن على ظهر ريشة تترنح لأدنى ريح ولم يحسب لقدوم الأعاصير؟ لماذا لم يأخذ بنصيحة الذين ترجّوه، بكل صدق، وخرج مُعززاً مكرَّماً بدل أن يدخلون عليه في بيته ويعتقلوه أو يقتلوه حتى.. أيعقل أن يفكر هذا الرجل المجنون بالانتصار عليهم؟

الأسئلة هذه وتلك يفقهها السجين الهارب، ويدرك أنَّ مدّاً هادراً سيكتسح البلاد طولاً وعرضاً وستغدو بأيام معدودة تحت سيطرتهم.

نعم؛ الوقائع تقر أنها اكبر حملة حربية تسجل في ابتداءات القرن الواحد والعشرين.

كان العالم مغلقاً لديه وهو يصرف الزمن بشعور احتسابه زمن متوقِّف، جامد، متحجِّر في غرفةٍ بقياس مترين بمترٍ ونصف، حُنِّط على جدرانها الوقتُ وتكدست في

فضائها آمالُ الانعتاق وشم نسائم الحرية، فليس غير أن يأكل وينام، أن يبكي ويصمت، محروماً من الكلام مع الآخر، ممنوعاً من كل ما يمت إلى الحياة العامة من حركة.. وحين يحاول التفوه بكلمةٍ إنسانية تذكّره بهوية الإنسان الاجتماعي بالطبع مع سجّانه - الذي يأتيه بالطعام ويدفعه من أسفل الباب الحديدي المغلق بإحكام - يجابه بالصمت الثقيل وبالملامح الجافة تصدم نظراته المتوسلة.. زمن الخوارق ولّى؛ وليس بمقدوره تقمّص شخص دي مونت كريستو فيزيل بلاطات أرضية زنزانته ويحفر بصبر نملة صارفاً أشهرَ نفقاً ينفتح على نهر دجلة فيعبر النهر سباحة، ومن ثم يعثر على كنز يوظفه للانتقام من أعدائه فرداً فأفراداً.

لم يكن يدري ما يدور في الخارج، ولا لماذا يبقى مرميًّاً في السجن، ولا متى يطلق سراحه أو يحاكم فيعاقب (مع انه يدرك أنْ لا جرم ارتكبَ يستحق الحكم والعقاب).. الذي يدريه أن العراق يعيش في حصار منذ ثلاثة عشر عاماً.. تفتيش يومي ومداهمات لفرق كرستها الأمم المتحدة بصيغة رسمية دولية لها حرية الدخول إلى أية مؤسسة، وأنه مُذ ألقي القبض عليه قبل ستة أشهر والأيام تسير ثقيلة كامدة.

كان التفتيش بسيارات لاندكروز بيضاء تشبه سيارات

اللاندكروز التي يستخدمها رجال أمن السلطة؛ لكن هذه تحمل شارات المنظمة الدولية. يهبط منها رجال ذوو بشرة حمراء وبعض أفارقة، وقد يكون ضمن الكادر من ذوي البشرة الصفراء. قبعاتهم بيضاء وقمصان بيض وبنطلونات رصاصية أو زرقاء تعكس ترفاً. يتحركون وينتقلون بهمَمٍ عالية، حاملين ملفّات تحتوي خططاً وخرائط ومواقع يستهدفون تفتيشها.. يتحركون برواتب شهرية خيالية من دولارات تستقطع من أرصدة العراق المُجمَّدة؛ لذا كلما طال أمد الحصار طال أمد تلقّيهم أموال الوطن المُحاصَر رسمياً، ومعها يستمر نزيف الثروة المُجمَّدة.. كان المحللون المنصفون يصرخون بأعلى أصوات الاحتجاج لإنقاذ المتضورين جوعاً لا لإشباع المتنقلين بطائرات خاصة وباصات مبردة لغايات غير صادقة.. معادلة لا إنسانية قاسية.. المنصفون يرفعون عقيرة الاحتجاج.. شعبٌ يُساق يومياً بلا رحمة إلى حلبة الإنهاك بغية ممارسة القتل البطيء معه... يمر عجوز متقاعد أهرق سني العمر خدمة وخرج براتب تقاعدي قدره مائتان وخمسون ديناراً. كان هذا قبل اقتحام الكويت، وكان يسدُّ رمقاً، ويعين على عيش فيه من الاستقرار ما يجعل إنساناً يقول شكراً للّه والوطن، لكنه الآن يعادل شرب قدح شاي لا غير.. يمر جندي ترثي بدلته الممزَّقة حال عسكري كانت

بدلته تلك مرآة عاكسه لحسن هندامه واعتزازه كشاب تخايل أمام أنظار الوطن، والوطن أمام الجميع يتباهى بأنَّ له أبناء، بهاءُ بدلتهم تعكسُ رقيَ مؤسسته. هذا الجندي صار يمر مادّاً كفَّ العز لتشحذ من المارة. يدخل مقهى ليخرج، ليدخل مطعماً ويخرج ليقف أمام بائع سجائر يستجدي سيجارةً.. تقف سيارة كوستر. يُسحب بابها السلايد فتتدفق من جوفها غيمةٌ نسائية تجمع هياكلَ بعباءات سود موحلة. غيمة يحتويها الرصيف ثم تتفرط بإشارة من امرأة خمسينية تبدو قائدة الجمع فتأخذ النساء، يصطحبهن أطفالاً متفاوتي الأعمار، شوارع متعددة حسب برنامج وضِعت مفرداتُه في الليلة الفائتة. هذا البرنامج يحوي نقطة التفرق ونقطة التجمع؛ المكان الذي تغطيه المجموعة بأكملها، الوقت الذي يصرف في مكان، الانتقال إلى مكان آخر، الاقتراحات الآتية من مسح لأكثر الأماكن فائدة في التسول... استجداءٌ مُنظَّم؛ شحاذةٌ احترافية.

إنه ينتظر.. والانتظار كالانتحار. كلاهما يهيمن فيهما الزمن ويكون المتحكِّم الفصل. زمن الانتظار انتحار بطريقة بطيئة شبيهة بذلك الذي يقطع شريان رسغه في حمام ساخن ويتكئ على الجدار يراقب سيح الدم ونضوبه من الشرايين ثم فقدان الوعي بالحياة تدريجياً.. وزمن الانتحار

شنقاً بانتظار اللحظة الخاطفة التي تبرق لحظة إزالة القاعدة التي يستند عليها الجسد وقطع الحبل الشوكي مقروناً بانغلاق القصبة الهوائية.

خشخشة في أعلى شجرة الزيتون أخرجته من تداعياته، عرفها حركة طير اتَّخذ من بين الأغصان مكاناً يصرف فيه ليله. كما عرف أن حركة السير في الشارع انسابت بيسر وليست ثمة اختناقات أو توقفات، فهل سيعود ليواصل تحركه باتجاه مجمع سيارات العلاوي فيصعد سيارةً تأخذه إلى مدينته الجنوبية. المدينة التي تتطلب قطع مئات الكيلومترات كي يكون بين أفراد أسرته، يطمئِّنُهم ويطمَئِنَّ على من جاء لأجلها قاطعاً البحار والجبال والصحارى، أمّه المريضة التي وعدها بالمجيء رغم إلحاحها بالبقاء بعيداً. إنْ فعل ذلك سيقضي ما تبقى من ساعات الليل يقصُّ عليهم ما جرى له، وكيف وهبه القدر مخرجاً للهرب من سلطة يكاد يكون الإفلات من قبضتها مستحيلاً؟.. عقله الجامع لشفرات التحليل سريعاً قال: لا ! قاطعةً، حاسمة. إذ سيقع في قبضتهم حالما يضع قدماً على مدخل أرضية مجمِّع الكراج وسينتقمون منه قتلاً غب ساعات.. إنَّ أول مكان يفكرون برصده هو مجمعات تحرك السيارات صوب المدن.. تلك الـ (لا) حسمت الأمر وجعلته يصمم على قضاء ليله في مكانٍ آمن.

رفع قدماً، تبعها بأخرى، وبخطوٍ وئيدٍ آثر عدم إحداث صوت اجتازَ حديقةً كانت قدماه تغطسان في خميلة عشبها الطري وتعبران السواقيَ. حتى إذا تحسستا ممراً إسمنتياً سلكتاه. دنا من نافذة صغيرة، مربعة، مشرعة، ينبعث منها شعاعٌ كابٍ.

النافذة هي التي أشارت عليه أنْ يدنو.

عندما دنا وصوَّبَ نظراته إلى الداخل حذِراً أبصر رجلاً أربعينياً ينهض من سريرٍ يتمدد عليه.. الرجل توجه نحو ثلاجة بيضاء عمودية ترتكن في الزاوية، فتح بابها واخرج قارورة ماء دلق بعضاً منها في جوفه وتحرك خارجاً.

النافذة المشرعة قالت له اعتليني وادخل على خفّة لحظة انبثاق ذكاءٍ وامضٍ في رأسك. هيّا! فسيعود الرجل بعد لحظات. سيتذكَّر أنه لم يغلقني. إنَّ عليه واجبَ حراسةِ المتحف من الداخل.. عليه المرور على القاعات والخروج إلى الفناءات. فالأوامر وردت مُشددة إلى إدارة المتحف، تدعوهم إلى استنفار الطاقات. ولمّا كان الحراس الليليون الخمسة قد أُختِزلوا إلى اثنين، هوَ وأبي جبار، بينما التحق الثلاثة في (جيش القدس) المُعد لمواجهة الحرب المندلعة فقد تحتَّم على هذا الواحد صرف الليل موزِّعاً تواجده في القاعات والممرات حتى الصباح، يُبلِّغ عبر الهاتف الجهة الأمنية القريبة إن حدث

ما يشير لخطر داهم يتعرض له المتحف. فالسلطة بحكم المعلومات الاستخباراتية التي تردها تتهجَّس من حصول عمليات سرقة لمحتويات المتحف الثمينة.

ولقد كانت النافذة صادقة في ندائها أو هو ذكي في ولوجه السريع إلى الغرفة.. إذ ما أن دخل حتى تناهت لمسمعه خطوات الرجل الحارس تدنو، ما دفعه إلى الارتماء على الأرض المفروشة بموكيت عتيق. زحف مختبئاً أسفل سرير حديدي بفراش إسفنجي تكومت على طرفه بطانية صوفية ثخينة فيما الطرف الثاني، جهة الرأس، فيه وسادة بشرشف سمائي موحل، تتوسَّطه وردة بنفسجية كبيرة متهرئة مثلما شمل التهرؤ الوريقات الخضراء المحيطة بها والتي لم تكن خضراء كما يفترض فقد حالت إلى اللون الرمادي.

الغرفة

حين دخل الرجل الحارس، وعلى اثر صوتٍ هادر لطائرة حربية مرَّت، توجه نحو النافذة مباشرة فأغلقها (عرف الهارب ذلك من صوت انغلاق مصراعها). ومن جديد فتح باب الثلاجة (لمح الهارب ساقي الرجل.. عرف انه يرتدي بنطلونا رمادي اللون وحذاءً جلدياً لم يُحسن تلميعه)، دلق في جوفه ماءً من قارورتها كما لو لم يكن قد شرب قبل قليل

مع أنَّ الوقت كان شتاءً والحاجة إلى الماء تقل (أتراه مصابٌ بالسكري؛ المرض الذي أحد مسبباته المفاجآت المرعبة؟).. ومن جديد خرج.

وجد الهارب نفسه ممدداً على أرضية تشبّع بساطُها بالتراب وخمَّن أنها لم تنظف منذ زمن طويل.. الغبار الطحيني يقتحم انفه. رأسه سيصطدم بسقف السرير إذا حاول رفعه، وحركة كهذا قد تسبب حدوث صوت مشبوه أو صرير يلفت انتباه الحارس فيعود ليتأكد وقد يكتشفه. لذلك سيصبح الجمود أفضل وسيلة للسلامة.. ولكن ! فقط لو ينقلب على ظهره! فقط لو يندلق رصاص سائل في أذني الحارس تغلق سمعه فلا يتنبه لمحاولة حركة انقلاب جسده.

لم يفلح التمنّي، والأنفُ ظلَّ يُقتحمُ بجيوش الغبار حتى أوشك على العِطاس.عندها لوى جسده ببطءٍ وبحذر حتى تلقى ظهره الأرضية المنبسطة وواجه الوجه سقف السرير. ذلك الموقف منحه حرية التأمل، وأثار فيه بادرة التفكير. انتبه أنه ألآن حر وإنْ كان في هذا المكان الضيق المحدود.. هو الآن في حالة شروع التحقق لو منحه هذا المكان الأمان؛ وقد يكون ملغماً بالمفاجآت.

أيُّ قدرٍ تلاعبَ به؟ ولماذا كل هذه الطعنات؟!.. ما أقسى أن يجد الإنسان نفسَه مرمياً في دوّامة عذاب وإن لم تتسبب

بمـا يُربـك الآخـر؟!.. يريـد لأيامـه الخطـو جنـب الحـائط فيسحبونها قسراً لحلبة الطعن بخناجر البغض.. يروم اللون الأبيض يضمخ سماء لوحة الأيام فيلوثونها بالرماد ويتركون لطخات بغضهم الأسود غرباناً تتعب بلا هوادة.

كـان متعبـاً ومرهقـاً ومتأزمـاً.. كـان خائفـاً ومرتبكـاً ومرعوباً.

يتمنـى لـو نـام دهـراً في مكانـه هـذا شـرط عـدم الاكتشـاف.. لكـن أنّـى لـه النـوم وهـو لا يـدري كيـف ستتصرف ساعات الليل؟ وفي أي وقت سيعود الحارس؟.. هل ثمة حراس آخرون سينضمون إليه؟.. وفكّرَ: الغرفة فيها سرير واحد، لكن من يضمنها مقتصرة على الحارس وحده؟.. ثم مَن يكون هذا الرجل؛ وما هو سلوكه؟.. قد يكون حارساً من رجال أمن السلطة؟ وهذا يعني التبليغ عنه حال اكتشافه؟.. من يَشغل الغرفةَ في النهار؟ لا بد أن تكون ملتقى للموظفين يشربون فيها الشاي، إذ لمح لحظة دخوله من النافذة منضدة تحاذي الثلاجة، فوقها طباخ غازي بعين واحدة، وقوري معدني من الفافون وأقداح زجاجية رديئة الصنع وعلب علقت بلورات السكر وقطرات من شاي مُحلّى أظهرت عدم اهتمام من يعده ويقدمه.

تاه في خضم الأسئلة وسط فكرٍ مشوّش وقلقٍ مُبرَّر.. تاه

وسطَ مدٍّ من حيرةٍ تخيَّلها صحراءَ لا أفق لها.. صحراء تحاذي مدينته في الجنوب، تخاطبه بالتيه وتذرُ في عينيه رمال المجهول.. كثبان متعالية تحجب بعضاً من الرؤية، وأخاديد غورية تتراءى له معتمة قد تأخذه إلى جوف الأرض حيث قبور أجداده الذين تاهوا في رحلة البحث عن المستحيل، وصولاً إلى ماهية القدرة على حيازة الوجود: أين مبتدأه، وأين منتهاه...

الباب الذي فُتح فجأةً سحبه من ميدان التيه فأعاده إلى الرجل الحارس الذي دخل يتذمّر: "ما هذه الوحدة القاتلة بين أحجار تركوها فوق صدري أحرسها طوال الليل ولا أدري إن كان ابن العاهرة سيطلق صاروخاً من طائرته المحوِّمة بلا انقطاع.. اللعنة عليكم!".. من مكانه تحت السرير أدرك المتواري من سيل كلمات التذمر أنْ ليس غير المتكلم الحارس في المتحف.. إدراكه منحه قدراً من الطمأنينة.

توجّه المتذمِّر إلى منضدة إعداد الشاي. أخرج من جيب بنطلونه علبة كبريت وألقم الغاز المنبعث من ثقوب العين بعود أشعله.. فتح الثلاجة؛ سحب قارورة الماء؛ سكب قليلاً في جوف القوري ووضعه على العين النارية، ثم صب ما تبقى من ماء القارورة في إناء غسل فيه قدحاً واعدّه لاستقبال الشاي.. قبل أن يستدير ويرمي بجسده على السرير استل علبة سجائر من

جيبـه؛ سـحب سـيجارةً أودعهـا شـفتيه مسـتعينا بعـود كبريـت أشـعله، سـحب نفَسـاً عميقـاً كمـا لـو كـان يبغـي إيصـاله إلى أبعد مسارٍ ﱞ رئتيه.. أحس الهارب بهبوط سـقف السـرير. خشـي على نزوله وضغطه على جسـده مثيراً غرابة الحـارس المسـتلقي الـذي قـد يدفعـه الفضـول لمشـاهدة مـا تحتـه فتقـع حينهـا الكارثـة... كانـت المسـافة معقولـة، والسـقف لا يصـل حـد التمـاس مـع جسـده وضـغطه، ذلـك أشـعره بأمـان نسـبي.. والحـارس انشـغل بامتصـاص دخـان سـيجارته ونفثـه ﱞ فضـاء الغرفة بانتظار نوس القوري: "متى تنتهي هـذه المعضـلة، يـا ربـي! أين معجزاتك، الناس بانتظارهـا.. واللّه لقد مللنا هذه الحياة.".

الكلمـات الوطيئـة الصـوت سمعهـا الهـارب فأفشـت إليـه بتـذمّر الرجـل وشـعوره بالوحـدة ﱞ مكـانٍ خمّنـه واسـعاً بقاعـات عديـدة وأروقـة طويلـة ومتداخلـة. ذلـك جعلـه يحصـد بعض الارتياح، ويتأكـد من أنه حتى وإن كـان حارسـاً أمنيـاً فلـن يغـرق ﱞ عَمـاء حـب السـلطة.. ودَّ لـو يخـرج مـن تحـت السـرير ليتعـرف عليـه ويتكلم معـه.. فقـد مـرَّ نصـفُ عـام لم يتفـوَّه بكـلام.. لسـانه اسـتحال قطعـة لحـم لا فائـدة فيهـا ولا ضرورة لها ﱞ فمه.. نصف عام وهو يتكلم مع جدران سـجنه بمفـردات الصـمت. لا أحـد يكلّمـه ولا هـو تكلّـم مـع أحـد.. وحتـى السـجّان فُـرض عليـه عـدم علـى كـل كلمـة ينطقهـا

سجين. الغذاء الذي يقدَّم إليه على شكل وجبتين يُدفع من أسفل الباب عبر فتحة توارَب، فلا يشاهد غير صحن قال له ضابط السجن في أول أيام اعتقاله: "إننا لا نعطيك طعام البشر إنما هذا طعام الكلاب المسكينة نسرقه منها ونعطيه لك، فأنت لا تستحق حتى هذا.".

الزنزانة

مرمياً وجد نفسَه في عتمةٍ كامدة، وآلام تتوزَّع جسده، وخثرة دم عند موق عينه اليمنى، حين مرَّر أصابعه عليها تحسس من فوق العصابة التي عصبوا عينيه بها ورماً كبيراً. حسب أنَّ زرقة داكنة تحيط عينه واحمرار يشيع في بياضها.. تذكّر أنَّ لكماتٍ مقصودة كان يوجهها له شاب يبدو من نبرات صوته لا يتعدى العشرين كان متحمِّساً لأيما إشارة من الرأس أو مفردة تشكّل شفرة يطلقها مَن كان يستجوبه.

رفع ساقاً فصرخ الفم بآهة تتفجَّر ألماً. وإذ هَمَّ بإعادتها لمكانها تفاقم سعير الألم. زاده وحرَّض عليه وجعٌ شديد سبَّبته عظامُ صدره فوق خاصرته اليمنى... ركبته اليسرى تؤلمه بفضاعةٍ ذكَّرته بقطعة خشب تصورَّها رِجل أريكة لها حافة حادّة كان يمسكها شخص آخر شرع يهوي بها

تنفيذاً لأمر انطلق من فم المستجوِب: "هشّم له ركبتيه".. يدري أنَّ صوتاً دوّى بفعل طرقات بملء الكف على باب الزنزانة الحديدي أيقظته من نوم رحل في زورقه هروباً من هواجس تتفشى في دروب رأسه فتنتج رعباً جراء منظومة حُذِّر كثيراً من ردِّ فعلِها، سمع: إن من يسقط في دوامتها لن ينجو.. لقد حذَّره أخوه من التوجّه إلى البلاد: "سينالونك بوزري حتى وأنت بريء... لا تكن بليداً، وتراجع عن رأيك."..

الطرقات ملء الكف أثارت رعبه؛ أعقبها صوتٌ آمرٌ قبل ان تفتح الباب: انهض.. استدر.. ارفع ذراعيك، وثبتهما على الحائط.. لحظةً ودوّى صوت المفتاح يدور ثم يفتح الباب ويدخل اثنان.. عصّبا عينيه بقوة. أغلقا فمه بشريط لاصق عريض. قيَّدا يديه من الخلف. امتدت كف افترشت رقبته من الخلف. دفعت برأسه إلى أسفل، ثم سحبه الثاني من حزامه.. أخرجاه من الزنزانة وقاداه عبر ممر لا يتعدى عشرة أمتار... أوقفاه.

دخل احدهما. سمع انفتاح باب وضربة قدم على الأرض، ثم عبارة: ها هو سيدي.. أندخله؟

ادخلاه غرفة مضاءة بمصباح حليبي ومنضدة حديدية رصاصية داكنة عليها أكثر من تلفون. وعلى كرسي خشبي مركون في الزاوية تراكمت مجموعة ملفات تخص سجناء

واتهامـاتهم، وبعـض تخـص عـائلاتهم وأصـدقاءهم وكـل مـا يُعتقد أنَّ له صلة بهم.. سمع كلمة: " أجلسوه هنـا ".. ثـم رائحـة جـوارب نتنـة تنبعـث مـن حـذاء نُـزع للتـو. (الحـذاء علـى الأرض، والجوربان في قدمين فوق منضدة، وجوارهما ملف):

- أنت جاسم شلال.
- ....
- اخلعوا الشريط اللاصق عن فمه.
- نعم، جاسم شلال.
- وجئت قبل أسبوعين من انكلترا؟
- نعم.
- جئت لتتجسس على بلادك وتعود، لتسلم إلى أخيك ما يضر الوطن.
- لا، ليس صحيح. جئت لزيارة عائلتي.. أمي مصابة بسرطان الكبد وأردت مشاهدتها قبل أن تموت، فأي تجسس في هذا.

جاءته أول لطمة على عينيه المعصوبتين، وقبضة كف كأنها حجر ضربت رأسه.

- تسخر منّا، ونحن أجلسناك باحترام على الكرسي.. (جاء الصوت حادّاً).. ارموه على الأرض.

رموه، وبصقوا عليه، وركلوه. ثم ركلوه مجدداً وبصقوا

عليه.

- أيعقل من أجل عجوز ميتة لا محالة تـأتي عـابر البحـار لرؤيتها؟

- هـي أمي..

- أمـك! ولمـاذا لم يـأت أخـوك سـالم الكلـب لرؤيتهـا.. أليسـت هـي أمـه مثلمـا أمـك؟ أم هـي الأوامـر دفعتـك لـدخول البلد حتى تطعنه أنت وأخوك ومن أرسلك؟

- لم اقـل إلا الصـدق. وأنـا رجـل أكـاديمي بعيـد عـن السياسة. ذهبت إلى انكلترا لنيل شهادة علمية.

- الم يكن الأجدر بك ان تنالها هنا في الداخل؟

- هنا قدّمت مـرات عديـدة ولم احصـل علـى الموافقـة مـع أني متفوق في سنوات الجامعة الأربع.

بصاق وركلات ولطمات قبل ان يسمع:

- وهذا يدعوك الى الهرب عن الوطن؟

- كنت مصمماً على العودة حال نيلـها. لكـن باتهامـات لا صحة لها تجبرون المواطن على عدم العودة للوطن.

انهالـت اللكمـات علـى الوجـه، والـركـل علـى الأضـلاع، والبصاق لم ينقطع:

- يعني تُّتهمنا بالتجنّي، يا جربوع.

- عالِج ركبتيه... اندفع الصوت من فم المستجوب هذه

المرة أشد حدّة، وانسحبت الرائحة العطنة، بعدما ارتفع القدمان من المنضدة وعادا لفردتي الحذاء.

حين دفعوا له بصحن عليه قطعة جبن مثلثة وربع رغيف خبز من فتحة أسفل باب الزنزانة لم يزحف لسحبه وتناول محتواه كفطور صباحي.. المواجع كثيرة، وما فيه لا يسعفه على لوك حتى الفُتات. فقط كان العطش هو ما يعنُّ عليه، ولسانه يلحُّ برغبة البلل. لذلك تحامل على نفسه فتحرك زحفاً لقارورة عبوة لتر أعطيت له وحددت ثلاثةُ أيام لن ير قارورة غيرها.

السرير

صوت صرير السرير (بفعل حركة استيقاظ الحارس واستدارته ونهوضه ثم وضع ساقيه على الأرض) أيقظ النائم على البساط المترب.. استيقظ مرتعباً لحظةَ ظنَّ نفسه في الزنزانة الزرقاء الداكنة وحسب الصرير هدير باب الزنزانة آن فتحها.. ارتعب. أوشك على إطلاق صرخةَ هلع لولا ارتفاع مستوى سطح السرير ووقوف الحارس المستيقظ توّاً على قدميه. "أين أنا؟!". سطحُ السرير المتشكِّل سقفاً، وساقا الحارس أعادوه لمجرى أحداث الليلة الفائتة فأدرك انه يمسك بأردان الحرية أو يعلَق بأذيالها. لم يكن موقتاً

باحتضانها له في أول ليلة ينام ساعاتها خارج المعتقل، ولم يكن يصدق أول صباح يستقبله حرّاً.

كلمةُ الحرية كانت غيمة ممتلئة بقادمات الهناء من الأيام هنالك!.. هنالك، في بلدان الشمال الجميل. حيثما يخطو كان مطر السعادة يهطل وأنّى تأمل ترجم الزمن لصالحه. مدينة ليدز بشوارعها وأبنيتها توحي له بجنّة مُستعادة على أرض. بشر يرفلون على دمقس وحرير وينهلون السلسبيل والعسل المصفى.. ريفُها يفرد ذراعيه ترحاباً به؛ وجوليا تأخذ بيده الى غابة هنا وبحيرة هناك. قناة هنا وقناة هناك.. بركة تطفو عليها أوراق خضراء وذهبية، دائرية ومخروطية، سقطت من أشجار الجوز والصفصاف العملاقة تصنع سطحاً وجسراً مقوَّساً يعبر القناة. المشهد يتكرر على امتداد مجرى القناة، ذكّره بلوحات مونيه التي تحمل عنانات "زنابق الماء". الفرق أنَّ الجسور يعبرها شبابٌ يتعانقون، أو يقفون في وسطها يطالعون فرشاة جمال الله مررَّها على حيّز من الطبيعة.

قالت له جوليا: "لنعبر كما يفعلون، لنتوقف وسط الجسر كما يتوقفون.".

أين جوليا أيها المتهشّم، وكم تبعد ليدز؟

تحرك الساقان. وشاهد المستيقظُ المرعوبُ الساقين

تتوقفان عند الثلاجة. سمع صوت انفتاح الباب الأبيض، وصوت اندلاق ماء. عرف انه أفرغ ماء القارورة جميعاً في جوفه. عرف ذلك من طقّطقة ضغط أصابعه على وسطها. كما عرف انه قدَّح الولّاعة وأشعل الطباخ ووضع القوري على شبكة العين المشتعلة. عرف كل ذلك من رائحة الشاي التي غمرت جو الغرفة وجعلت الحارس يملأ قدحاً من السائل الساخن المُحلّى ويروح يرتشفه بلذة.. الرائحة السابحة في فضاء الغرفة والرشفات عالية الصوت أججت في رأسه رغبة احتساء ثلاثة أقداح ساخنة دون شعور بالشبع والامتلاء والملل!.. "سأشرب ثلاثة أقداح وأكثر إن توفرت اقرب فرصة من الحرية".. تذكّر قدح الشاي البارد والخفيف بلا طعم يُعطى له في زنزانته مرةً واحدةً اسبوعياً.. "خذ!".. امتدت اليد ذو الكف البضَّة والأصابع الريشية.. "اشرب!". قالتها بغنج. فتسلَّم كوب الخزف وصحنه. اندفعت رائحة الشاي تملأ منخريه فتفعم روحه بغيوم الوله.. "شكراً، جوليا".. قالها بامتنان، وهي تمسك بكوبها وترفعه لترشف الطعم العذب من السخونة المحببة بعدما ذوَّبت السكر بتدوير الملعقة الفضية الصغيرة بحركة سريعة كأنها تستعجل ارتشافه.. البخار المرتفع من كوبيهما كان بمثابة حوار يشيع بينهما في جوٍّ من الصمت البهي. قال: "أنت تتقنين عمل الشاي كما تتقنه أمي.. كأنكِ أمّي."؛ وضحكت فرِحةً

للإطراء بينما ذاب هو في ثمل انتشاء قاده إلى ذكرى تلك الفتاة التي استدارت له بعد انتهاء أول محاضرة ألقاها عليهم السيَر هوبكنز في جامعة ليدز، يوم كانا هو وهي وخمسة من طلبة الماجستير.. فنلنديان، وفرنسية، وإفريقيان من تنزانيا وبوركينو فاسو يشكلون نصف دائرة. كان السير هوبكنز يجلس على كرسي وأمامه منضدة متواضعة يكّون نقطة في منتصف المسافة بين طرفي نصف الدائرة فيبدو الشكل كحرف (ن). اندفعت اليه بكلمة HELLO مموسقة فردّها بابتسامةٍ تنم عن دهشٍ لجرأتها.البنطلون الجينز يضغط فخذيها وساقيها ويظهر عجيزتها تفاحة ممتلئة. القميص وردي، بجيبين جانبيين خالي من الياقة، يسرق من حمرة خديها لونا له. الحذاء من الكتان بلون كاكي وقاعدة ملساء مسطَّحة يجعلها آن تمشي كأنها تطير. قالت: آي آم جوليا فروم اسكُتلند.. وقال آي آم جاسم فروم إراك.. قطبت حاجبيها، وقالت مستفهمة: فروم ايران؟!.. ضحك وقال: نو فروم إراك، (مشدداً على حرف الكاف. وفي سرّه ردد: إراك أبو المصايب).. آ، يس فروم إراك. وراحت تهز رأسها فتطعنه بغمازتيها وتسكره برفيف رموشها، وتردد: سَدام هوسين.. سَدام هوسين؟... ملامحها بثَّت ابتسامة فيها شيءٌ من الخوف وهي تذكر اسماً يعني لها كأجنبيةٍ الكثير... كان اسم

صدام حسين يملأ الدنيا ويشغل الناس. ليس بإبداع تنحني له البشرية احتراماً بل بسلاحٍ مروّع تغمض له العيونُ رعباً. هكذا قُدِّم عبر الإعلام.. كان آخر العام ٢٠٠٠ مليء بالأحداث والأخبار المتفاقمة فيها اسم العراق وصدام حسين تكاد لا تخلو منهما واجهة صحيفة أو صفحات مجلة أو شاشة تلفاز.

الهاتف

لا يعلم أنَّ في الغرفةِ هاتفاً مركوناً على منضدة جوار الباب، وأنَّ هذا الهاتف مُخصص لاتصال موظفي المتحف بالعامل الذي يعد الشاي ليلبي طلباتهم وقت الدوام الرسمي، وأنه أيضاً للاتصال بالحارس من قبل المسؤولين على إدارة المتحف بعد انتهاء الدوام وفي ساعات الليل، وأنه لاتصال الحارس بزملائه الحراس داخل المتحف حينما يكونون في غرف متوزعة داخل المتحف أو آن يكونون في بيوتهم. وعندما رنَّ وسمع صوت الحارس زغردت عصافير الفرح في سماء مخيلته.. وجدها خير وسلة للاتصال بعائلته. لذلك فكّر ما أن يخرج الحارس حتى يهب ليخبرهم بوجوده في بغداد - ويطلب منهم الاطمئنان فهو في مكان أمين وسيتوجه إليهم في اقرب فرصة، وانه سيخبرهم عما جرى تفصيلاً.

سمع الحارس يدير قرص الأرقام، وراحت الأرقام تتهافت

وصوته ينطلق:

- هالو..أبو جبار؟.. صباح الخير.

- ....

- الساعة الآن السابعة، بعد نصف ساعة يأتي الفرّاشون. اليوم انتهى أسبوع حراستي كما تعلم. وهذا الأسبوع عليك، تعال بعد انتهاء الدوام لتتسلَّم دورَك.. لم أقفل باب الغرفة.

- ....

- وفقك الله وحرسك بعينه... نسيت أن أخبرك تركت لك في الفريزر خمسة أرغفة اشتريتها من الخبّاز، وستجد في الداخل حبّات فلافل وزلاطة ورأسي بطاطا... مع السلامة.

عبارة مع السلامة، وصوت اصطفاق السماعة على هيكل الهاتف اعلماه بانتهاء المكالمة، واعلمته الدقائق المعدودة بخروج الحارس صوب بيته وشيوع الصمت.

سحب جسده من أسفل السرير.. ولأول مرة يلفي نفسه حراً في هذا الحيّز من الدنيا. نظر يستطلع موجودات الغرفة. الثلاجة البيضاء (شرّع بابها. استخرج علبة ماء دلق نصفها في فمه لينهي عطشاً دام ما يربو على ١٤ ساعة)، والمغسلة بسنك ألمنيوم (أدار رأس الحنفية فاندلق الماء)، والطباخ الأبيض، والأقداح الزجاجية المحلية رديئة الصنع بتأثير

الحصـار، وعلبتـان معـدنيتان (همـا علبتـا حليـب نيـدو عبـوة ١٢٠٠ غـم، فـتح الأولى كانـت تحـوي شـاياً، وفـتح الثانيـة فكان السكّر، عبأ فمه بثلاث ملاعق كبيرة من المسحوق الأبيض قتلاً لمرارة تتسيَّد جوف الفم)، ومروحـة متدليـة مـن السقف شمعية اللون (توزع على ريشاتها الثلاث براز اسود لذباب لمّا يزل يلتصق)، وشمعتا نيون الضوء في واحدة منهما ميّت، وهاتف رصاصي اللون على منضدة خشبية عتيقة (تقشَّر طلاؤها الأصفر واحتله غبار متكلّس). على جانب الباب الأيمن شاهد شاباً داخل مستطيل خشبي.. قال هذا أنا، أيتها المرآة.. احتل ثلثي المرآة لون رمادي فاتح وأزرار بيضاء لقميص كان يرتديه. القميص ذكَّره بالزنزانة الزرقاء فاكتأب (انه قميص كان يرتديه قبل اعتقاله فُجرد منه واستبدل ببدلة زرقاء قطعة واحدة استمر بارتدائها خلال أشهر اعتقاله). لكن نداءً انبثق من أغوار الروح كالشذا الفاغم، طمأنه ودعاه لترك المرآة باعثة الذكرى المخيفة.. التفت. رست نظراته على السرير.. اقترب ليجلس.. وضع عجيزته أولاً، ثم القى بظهره ورفع ساقيه إذ راودته رغبة التمدَّد بكامل قامته. أرخى رأسه على الوسادة، فانطلقت من براري الروح نغمة يـاااااااااااااااااااااااااه.. أحقاً انا على فراش ووسادة فوق

سرير؟!.. أصدقاً بلا برودة الأرض وصقيعها الجِلِف؟!.. نعم قالت له ذات الوجه الدائري وابتسامتها الطفولية تبثّها في الغرفة فتنتشر عطر الألفة. فوجئ بها في مربع يذيله تقويم العام ٢٠٠٣ وشهر نيسان مكتوب بالعربية، إلى جانبه كان اسم الشهر الإفرنجي (APRIL). وأسفل الكلمتين كانت عبارة (مع تحيات المديرية العامة للآثار والتراث).. الابتسامة عريضة؛ العينان مشرعتان برموش مغموسة في الكحل. على الرأس صف ذهب خالص يُطعِّم غطاءً دخل الحرير والقطن في صنعه فيما خيوط هادلة على الجبهة تحمل خرزاً بألوان العسل والقهوة واللازورد.. قرأ مرَّةً عنها أنَّ مالوان، المنقب الانكليزي الشهير الذي اكتشفها أطلق عليها اسم "موناليزا نمرود العراق". ادهشت المنقب حين استخرجها فأطلق هذه التسمية. وجدها مصنوعة من العاج بدقة نحتية متناهية، مُكبراً في صانعها موهبته الفذة وخياله الجامح.. لأول مرة يشعر بألفة، ويراوده إحساس انه ليس وحيداً في المكان. ترك رأسه مسترخياً على الوسادة، وجعل العينين تطالعانها بود. أراد أنْ ينام. قال لها أريد أنْ أنام. أتمنى النوم لساعات فلا يوقظني احد.

ربع ساعة صرفها في استرخاء لذيذ بين النظر للفتاة والتساؤل في الأعماق (لماذا لا أنام؟).. كاد فعلاً أن ينام،

وأوشـكت أجفانـه علـى الانطبـاق وسـط اسـتمرار مشـهد ابتسامتها الطفلية عندما نهض مستوفزاً على أصوات تتناهى من بعيد، حدسها أصوات العمـال الفرّاشـين الـذين نـوَّه إلـيهم الحارس وهو يكلّم زميله في الهاتف. أول شيء سقطت عليه أنظاره هو مفتاح الباب الذي تراءى له انه يخاطبه بسحبه من القفـل.. ارتعـش خائفـاً. تـردَّد في تناولـه، غـير أنـه حسـم أمـر الخـوف فسـحبه وأخفـاه في جيبـه خشـية حصـول شـيء غـير محسوب فيقوم الحارس القادم بغلق الباب، وقد يفعل عامل إعداد الشاي الشيء نفسه بعد انتهاء الـدوام.. لـو حصل ذلـك سيلفي نفسـه في السـجن مـرة أخـرى، وسيكتشـف أنْ لـيس أمامه غير نافذة إن فتحها وتسلّق خارجاً سيُحسَب لمن يراه لصاً، وسيلقى القبض عليه. خفق قلبه متسارعاً لهذا التصوّر.

رنَّ الهـاتف، فـارتمى أرضـاً، وعـاد إلى مكانـه أسـفل السـرير.. حسناً فعل. فبلحظات سمع خطوات واسعة حثيثة تقترب. ويداً امتدت سريعاً ترفع السمّاعة، وصوت للهجة جنوبية يرد على الصوت البعيد.. كان الصوت البعيد هو الحـارس الـذي خلّـف المكـان قبـل قليـل يُعلـم عامـل إعـداد الشـاي بترك المفتـاح في قفـل البـاب، وترجّـاه إعـلام الحـارس القـادم بعـد انتهـاء الـدوام بإقفـال البـاب إذا كانـت الظـروف غير اعتيادية وعدم تركها مفتوحة.

عندما وضع العامل سمّاعة الهاتف لم ير مفتاحاً في الباب. قال ساخراً في سرّه: "أغلقنا الغرفة أم لم نغلقها، أهي كنزُ المتحفِ حتى يُخشى عليها من السرقة؟!".

الزنزانة الزرقاء

يكاد يجهل قضاء ستة أشهر متوالية، فقد صرف ثلاثة أرباع الزمن في زنزانة زرقاء يرتدي قطعة من قماش كتاني ازرق. فراشه لا يتعدى بساط ازرق بلا سُمك فيتحسسه طوال اليوم بارداً كأنه خُصص ليمتص برودة الأرض ويبثها للجسد المُلقى عليه، وبطانية زرقاء هي خرقة صوفية بالية استخدمت لسجناء لا عدَّ لهم، ووسادة حشوتها قطن متصلّب كأنها قطعة حجر حين يستلقي عليها الرأس.. الجدران الأربعة زرقاء تحاكيها الأرض الزرقاء والسقف الأزرق. تشارك كلَّ ذلك البابُ الزرقاء والنورُ الأزرق المنسكب من مصباح ازرق. وحتى الطعام حين يؤتى له بوجبتين يأتي ازرق بأوانٍ زرق.. لهذا صار الوقت لديه ازرقَ متحجّر يتداخل فيه الليل بالنهار.. لماذا وضعوه في هذه الزنزانة الغريبة؟ وما الذي يجنون جراء فعلهم هذا؟.. في محاورته مع الذات وتداوله فهِمها وسيلة من وسائل الحرب النفسية تستخدم لإيصال السجين الى درك انهيار وهلوسة تضعانه عند حدود

الجنون، وعندئذ إمّا أنْ يجن فعلاً أو يستسلم فينفذ لهم ما يطلبون.

صباح أحد الأيام، وكان قد مرَّ على اعتقاله وحجزه شهر صرّت الباب وأشرعت على وجه رجل أربعيني، طويل القامة، حسن الهندام. قاده صامتاً (من دون تعصيب عينيه هذه المرّة) عبر ممر كانت ضربات أقدامهما تحدث صدىً. أوقفه عند باب صاجي نقر عليها ثم دخل، ألقى تحية مع انه بملابس مدنية، ثم التفت إليه وأمره: ادخل.

دخل، ووقف أمام رجل خمسيني ممتلئ مهندم يجلس خلف منضدة تراكمت على جانبها الأيسر ملفات بألوان مختلفة. أصدر أمراً بصوتٍ حازم للذي قاده:

- جد لي يا عريف برهان ملفَّه من بين الملفات.

- نعم، سيدي.. هتف العريف برهان (برهان الذي سيكون في قادمات الأيام شفرة كسر القيد).. استدار إلى الكرسي المركون يهم بالبحث في الملفّات. لكنَّ الملّف المطلوب كان الأول. يدري العريف أن الضابط اطَّلع عليه وقرأه، وعلى ضوء قراءته سيستجوب السجين. ويعلم أن هذا احد أوجه المراوغة وإظهار ما يجري ليس تحقيقاً صارماً بل مجرَّد حوار.

عرف السجين أنه يقف أمام ضابط كبير، لكنه

يجهل رتبته.

- تفضل سيدي. قدم العريف الملف بشيء من الانحناء.

فتحه الضابط، وقرأ. ثم رفع رأسه وصوَّب نظراته:

- أنت جاسم شلال.

- نعم.

- احكي لنا عن أخيك سالم. معلوماتنا تقول انه يعيش في ألمانيا منذ خمسة عشر عاماً ولم يزر الوطن مرةً واحدة. ومع هذا كنا ننظر له على انه مواطن صالح اقتضته الظروف الهجرة والعيش كغيره ممن هاجروا وصرفوا الأعوام، مواطنين يضعون العراق في قلوبهم. في الثلاث سنوات الأخيرة صارت تصلنا باستمرار معلومات مناهضته لبلده ومجاهرته بعدائه للقيادة، كما وضعنا يدنا على ما هو خطير. هذه الورقة أمامي تقول انه هو وعشرة من العراقيين بعضهم عليهم مؤشرات سلبية تظاهروا أمام سفارتنا وطالبوا بإسقاط الحكم.. أيصح هذا، يا جاسم؟

- لا اعرف هذا.. حقّاً لا أعرف. وإذا كنتم متأكدين حاسبوه، فلماذا اتحمل وزره؟

- لا نحملك وزره فأنت أكاديمي ومواطن صالح، لكننا نقول أنَّ لك ارتباطاً معه وزرته ثلاث مرات في ألمانيا، والتقيت بصحبه وأصدقائه. نريدك فقط تزويدنا بما تعرف

عنه وعنهم.

- أستاذ، أنا في ليدز في انكلترا، وهو في كولن بألمانيا. لم اذهب إلى ألمانيا ثلاث مرات بل مرتين. الأولى لأني لم أره منذ غادر العراق، والمرة الثانية دخل المستشفى بالذبحة الصدرية وطلبَ حضوري بسبب من شعوره بخطورة مرضه. صلة الرحم تتطلب السفر والوقوف إلى جواره.. بعدها لم يكن بيننا غير الاتصال الهاتفي.. سؤال روتيني عن الصحة والأحوال. كيف هُم الأهل وما إذا كان الواحد منّا يتصل بهم.

- وغير ذلك؟

- ليس غير ذلك ما يمكن أن يجعل حكومة بلادنا تستاء.

- يبدو انك لا تريد التعاون معنا بدافع مواطن يحب وطنه ويخشى عليه من الأعداء.

- الوطن يا سيدي يعيش في ضميري، وأقدّس حرمته بعد الله.

خلع الرجل قناع الوداعة وسربل وجهه بملامح الجلادين.. صرخ بعينين محمرتين جمعت غضب الجبابرة:

- لا ينفع معك إلا وسيلة تجبرنا على استخدامها معك. خذوه من هنا. اتبّعوا معه ما يتبع مع كل خائن لبلاده.

- لستُ خائنا، يا سيدي.

احتقن الوجه الغاضب أكثر. همّ بسحب مسدس يخفيه خلف سترته لينهال بقبضته على رأسه لكنه تراجع مكتفياً بالشتائم والوعيد بما سيحصل له ولأخيه.

وكانت ليلة رهيبة.. خمس هراوات انهالت على رأسه، وتعاملت مع وجهه عشرة قبضات. باقي اعضاء جسده تلقى عشرة أقدام بعقب كأنها الحديد بعدما حُشر فمه بكتل قطن مشبعة بمرارة حديد صدئ، ورائحة مقزِّزة تثير القيء.

يفقد الوعي ويُترك ليُعاد إليه اثر سكب ماء بارد يقرب من الانجماد فوق رأسه، ثم تتواصل دورة انهيال الهراوات واللكمات والركلات حتى يفقد الوعي من جديد... ولم يفقه كم من المرات فقد الوعي، وكم عاد... الذي يدريه انه حين فتح عينيه كان فماً يتأوه وأعضاء تختزن آلاماً فضيعة لا تُحتمل.

في لندن كثيراً مرَّ من أمام مكتب حقوق الإنسان. ولبّى دعوات منظمات مجتمع مدني تحاور ما يمر به إنسان اليوم وما تعانيه كثير من شعوب الأرض، وما تتعرَّض له النخبُ الثقافية في بلدان ما زالت تُقاد بأنظمةٍ شموليةٍ وحكامٍ يرون وجودَهم مشفوعاً برضا السماء وعلى الرعية إطاعته طوع الخراف لراعيها. لم يحسب أن سيحصل يوماً يدفعه لتقديم

شكوى وعرض حال. وها هو الآن يتمنّى لو تمنح له ساعة حرية لقضاها يدلي بما جرى له، ويؤكد بحقيقة ما يصرح به السجناء الخارجين من سجون هكذا أنظمة تحتقر الإنسان المواطن وتمتهن كرامته. يتمنّى لو يجلس الآن أمام الموظف المدوّن ليقول: اكتب.. لا يعرف النار إلا مَن اكتوى بها؛ ولا يقِّدر مدى هدر كرامة الإنسان وذله وعذابه إلا مَن دخل سجون العتاة من الحكام. وأنا جاسم شلال، مواطن عراقي. عدت من انكلترا إلى بلدي؛ وبي حنين الطفل لأمّه وشوق الحبيب لحبيبته. عدت لألبي نداء الروح التي دفعتني إلى ضرورة مشاهدة أمي العليلة، المتهالكة.. أمام عيني بدت بغداد من خلال الزجاجة الأمامية للحافلة التي أقلتنا من دمشق جميلة وإن كانت تعيش على لظى حصار مقيت وتعذيب سببته الأمم المتحدة، بقرارات جائرة؛ زاد عليه النظام الشغوف لرؤية مواطنيه يتساقطون كأوراق ذابلة من شجرة الوطن لاسيما الأطفال وهم يتضورون جوعاً وتضمر أجسامهم النحيلة مرَضاً؛ موظِّفاً الحال بروبَغاندا تدعو شعوب العالم الحيّة إلى إدانة فعل أهم منظمة دولية وجِدت لتنظم مسار الأمم. شكرتُ السماء لأنَّ مقعدي كان يحمل الرقم ٣، خلف السائق تماماً فيبدو كل شيء أمامي واضحاً.. دوّن يا سيدي، أنني ما أن وضعت خطوي على أرض

بغداد حتى استللتُ من بين الركاب. ووجدتني بمواقف عصيبة، ومعتقل رهيب، وممارسات كنا نراها فقط في الأفلام فنتعاطف مع السجناء وندين ما يُمارس معهم؛ لكننا كنا نتراجع عندما ندرك أن ما نراه ليس إلا تمثيلاً.. أما الذي مورس معنا، يا سيدي فكان فعليّاً وحقيقياً.. المثير للأسى والباعث على الألم هما النظرات العدائية المتفجرة من عيون أفراد يفترض أن يتصرفوا بحياديةٍ اعتماداً على معطيات ودلائل يمتلكونها، صادقةً وموثقة. غير أنَّ ما بأيديهم لا تعدو اتهامات وتوجسات لا وجود لها على أرض الواقع.. إنهم يختلقون الحجج ضد معتقليهم. يرددونها وهم يدركونها غير صحيحة. يرددونها، ويعيدون ترديدها. ولكثرة ما يرددونها يصدقونها. يصبح التلفيق من جانبهم صدقاً، والافتراء واقعاً. وبعدها تعال لتقنعهم بأن ما يطرحونه كاتهاماتٍ وهم، وما يقولونه مأتاه خيالهم.. المصيبة عندهم تتمثّل بعدم الاستماع لك ومن ثم تحليل ما تقوله بغية التوصل لمُعطى يؤكّد براءتَك أو جرمَك.. لا وجود لكلمة إنصات في قاموس تعاملهم، وليس إلا إقرارك بذنبك واعترافك بجرمك وتسليم صولجان الحكم إليهم ليسحقوك ويمحقوك.. لقد ارتعبت بقدر ما سخرت. يئِستُ أكثر مما أمِلت.. رعبي توالد من أداء فعل جرمي يؤدوه بدم بارد

وبلامبالاة للمشاعر؛ فالضمير والوجدان لديهم ماتا.. ماتا من أول روح أزهقوها، ونفس قطعوه. وسخريتي توالدت بهيئة أسئلة تترى: كيف جُعل هؤلاء الأوباش يمسكون بحيوات مواطنين صرفوا الجهد وسكبوا العرق كي ينهضوا ليخدموا فيسوموهم سوء العذاب، ولماذا تُركوا يتصرَّفون كما يحلو لهم بلا رادعٍ شعبيٍّ فتصبح مصائرُ الناس رهناً لقرارات تركل الحقوق وتسحق الكرامات؟.. لذا أرجوكم يا سادتي توثيق ما أدلي به إليكم. فأنتم صوتُ مَن أُضطِهدوا، وسُجِنوا، وعُذِبوا، وسُرِقوا، وقُتِلوا، ودُفِنوا أحياءً، وغُيبت قبورُهم أمواتاً، وسُلِبت حقوقُهم، ووئِدت تطلعاتُهم، وأُخذوا بعيداً عن أعشاش طمأنينتهم، ورموا على الحدود حفاةً عراة... يا سيدي إننا في وطن ممتلئ ومعافى وغنيٌّ. جيوبه ملآى بسبائك الذهب والفضة وأكياس تزخر بأحجار الزمرّد والياقوت والكهرمان والعقيق وتتدلى من قميص جهة الصدر تمائم مدونة بآياتٍ وأدعية تتضرع للّه إبعاد الشرور عنه وجعله دوماً في عزٍّ ورفاه ففيه ولد ألف نبي أنيط بهم بث روح الأخوة والعمل الصالح وبناء ما يرضي السماء. فيه ولد إبراهيم أبو الأنبياء، وقبله نوح الذي بنى سفينة حملت من كل زوجين اثنين من المخلوقات ليجتاز عواصف مجنونة ضربت الأرض وجاءت من اقيانوسات

الصخب.. وطنٌ يا سيدي، قفزت على كتفيه وركبت حفنة ممّن كانوا مشرَّدين وضائعين؛ أثقلته وأتعبته وقادته باتجاه التهالك والمرارات والعلل.

تأكَّد أن في كلام أخيه سالم الكثير من الصحة إذ يدين وطن قُيّض له كما يجاهر دائماً جعله مبولة للحكام وإسطبل لشعب ارتضى شعور تصنيفه من مجترات الهموم وسحق الذات. شعب يسعد بالهوان ولا يحيا بغير البكاء. شعب لا يأنس إن لم يخب على موسيقى الذل. الانحناء والهوان طابعا عيشٍ لديه، وكثيرا ما هتف أمام صحبه من المغتربين:" شعوبكم يا سادتي قطعان خراف مُساقة بالعصي ومستأنسة للهراوات."... كان إزاء ذلك التهجّم ينتقد سالم، رافضاً هكذا كلام، فيه من التطرف ما يغيض الآخرين عراقيين وعرب.

في زنزانته تمنّى لو امتلك مرآة ليطالع نفسه، ويتفحّص قسماته ليتأكد انه ما زال إنساناً ولم يحوَّل إلى مومياء.

المرآة

وقوفه منتصباً أمام المرآة أطلعه على شخصٍ قرين. القرين يحدِّق فيه بإمعان فيتقطب الحاجبان اندهاشاً. يريد أن يسأله مَن أنت أيها النحيف الضامر؟ ما الذي حدث، ولماذا

تقف محدودب وأنت شاب؟! لماذا أراك كأنني لم أعرفك ولم ألتق بك من قبل؟ لماذا عيناك تطفحان ببؤسٍ قاهر كأنها تخفي أحداثاً مهولة هشَّمت لديكَ مرايا الجمال؟!... شددَّ من تطلّعه في القرين، وكاد أن يتهاوى.. أراد البكاء بكل حرقة القلب، ويرتمي كطفلٍ كسير أمام سعة الاندهاش الظاهرة في المرآة. أراد أن يقص بانوراما قسوة مريعة تلقّاها دونما سبب.. أراد أن يتعرى ويدور، ويدور ليقدِّم قصيدةَ عذاب لاقاه.. أراد أن يقول، ويقول.. ولكن ! ماذا يقول؟!.. ماذا يقول البلبل للفلفل الذي أخرسه؟ ماذا يقول القمر الذي فُقئت عيناه؟ بماذا تنطق شفتاه وقد كُبلت بكلّابات الخرس؟!

المرآة الواقف بمواجهتها تناسخت الآن أمام ناظريه إلى مرايا.. مرآة بجوار مرآة، بجوار مرآة. ومرآة خلف مرآة، خلف أخرى وأخرى.. كل واحدة تعرض له مشهداً، وتخبره بحدث.. ما أن يزيح واحدة حتى تظهر له ثانية وثالثة.. مرايا بالتتابع تقص أحداثاً وتشير لتواريخ:

▪ مرآة تطلّع فيها فأبصر امرأة أربعينية تمسك مرآة دائرية وفي عينيها يتطاير شرار حسد، وعلى رموشها تتراقص شياطين غيظ.. تسأل المرآة: هل ثمة من هي أحلى مني؟ فيجيبها البهاء البلوري: نعم سهام.. ابنتك؟.. الحاجبان

يقطبـان، ويعلـو لهـاث الصـدر. تحـترق الأعصـاب ويشـتعل الجوف.. فوراً يصدر القرار بالانتقام من الابنة.

■مرآة تعرض امرأة تتفـرس في مـرآة وتطـالع وجهـا يقطـر ترفاً؛ تتسـاءل عمـا يجـري خـارج قصـرهـا ومـا يهـاجـم مسـمعهـا من ضوضاء فيقال لها فقراء يحتجون، يطالبون بتوفير الخبـز فتمـرر أصبـع الـروج علـى شـفتيها وتـرد بامتعـاض: وفـروا لهـم الكيك بديلاً عن الخبز.

■مرآة قالت للوجه المتغضن والشعر الأشيب المتكسّر هـو الـزمن أيتهـا العجـوز.. يـا مَـن كنـتِ تسـحرين النـاظرين، وتـؤججين جمـر اللوعـة في قلـوب الهـائمين بـك، المتعثـرين انكفـاءً بلامبالاتـك.. لا تتطيَّـري، ولا تنـدبي حظـاً.. لا تصرخي: أين منه المهربُ؟

■مرآة أظهرت شاباً ببدلة بنية وربطة عنق ثلجية مطعمة بورد حريـري لميع كـان يطـالع للمـرة الأخيرة هيأتـه قبـل أن يترك الشقّة ويذهب لبيت اسـرة جوليـا. يطـرق البـاب وينتظـر. تفتحه جوليا بنفسها مرتدية فستاناً سمـائي ووجـه ألـق وعقـد ماسـي ينـاسـب فـرح عيـد ميلادهـا. تسـتقبله بعيـنين عـاجَّتين ببهجـة طفوليـة؛ منبهـرة بقوامِـه ومظهـرِه حتـى لتخالـه نجمـاً سـينمائياً أتـى علـى البسـاط الأحمـر ليتلقـى جـائزة العمـر.. تقدّمـه لـلأب الـذي اسـتقبله بحميميـةٍ، ولـلام الـتي تعالـت

نظراتُها بالإعجاب. وإذ وقفا أمام مرآة تتوسط صالة البيت الواسعة وهما يحملان كأسين من نبيذ يتماهى مع مكعبات ثلج بلّوريّة صفق لهما الحضور وتمنياهما رفيقين دائمين يرفلان في دنيا الفرح والسرور.

آخر مرة تعامل مع مرآة كانت مرآة الحافلة التي أقلته من دمشق دخولاً إلى الوطن. كانت تعرض وجهاً نيراً وشعراً غزيراً يتباهى بسواده. تتقوّس خصلةٌ منه على جبهته. الخصلة صنعتها له جوليا صباح استيقظت فوجدت الأريكة التي نام عليها في الصالة وقت دعته لقضاء الليلة عندها خالية. ظنته أول الأمر نهض وخرج مفضلاً عدم إيقاظها ، لكنَّ صوتَ الماءِ المنسكب من حنفيةِ مغسل الحمام أنبأها بوجوده. أبصرته يمشِّط شعره بعدما غسل وجهه بالصابون وتعطَّر بعطر "ريف دور" يضعه دائما في حقيبته، اعتاد استخدامه مُذ ولج الشباب من باب المراهقة البريئة ، مفضلاً إيّاه على كلِّ ما تنتجه مصانع فرنسا الشهيرة. أعجبها تمشيطَ الشعر للوراء؛ ووجدته يضفي مسحة مضافة من الجمال لوجهه لكنها اقترحت عليه بحركة أحدثتها بالمشط، إذْ أمالت له خصلةً من شعره شمالاً ودعت نهايتها تنحني على جبهته.. ضحك لحظتها وعلّق: تجعلينني مثل جون وَين؟... منذ ذلك اليوم صارت طريقةُ تمشيطه تقليعةً لا يحبّذ تغييرها ، وصارت جوليا تعتز به من احترام رأيها والأخذ

باقتراحها متخلياً عن طريقة قديمة ارتآها له حلاق الحي؛ قصّة خاصة يوم حضر صبيّاً صحبة أبيه لأول مرة الى حلاقٍ في دكان بمرايا متعددة وكرسي دوّار ومقصّات متفاوتة الاستخدام وقناني عطور مختلفة المناشيء أوشك أغلبها أن يفرغ. فقد دفع الحلاق بشعره عند الانتهاء من طقس الحلاقة إلى الوراء بعدما مرّغه بسائل زيتي أبيض وجعل المشط يعيده ويثبته مُنسَّقاً، لامعاً، مُخاطباً أبيه: "هذه قَصَّةٌ تناسبه؛ هو الآن فتى متكامل، أليس كذلك؟ ".. يومها ابتسم الأب وشعَّت من عينيه مصابيحُ البهجة: "فعلاً ظهر جاسم آخر. ".. من يومها وهو يولي للمشط مهمّة دفع شعره للوراء فتبان جبهته عريضة وحاجباه كثين. وصار كلّما قصَّ في محل حلاقة آخر وتغيرت تسريحته طلب من الحلاق في نهاية الأمر دفع الشعر للخلف حتى وإن أظهر ذلك الحلاق امتعاضاً وأبدى احتجاجاً.

الحافلة

"اليوم حجزتُ من أحد مكاتب حافلات خط دمشق - بغداد في السيدة زينب.. غداً عصراً ستنطلق الحافلة من دمشق.. سنكون بمنتصف الليل عند الحدود. سنترك منفذ "التنف" السوري لندخل الأراضي العراقية عبر منفذ "الوليد".. وفي الصباح الباكر سنصل بغداد.. بعد الظهر سأضغط زر

الجرس وارتمي بين ذراعيك، يا أمّي، واقبّل كفيك. ".

استقبلت الأمُّ الكلمات من سماعة الهاتف وبكت. فبقدر ما هي سعيدة لسماع صوته وخبر قدومه كانت حزينة لشعورها انها ستفقده وتفقد أخوته وأخواته وترحل عنهم بعمر تراه ليس طويلاً. فلم تشهد زواجَهم، ولم تر أحفادها يرفلون على ثرى السرور وينطّون بجذل داخل البيت بغرفه وفنائه وحديقته الواسعة، بالأرجوحة الصامتة منذ رحيل الزوج وتوقف شرب الشاي وتناول المعجّنات عصراً. (كان شرب الشاي تقليداً اعتادت عليه العائلة منذ كان الأولاد صغاراً، وأرجوحة كانت تهتز بانسيابية تنتج قصيدةَ حياةٍ أُسرية شبه مستقرة).

تقطع الحافلة أرضاً صحراوية جرداء لم توضع البرامج العلمية والخطط الموضوعية لجعلها أرضاً زراعية غنّاء كما يُفترض، وتمر على قرى شاحبة هامدة كأنها تُرِكت على حالها منذ قرون.. لا أثر لإعمار، ولا لمسة على تحضّر.. الحروب المتعاقبة والحصار الطويل ألقيا بظلهما القاتم ولطخاتهما الكئيبة على وجوه الركاب، والناس الذين أبصرهم عند مطعم منطقة الـ(١٦٠ كم) نزلوا يتناولون العشاء أو ينالون دقائق تريح أجسامهم المحنطة إلى الكراسي فيتحركوا. أقدامُهم متورِّمة بفعل تكدّس

الدماء واحتقانها في الشرايين والأوردة. كان مرَّ على هذه المحطة قبل خمسة أعوام.. هي!.. هي!. لم يتغير فيها شيء إن لم يقدرها نحو الأسوأ. والجالس بمحاذاته رجل في الخمسين عرف اسمه من نظره خاطفة إلى جوازه لحظة استعد لتقديمه لمساعد السائق الذي طالب الركاب تهيئة الجوازات وجمعها كي يسلّمها الى نقطة حدود طريبيل لتأشيرها بختم الخروج والتأكد من وجود وصل السفر البالغة ٤٠٠ ألف دينار، بما تعادل مائتي دولار ملتصقة على إحدى صفحات الجواز.. عرف اسمَه: راسم.. ولم يعرف اسم أبيه إلا من خلال مناداة موظف الجوازات بالاسم الثلاثي فيما بعد.. راسم قال انه مدرس متقاعد، واعلمه حين نزلا وترجَّلا عبر ممر إسمنتي يأخذهما لقاعة تأشير الجوازات أنه مسافر إلى عمّان للقاء ابن له يعيش في الدنمارك ويعود منه ببعض الدولارات كي تعين عائلته المكونة من ولدين وثلاثة بنات جميعهم يكملون دراستهم بمراحل دراسية مختلفة.. المهم أنَّ راسم هذا حين التفت يطالع وجوه الركاب أدار وجهه ممتقعاً وهجم عليه ارتباك مفاجىء "ما بك أستاذ راسم؟.. تبدو غير طبيعي؟!".. أوه يا إلهي! ما تراه عيني صح أم أنا واهم؟! " ردد بارتباك اكبر.. "ما بك !قل؟ ".. قال "أليس هذا الدكتور قدامة الملاح، مُقدِّم برنامج العلم للجميع بديلاً للدبّاغ؟.. كيف

يجرؤ هذا المسكين على الخروج؟.. الأكاديميون ممنوعون مـن السـفر؟".. "خفـف مـن ارتباكـك، قـد يكـون موفـداً بطريقة مشروعة؟".. "أرجـو ذلـك.. أرجـو ذلـك.." قالها بارتبـاك أشد.

حـين صـعد الركـاب وتركـت الحافلـة نقطـة طريبيـل ودخلـت الحـدود الأردنيـة إلى نقطـة الرويشـد بقـيَ كرسـي قدامـة المـلاح فارغـاً.. "قلـبي هجـس أنَّ شـيئاً سيحصـل لـه.. الشهادات العليا يا ولدي صارت وبالاً علـى حامليهـا. فهم بـين مطرقة الراتب الهزيل وسندان منع الخروج من الوطن".

وكانـت السـاعات ثقيلـة علـى الأسـرة جميعـاً.. وقلـب الأم كـان رهيفـاً متعطشـاً.. تريـد أن تُمطـر علـى ولـدها مطـرَ الشوق. فهي على دراية بموتها بعد أيام، وهذا المتسلل اللعين لكبـدها شـرع يوسّـع فعلـه المميـت فيـنقض علـى أمعائهـا، مضاعفاً ألمها؛ غير آبه بالمهدئات.

جاء الصباح.. وحضر الظهر.. وجاءت دقائق العصر.. مـرَّت ساعاته.. جاء الليل.. ثقُلَ الوقت، تأزَّمت النفوس.. كان النـوم متقطعاً والهواجس تترى.

صباح اليـوم التـالي نفـث الخـوفُ رائحـةَ التطيّـر، وأشـاع الخشية من مكروه.. العيون تتصالب على البـاب، والمسـامع تُرهف وتتحسَّب لرنين الجرس.

نهـار اليـوم التـالي كـان الهـاتف شـغّالاً. مـا أن توضـع السماعة لتغلق خطاً حتى ترتفع من جديد لفتح خط آخر؛ وآخر ، وآخر بينما القلق ينشر أشرعته على سفن النفوس المبحرة في بحر الخوف من المجهول وتحسب هجوم خبر يفجر الرعب فيجعل البيت دائرة نواح.

مر اليوم الثاني وجاء الثالث، ثم تراكمت الأيام.. لا يوجد ثمّةَ ما يشير لقدوم الغائب. لا خبر يمكنه وضعَ حدٍّ لهجوم الهواجس ويهدئ دفاعات النفوس. تذهب فاطمة بناء على طلب أمّها المرتبكة الباكية الى العم أكرم واطلاعه بأمر التأخر وعدم الحضور في الموعد المحدد.

تلفعت فاطمة بعباءتها وانطلقت باتجاه بيت العم.. العم هو الذي استقبلها. استحال أكثر قلقاً حين أعلمته بالأمر. تشاءم، وتطيّرَ، وتكدّر. فمظاهر الاختفاء لا حصرَ لها في نظام لا يرأف بمن يناهضه بالرأي. جعل التغييب وسيلة مثلى لإرعاب الغير.

عندما أجابته بأن ثلاثة أيام من مكالمته الهاتفية معهم لم يكحلوا عيونَهم بطلعته تفاقم التشاؤم عنده، حتى وهو يدعوها للعودة إلى البيت وتطمين أمّها. نهض على الفور؛ ارتدى ملابسه وخرج بعدما أعلمها بتحركه صوب المستشفى المركزي علّه يجده هناك. أخبرها أنه سيذهب

بعدها لمديرية الشرطة ودائرة الأمن للاستفسار.

بانتقاله من مكان لآخر، وطرح سؤاله المشوب بالمرارة والحيرة كان خوفُه من تغييب ابن أخيه يزداد فيفكِّر كيف يعود لوالدته وأخواته بما يقلل من خوفهن على سلامتِه وخشيتهنَّ من فقده.

وإذ تبددت كل محاولات التعرف على مصيره صار الانتظار ديدناً لعودته، والتشفّع عند اللّه ورسله وأنبيائه رجاءً يومياً.

الحرب

ليلة التاسع عشر من آذار والعام يعلن وجودَه على التقويم الزمني بـ ٢٠٠٣ وفيما هو يغط بنوم عميق استفاق بغتة على انفجارات ضخمة متتالية، يأتي دويُّها من جهات مختلفة لكنَّ أكثرها وبتكرار استغرق ما يربو على نصف ساعة حصل جهة الشرق وبالتحديد في صوب الكرخ.. أانقلاب عسكري أم هو تمرين بالذخيرة الحيّة أم بدأت الحرب؟.. الاحتمال الأول وارد. فالحصار الدولي الذي أنهك الشعب وأمرض الوطن منذ ما يقرب من ثلاث عشرة سنة وما زال قد يكون استنهض هِمّة، ولو حفنة، ضباط حتى وإن كانوا من القوات التي يأتمنها الرئيس فلا يزرع فيهم مخبرين

سريين يمكن وأد محاولاتهم قبل تنفيذها.. الاحتمال الثاني ليس وارداً على الإطلاق؛ فالقوات الجوية الأمريكية المهيمنة على الأجواء والماسحة الأرض العراقية طولا وعرضاً يومياً لن تسمح بهكذا إجراء. أما ثالث الاحتمالات وهو الأقرب للحقيقة فإنَّ ارج حية بدء الحرب كبيرة..أسلحة الدمار الشامل هي ما تُقلق الحكومات الغربية وشعوبَها.. هوج القيادة العراقية ورئيسها في عدم التأني باستخدامها هو ما يرعب المتحضرين من الأمم ويجعلها تبصم بالأصابع العشرة تأييداً للحرب... ما زال يذكر كيف بدأت حرب الخليج الثانية جراء احتلال الكويت ساعة صحا الناس في شمال الوطن وجنوبه، شرقه وغربه في الساعة الثالثة إلا الربع صباح يوم ١٧ كانون ثاني ١٩٩١ وكان استيقاظه هو وأفراد العائلة على دوي انفجار مدوّم أنتج ضوءً أشعل الجزء الجنوبي من المدينة، وكيف اعتلى السلم نحو سطح الدار فسمع جاراً سبقه في الصعود لسطح دارهم يعلن قصف الطائرات المغيرة مصفى النفط، وما هذه النيران المتصاعدة الا نتيجة احتراق الصهاريج الأرضية الثابتة.. ومن سطحٍ آخر سمع كلام واثق كأنه يعلن ذكاءه وصدق حدسه: تدمير التموين من أولى أولويات شل الآخرَّ.. وستأتي الجسور بعدها.

ولقد كان حدس ذلك الجار في مكانه، ففي الساعة

التاسعة صباحاً شاهد الناس طائرةً فضية أسقطت عليها الشمس بعضاً من أشعتها فجعلتها تبرق.. دارت في السماء دورة كاملة قبل أن يبصروها تبصق صاروخاً توجه نحو الجسر الحديدي الذي وضع هندسته مهندس ألماني ونفذته شركة بريطانية لكنه اخطأ هدفه فسقط في ماء النهر وغاص.. صاح أحد المتابعين: هذه طائرة بريطانية.. طائرات سلاح الجو البريطاني بيضاء فضية؛ لكنَّ الطائرة التي قامت بقصف الجسر عند الثالثة إلا ربعاً صباح اليوم الثالث لم تكن بريطانية بل أمريكية أصابت الجزء الذي يربط الصوب الكبير من المدينة بالصوب الصغير. وظهر الناطق باسم قيادة القوات المشتركة في المساء يعلن ضرب الهدف بدقة متناهية ضمن مُجمل عمليات حربية شملت العراق بكامل جغرافيته ومواقعه الستراتيجية. من يومها صارت المنشآت المدنية هدفاً ثميناً للأعداء المغيرين وصار الخراب سمّة لن تتوقف الحرب إلا بتحقيقه على أتم وجه. تحقيق يعرض فعل السادية في أوج نجازتها حيث تتعالى قهقهات كادر غرفة العمليات الحربية لرؤية الدماء تصنع سطحاً قانياً يغمر الأفق ويشيع متعالياً حتى قبة السماء قريباً من الرب. فضُربت خزانات المياه العذبة العائمة في الهواء، ودُمِّرت مضخّات تصفية الماء ما جعل سكان المدينة يلتجئون

للنهر يغسلون الأواني والقدور والملابس؛ وينقلون ما يستطيعوا حمله من ماء للطبخ والشرب.

وفي الوقت الذي شاهدوا الناس تلتجئ إلى النهر وتعتمد الجسر الخشبي الوحيد المتبقي للعبور صوب الضفة الأخرى وبالعكس بعدما دمر الجسر الحديدي الرئيسي اتخذوا قرار تدمير ذلك الجسر ومن كان فوقه، ومن كان على ضفتي النهر... الذي كان على الضفتين عائلات: نساء وأطفال وفتية وفتيات. أطبق الطيار الحاذق الصليب الالكتروني على صليب خارطة الهدف وأطلق صاروخاً صفق وصرخ صرخة الانتصار حين جاء وصوله الهدف، وأعلن المؤشر الالكتروني لشاشته الضوئية علامة ١٠٠٪ دون إعارة اهتمام للمخلوقات البشرية التي تطايرت وتشظت، ولا للدماء التي تفجرت راسمةً لون الكارثة على ما تبقى من جداران ابنية طال اغلبها الانهيار.

كتاب "الساعات الأخيرة من حياة عبد الكريم قاسم" للصحفي احمد فوزي كان بيده؛ يطالعه تلك اللحظة فيُكبر على المؤلف حياديته في التأليف دون خشية من رد فعل السلطة وهو يعرض نزاهة هذا القائد الذي ظل محط إدانة يلصقها به حزب السلطة.. سمع رعداً تبعه انفجار خرافي، شبّه له انه رديف انفجاري هيروشيما وناكازاكي؛

حتى إذا رمى الكتاب أرضاً ونهض من كرسيه ليعتلي الجدار، مصوباً عينيه نحو جهة الانفجار، أبصر كتلةً سوداء ترتفع نحو السماء ثم تهوي: يا إلهي، ماذا يفعلون بهذا الشعب المسالم، البريء؟.. اللعنة!.

القريبون من الكارثة أفاهوا انَّ كتلة سوداء هي الجزء الأمامي لسيارة مارّة ضربها عصف الصاروخ فتهشمت وتطايرت إلى أعلى، ثم هوت على المارة المذهولين لحظة اندلع الهول فكان مَن بداخلها ومَن سقطت عليهم الأجزاء المتطايرة ضمن إعداد ضحايا قاربوا الثلاثمائة.. القريبون من الكارثة تبعثروا كالمجانين في الشوارع المهجورة والطرقات يصرخون ويبكون، يولولِون وينتحبون، ذاهلون، مندهشون، مرتعبون. الوجوه دامية والشفاه تريل. الشعور منفوشة والملابس ممزقة. الأقدام حافية لا يدرون أنهم كانوا يرتدون أحذية واخفاف أم أنهم خرجوا من بيوتهم حفاة عراة.. القريبون من الكارثة تسمَّرت عيونهم على رؤوس وأجساد ممزقة وأعضاء منفصلة تعلو وتسقط في مجرى النهر والماء يبتلعها تاركاً بعضاً من العباءات والخرق الممزقة تطفو مشيرة لمخلوقات تجنى القتلة العتاة على تمزيقها خلواً من الرأفة، تنصلاً من الإنسانية.

وكانت تلك كارثة واحدة من كوارث عهر الحرب ومجونها.

المطر

رشقات تلطم زجاجَ النافذة المشجَّر السميك استشعر لفعله هطول مطر. هذه المرّة أيقن أنَّ الهدير المتقطّع ليس بفعل انفجارات بعيدة أو اختراق طائرة لجدار الصوت إنما هو الرعد المصحوب ببرق يومض وراء الزجاج.. وقبل أن يمد يدَه ويدير أكرة النافذة ليطالع ما في الخارج ضغط على زر اطفاء النيون ليكون في ظلمة يتمكّن من فيض هيمنتها رؤية المطر الهاطل في الحديقة ومرور السيارات القادمة من الصالحية، المنعطفة يساراً باتجاه نفق العلاوي المقابل للكراج أو تلك الخارجة من النفق ومارة جوار دائرة البريد باتجاه الصالحية وثم جسر الأحرار.

صوت المطر والمصابيح الخافتة التي ترشقها القطرات المجنونة بفعل ريح تؤرجح نهايات شجيرات الكالبتوس المحاذية لأعمدة الكهرباء أعادت لقاءً حسبه انعطافة مهمّة في حياته. فقد ساقته وجوليا عصر أحد أيام سبتمبر بعدما انتهيا من دروسهما في الجامعة وراحا يخطوان صوب متنزه (راوند هاي) هناك وعلى حبيبات فول سوداني ابتاعاه من بائع اسمر البشرة يشتغل في كافتيريا صغيرة.. عرفه ذو البشرة السمراء عربياً فسأله: أنت سوري؟.. قال لا انا

عراقـي.. "أكـرَم زول! ".. قـال: شـكـراً.. وانطلقـت مـن فـم جوليا ضحكة منغمة وهـي تـردد مفـردة شـكـراً!.. شـكـراً بابتهـاج وفـرح ذلـك انهـا سمعـت مـن صـديقها هـذه المفـردة وأفهمها انها مرادفة لعبارة thank you.

احتوتهمـا مصطبة تحـاذي شـريطاً كونكريتيـاً لـبحيرة اصـطناعية كـان الإوز الأبـيض ذو العنـق الطويلـة يـدنو فيحـاذي أطـراف أقـدامهما.. يرميـان إلى المـاء بحبّـات البـوب كورن بأشكالها المنتفخة أو المتعرجة، اشـترياها مـع الفـول السـوداني، فتتحـرك الـرؤوس المسـتدقة والأعنـاق المقوسـة لتلتقطها مـن السـطح... يتـذكـر كيـف مـرَّ عليهمـا جـوقٌ مـن فتياتٍ مراهقات بصحبة أصدقائهن وهم يتراشقون بـالكلام والضـحـكات ثـم تنطلـق مـنهم صـرخاتُ السـرور مشـيرين لشاشـة تلفزيونيـة شـرعت تبـث علـى خُطـى مَقـدم الغـروب إعلانات تصاحبها أغانٍ سريعة، مفرداتها تعلن نجاح بضـاعة ما وتدعو لاقتناء نتاج ما حتى إذا انفجر تصفيقٌ هـائل وصوت جمـاهيري ضـاج التفتـا.. كـانـت سـيلين ديـون قـد قـدِمت مـن وراء سـتار مسـرح واسـعٍ وعـريض لتطـل كـأميرةٍ؛ تهـدل مـن فوق كتفيهـا عبـاءة تمسـح الأرض. تتوقـف أمـام مايك نصـب لها لتنطلق بأغنيـة تايتانـك الـتي يشـرع ذلـك الفلـوت السـحري الباعـث على الحزن، والدافـع إلى تطويحة الرؤوس انغمـاراً في

ثمل الشجن من فم عازفة اتجهت إليها الكاميراً فاحتلت مساحة جعلتها تتماهى وصوت ديون الذي تدفّق فجعلَ الجموع على الشاشة ترفع الأيادي بانسيابية خرافية، حاكتها سريعاً أيادي الفتية والفتيات الذين احتشدوا أمام الشاشة وراحوا يرددون مع الراحلة في شجوها بمصاحبة الفلوت الحزين:

My heart will go on
.Every night in my dreams , I see you , I feel you
That is how I know you
Go on

ذلك المشهد أجَّج فيهما رغبةَ النهوض وترك الإوِّز والتوجّه الى حيث البقعة الخضراء التي شرعت تستقبل رواد الحديقة غير مبالين بريح شرعت تزداد فيزداد معها حمى رغبتهم في التمايل بأجسادهم فينهمر عليهم مطر كان في البداية رذاذاً، ما لبث أن استعار جنوناً غامضاً فانفجر مطراً انتصر على المشاهدين الغارقين في طوفان النغم وانسيابية الصوت فبعثرهم.. هرولَ هو وجوليا خارجين، واندفعا نحو مقهى متَّخذين مكاناً جوار واجهة زجاجية أظهرت لهم الشارع يستحم بماء عابث ومجنون، وأرتهم عشّاقاً مزدوجين يتشاركون بمظلة واحدة، وحديقة تصرف الوقت بلا رواد فيما مصابيح الرصيف المجاور تهمي ضوءً تعابثه الرشقات.

تلك الليلة انتظرا طويلاً بعدما سخَّنا جسديهما بكأسي

بيرة ذهبية لها رغوة تتعالى فتسيل من الحافتين الزجاجيتين، واقترحت عليه مصاحبتها إلى شقّتها ليقضي الليل، فالوصول لشقّته في الريف الليدزي صار بعيداً.. لا مناص من قبول الدعوة، وليس من الحكمة الانسحاب عن فتاة واربت أبواب رغبتها في اختياره صديقاً لها.

في الشقة التي في الطابق الثاني من بناية بأربعة طوابق جلسا عند النافذ المطلّة على شارع فرعي بدا موحِشاً يفتقد ضربات أقدام المارة. فقط الماء يغسل أسفل الشارع ورصيفَه في الجانب الآخر.. أمامهما قارورتي بيرة ابتاعاهما من المقهى.

- لأطفئ المصباح.. أحبُّ أنْ نُطلّ من عتمة.. ما رأيك؟
- وأنا معكِ؛ أنت محقّة في إطفائه.

وهو الآن مُحقٌّ بإطفائه الضوء، يجب الحذر. فوجوده عند النافذة وتحت الضوء يعني إثارة الانتباه له وفضول مَن يلمحه بالصدفة فيشك بوجوده داخل متحف. ظهرت شجرةُ الزيتون التي آوته حين تسلَّق السور قبل يومين. ظهرت مثل أمٍّ رؤوم حين يضيئها البرق ويغسلها المطر.

للمطر في طفولته وقعٌ جميل على نفسه. فرغم هطوله الثقيل على البيوت وامتلاء الأزقة الضيقة في مدينته وشعور الناس بالكآبة حين يمتد لساعات وربما أيام فإنه وصحبه

من الصغار اعتادوا ترك البيوت منسلّين من أعين الأهل ومغلقين المسامع من تحذيراتهم. يروحون خائضين في المياه المتدفقة او المستقرة في الحفر الوسيعة جاعلين منها بركاً محببة للسباحة غير آبهين لبرد يضرب أجسامهم النحيفة بلا هوادة. ولم يكفّوا عن لعبهم الصبياني إلا بعد تهديدات من الأهل وعقوبات ستكون ضربات حزام عريض للأب أو عصا من جريد النخل أو قطعة خشب تستل من كومة الأخشاب المعدة للمواقد لاتقاء زمهرير يسبق أو يعقب المطر. ولم يكفّوا عن هذا اللعب الصبياني وانتظار موجة أمطار تنبئ بها غيوم رمادية داكنة تمر بطيئة متقطعة ثم تتراكم لتطلق بريقها والرعود إلا بعد حادثتين مريرتين أشاعتا موجةَ ألم عميق ولوعة قاهرة في نفوسهم: الأولى عندما سقط جواد بن الحاج عودة في حمى بغيضة ألزمته الفراش وجعلته يهذي لساعات ثم يعود لدقائق إلى وعيه فيسأل أمّه الطعينة عن رفاقٍ لعبَ معهم وخاض في المياه بجذل لم يشعر به مطلقاً جراء حرص الوالدين عليه وخشيتهم من أن يصيبه مكروه فيفقدون سعادة وهبها الله لهم بعد طول انتظار وصبر جهيد (جاء جواد الولد الوحيد عقب بناتٍ سبع شرع الأمل لدى الوالدين ينضب شيئاً فشيئاً.. وكلما أعلن احدهما يأسه جاءته رسائل التطمين من صدور عامرة بالإيمان بأنَّ رحمة

اللّه واسـعة، ومـا الانتظـار إلا قيـاس لمـدى تحمّـل المـؤمن، وبعدها يأتي الفرج بلا حدود)، لذلك كانا يمنعاه من اللعب ويفرضـان عليـه نظامـاً قاسـياً في التحـرك لـيس عقابـاً لـه بـل خشـية عليـه. وكـان خروجـه ذلـك الصـباح الشـتائي الممطـر منسـلاً مـن بـين سـهو الوالـدين وإيمـاءة أحـد الصـبية لـه بالانضمام لجمعهم العابث إيذاناً بسحبه إلى حفرة القبر. أمّا الحادثة الثانية فجاءت تعلن موت عائلة لوفي الحمّال منتصف الليل، هو وزوجته وابنتاه، اثـر انهيـار سـقف البيت المتداعي غب ثلاثة أيام من مطر جنوبي لا يعرف التوقف.. بدأت اللوعة في أعماق سـكان الزقاق وقت شقّت سـاعة الضـحى صـرخةُ أم محمـد عنـدما افتقـدت جارتهـا الـتي اعتـادت طـرق البـاب لاسـتعارة رغيـف خبـز لزوجهـا قبـل خروجـه إلى خـان الموسـى حيـث اعتـاد علـى حمـل أكيـاس الحنطـة والشـعير مـن غـرف الخان إلى جوف سيارات الحمل، وبالعكس.

تلك الحادثتين تدفقتا على ذاكرته فوشّتا هدوءه بمسـحة حـزن وأججتـا في القلـب حنينـاً لفضـاء ذلـك الزقـاق المضـمَّخ بأريج الود والوداعة رغم تهالكه وفقر ساكنيه.

الخشية

كثيراً كانت باب المنزل تُفتح وتُغلق، ووفيراً ظلت الأفواه حيرى في تساؤلها أين يكون؟ ولماذا لم يصل؟ وكيف لم يتصل؟.. الحيرة تتبارى في رأسِ الأم المنهكة، المؤرَّقة.. وكلَّما تتالت أسئلتها المقلقة يطعن الألم جوفها فينتج بكاءً يأتي بنوبات جعلت العَم اكرم يتهالك في درب الارتباك والتطيّر بين ابن أخ يجهل مصيره وامرأة / أم متألمة من خناجر مرض قاهر تمزق كبدها وتبعثره. يبرح البيت صافقاً الباب ليخرج من الزقاق إلى الشارع العريض. يبعث بنظره المتحرّي علَّ سيارة أجرة تتوقف لينزل منها ابن أخيه؛ يساعده السائق في إخراج حقائب السفر من جوف السيارة أو يأتي راجلاً حتى بلا حقائب ولا مقتنيات.

ومرّت الأيام.. يوماً فيوماً. ومع انصراف يوم وقدوم يوم تنامى لدى الجميع مشاعر متضاربة. فقد يكون قد استثنى السفر ولم يدخل البلاد وعليهم انتظار إطلالته صوتاً عبر الهاتف، أو أنه دخل فاعتقل، فغيّبَ؛ وليس من عادة السلطة حين تعتقل مواطناً وضعته في خانة السياسي أو من عائلة تتعاطى السياسة إعلان اعتقاله.

كان صوت الأم الواهن ولهفة الأخوات هما ما عجّل في دخوله البلاد. وهو ما لم يبقه أياماً أكثر في دمشق

ليستفسر أكثر ممن يلتقيهم من العراقيين عن الأحوال، وما إذا كانت السلطة ما زالت تنظر لَمن يعيش زمناً في بلاد الغرب على أنه محط ارتياب وخشية، واضعةً إيّاه في خانة الخائنين والمتآمرين المعادين لها ومن الضروري استئصاله وقطع أنفاسه حتى لو أقسم بكلِّ مقدَّسات الكون أنه ببراءته من كلِّ ما يمُت إلى التآمر والخيانة وليس فيه ما يبعث على الخشية والتطيّر.

وجدَ الأفضل له الاتصال قبل أن يسوء الحال وتقطع الاتصالات فيغدو في حال من العتب والشعور بالذنب.. أطبقت كفّه على سماعة الهاتف ورفعتها بأصابع ترتعش. ضغط على الأزرار لينتظر لحظات من القلق والارتباك وخشية أن لا ترتفع السماعة من الطرف الثاني؛ لكنَّ السماءَ كانت معه عندما تناهى إليه صوت فاطمة ترد بنبرةٍ واهنة حسبها جراء حزن عليه ويأس من سلامته:

- ألو فاطمة؟

- مَن جاسـ.........م؟... لفظت الاسم لفظةً طويلة كأنها تسحب الروح بحبال الجزع.

- نعم جاسم.. كيف حالكم.. أنا بخير.

سمع صوت الأخت يبتعد عن سماعة الهاتف فتخيلها تدير رأسها تُعلم مَن في البيت.. وبالفعل سمعها تفوه:

- انه جاسم.. يقول انه بخير.. اطمئني، يا أمي.

قليلاً وجاء استفسارها مشحوناً بحيرة أو عتب:

- أين كنت كل هذه المدّة.. قلقنا عليك. قلق بلا حدود.

- سأحكي لكم في ما بعد.. المهم أن تطمئنوا.

- يعني أنتَ بخير؟!.. جاءه سؤال الترجّي.

- نعم بكلِّ الخير.

سمع اصطفاق أجنحة السرور لمعرفتهم بسلامته. حدس أن زغاريد ريشية انطلقت تملأ فضاء البيت فأيقن تلك اللحظة أنه حسن فعل عندما أجرى الاتصال وهدّأ مراجل الجزع في أعماقهم. قال:

- سأصل خلال أيام لا تقلقوا.. أنا في أمان؟... ومن بعيد سمع صوت أمه تعلن خوفها من واقع حرب لا تعرف الأمان.. وتطلب من أخته حثّه على التعجيل بالمجيء ضماناً لسلامته وحيازة اطمئنانهم عليه.

- أنا في أمان.. قولي لأمي.. والآن سأقطع الاتصال.

كانت لحظات الاتصال بمثابة صك استقرار شمل الجانبين.. هو في هذا المكان الذي حسبه آمناً ومحل إشباع فضول؛ وهم في مدينتهم يرسون على مرفأ الطمأنينة ويمسحون من ذاكرتهم رماد القلق والخشية عليه.. الخشية؟!.. ولمَ لا.. التطيّر هاجس السلطة.. الخوف من كلِّ

قادم من بلادٍ أخرى. يرون في المواطن القادم من ما وراء الحدود ، ممّن صرف زمناً بعيداً عن الوطن فايروس يربك استقرارهم.. الشاعر الشهير بهجت ياسين؛ شاعر يمسسهُ بقرابةٍ ولو من بعيد ، أخذه يوماً زورق الحنين وشوق تفاقم في قلبه لزيارة البلاد. وصل مدينته يحمل في الذاكرة صور ذلك الصبي المفعم بفضول البحث والاكتشاف.. يومان أو ثلاثة قال للعائلة السعيدة بحضوره أريد استعادة أماكنَ تركتها قبل خمسة عشر عاماً. هل بقي السوق كما هو بدكاكينه وبضائعه وبائعيه؟ هل حدث ما غيّر الأزقة نحو الأفضل ببناء حديث فتخلّت عن الأبواب المنخورة والشُّرف المفككة؟ هل استبدلت جذوع النخل والميط كأعمدة سقوف وحلّت محلها العوارض الحديدية؟ هل ما زالت الشبابيك بالخشب الموحِل الأجرد والأسياخ الحديدية الصدئة أم صارت مكانها شبابيك حديدية دخلت فيها إكسسوارات تجميلية دخلت فيها المثلثات والدوائر والمربعات عاكسة حداثة تقر بلا ثبوتية الحال وتؤكد التغيير سمة ملازمة لذوق البشر؟

احتوته خثرة السوق؛ واستقبله ظلٌّ هواءٍ عذب فأبعده عن شدّة ضوء شمس حزيرانية حارقة.. عندما عاب عليه الأهلُ قدومَه في شهرٍ لاهب مفضلين حضوره في الشتاء ضحك وقال: وسأبقى بينكم لأتلظى بمرجل شهر تموز حتى

أعود إلى وارشو وأخبرها بما فعل اللهيبُ. وضحك من جديد. سيعود لوارشو ليواصل مشوار الحياة مع عمال يشارك وإياهم العمل في مسلخ ذي قاعات. اثنان منها مصممتان لذبح الأبقار فيما الثالثة مخصصة لذبح الخنازير.. لقد واصل عمله منذ ما يزيد عن أربعة عشر عاماً في هذه المؤسسة الحكومية دون شعورٍ بالضجر. بل هي الحميمية تتجلّى بين عاملين يؤدون عملهم بجد ثم يصرفون أوقات العطل والفراغ مع أسرهم، أما العزاب منهم فيعيشون المرح والألفة الجميلة مع صديقات هن الأخريات يعملن وينتظرن أوقاتٍ يدخلن وأصدقاء بستان المرح العذب.

توقّفَ عند متعب البزّاز. وجده صار عجوزاً بلحية بيضاء وسترة أكبر من حجم جسده؛ خمّن توالي العمر أخذت ضريبتها من ذلك الجسد الثخين الذي كان يثير فضول مَن يدخل السوق لأول مرة فيطيل النظر فيه. اعتاد شباب المدينة ممّن يبحثون عن البهرجة والأقمشة الحديثة ذات السمعة العريضة للشركة المصنعة الاستئناس برأيه؛ ينصحهم بالقماش الجيد، ويدلهم على ما يتوافق ومظهرهم، فيفعل المقص فعله في قطعة قماش يأخذون إلى خيّاط الشباب شهيد بشيشي الجالس وراء عارضة محله الزجاجية أمام ماكينة خياطة تأتي من حركة إبرتها مختلف الموديلات

والأصناف. ومن يلبس من تحت يد شهيد يتمايل تبختراً في الشوارع ويجاهر بتباهٍ حين يُسأل، لكأن شهيد بقدر السمعة الكبيرة التي يتمتع بها " فارما " الهندي أشهر خياط في بغداد إبان ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين.. وقف عند الحاج حسين سلطان بائع الأعشاب فألفى نفسه يقف أمام هزال يتقمص إنساناً وشحوب يشي بأنه في آخر أسابيع الحياة.. صار في فم دكان أصباغ حميد القزّاز؛ الرجل الوديع. وكان يبغي إلقاء السلام عليه ليخبره عن حكاية سمعها منه يوم كان مراهقاً يأتي هو وصحبه لسماع ما تجود به ذاكرة رجل عاش عقوداً متنقلاً بين مدن عراقية وعربية وإيرانية وتركية وامتهن عديد المهن، حتى آل به مآل تينك المهن إلى بائع أصباغ في سوق السماوة. حكى لهم مرة عن أنه كان سائق أول سيارة جلبها من حلب في العام ١٩٠٨. سار بها في شوارع بغداد فكانت مثار إعجاب البغداديين. يلاحقها الناس معتقدين أن حصاناً يختفي داخلها هو مَن يجعلها تقطع الطريق. ولقد كان الرجلُ صادقاً إذ قرأ إشارة علي الوردي في كتابه لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث بجزئه الثالث بعد سنين طويلة عن ذلك وإن لم يُشر لاسم السائق. كان يريد أن يخبره عندما افتقد وجوده في دكانه. شاهد على كرسيه شاباً يحمل ملامحَ مقاربة

لملامح الرجل فعرف بعد إلقاء التحية والسؤال أنه ابنه، وأنَّ والده توفي قبل خمسة أعوام.. توقف عند بائعة رمان وعنب حصرم ثلاثينية العمر يسألها عن البستان الذي جلبت منه الرمان والحصرم فالذاكرة أعادت له رماناً وحصرماً ومشمشاً كان هو وصبية معه يغيرون على بستان المكتوب أو بستان مصيوي أو بستان آلضويف. وكم من المرات لاحقهم البستانيون وهم يشتمون ويتوعدون.

زحمة السوق بالمتبضعين واغلبهم ممن جاءت بهم الباصات الخشبية من الريف المحيط بالمدينة مع حرارة الجو أشعرته بالفارق بين مناخ العراق اللاهب ومناخ بولونيا البارد.. وصلته مطارق الحدّادين المنهالة على كتل الحديد الحمراء المسندة على سنادين. مطارق متفاوتة الهبوط والصعود يطلق صداها فم الزقاق المسقفّ بألواح براميل ثبتت على أعمدة خشبية لصناعة ظل يقي الحدّادين حرارة الشمس، مكتفين بما يلهب وجوههن من لفح نار المواقد المتعاملة مع المعادن.. ولج سوق الصفّارين يتابع ما تجود به أيدي المهرة في صناعة الصواني والقدور والمساخن والأباريق النحاسية وشحذ الذاكرة لمشاهدة ناجي الصفار وجبار الصفار ومناتي ومسلم وعامله النبيه حبّاوي. خرج لمواصلة مشوار التطلّع. توقف عند التاجر عقيل بائع ايزارات وبسط وسجاجيد صوفية تتقن صناعتها نساء السماوة

بـأذواقهن المرهفـة وأناملـهن الدقيقـة الحاذقـة. هـمَّ بإخبـاره انـه شـاهد نمـاذج لـلأزر السـماوية في أسـواق الانتيكـات والبسـط التراثيــة في محــلات وارســو المتخصصــة بالتعامــل بهكــذا صناعات وأعمـال عنـدما انتبـه لشخصـين يطالعانـه بارتيـاب ثـم يطلبان منه مصاحبتهما.

ذلك اليوم استحال مُداناً. قال لهم: أنا بهجت ياسين؛ أنا شـاعر. عـدت إلى مـدينتي بعـد شـوق لهـا ولـوطني الكـبير.. سخرية عريضة سكبتها عيونُ المستجوبين في سجن الخنّاق. توقيـفٌ وتحقيـق معـه اسـتمرّا ثلاثـة أسـابيع. مـداناً كـانَ؛ وكـان جاسوسـاً. توقّفـه عنـد تـاجر الإيـزارات والبسـط والتحدث معه تسبب في جلب الرجل للإدلاء بما جرى بينهما مـن حـديث اعتبرهـا المسـتجوبون شـفرات هـي مـن عـداد التجسس على الـوطن. وحتى بائعة الرمان المسكينة، هـي الأخرى، جيء بها للتحقيق والتعرف على ما دار بينهما.

علـى أيـة حـال خـرج بهجـت بعـد جهـدِ الأهـل والأقـارب والمعارف.

خرج.. وعلى الحدود جمع ما في فمه من بصاق وأطلقه على تاريخ أسود سيلطخ وجه سجانيه، متململاً ودامعاً على وطن ظلَّ مستباحاً طوال عمره.

البيت

كان الاتصال السريع الذي حدث بدّلَ مفردات التعامل بين أفراد العائلة وجعل فضاء كانت تعمّه غيوم الرماد والكمد يستحيل دنيا مفعمة بأريج سرور يتعالى متراغياً فيزرع في النفوس شموس البهجة.. أمرت الأم أن تخرج فاطمة لتشتري من سوق المدينة أثواباً بناتية تتصدَّق بها على صبيات العائلات الفقيرة في الحي. وطلبت من خديجة، الابنة الصغرى، حمل ما تقدر من خبز تلفّه على قطع دجاج مشوي فتوزعه على الفقراء المرابطين عند مدخل الجامع الكبير. أمّا ألم الكبد الملازم لها طوال الوقت وتتقيه بالمهدئات فقد شعرت به يتضاءل، مُعزية سبب الآلام للوعتها على جاسم الذي قال خلال أيام قليلة سيكون عندها يُقبّل يديها وتقبّل جبهته. نسيت خوف الحرب وهدير الطائرات ورعب تلك الليلة التي صرفتها المدينة على قصف متواصل استمر ليلة كاملة لمدفعية وهاونات وغارات متوالية لأسراب طائرات تدوي ثم يعقب الدوي تفجيرات هائلة.. الجميع حسب المدينة قد دكت دكّاً، ولم يبق منها غير خرائب لابد أنها استحالت قبوراً للذين قتلوا وهم في بيوتهم، حتى إذا أطل الصباح ومدّ كل رب أسرة شجاع رأسه من باب بيته أبصر كل شيء على حاله. فلا جدار سقط ولا بناية تهاوت، وصار

كل مِن دفع برأسه بغية الاستطلاع يشاهد جاره يفعل الفعل نفسه.ولم تمر غير دقائق حتى اكتشف سكان المدينة خداع الأمريكان باستخدام قنابل صوتية أرعبت المدافعين عن المدينة من جيش على قلته ورفاق حزب سلطة هالهم القصف المفترض وأرعبهم ففروا هاربين، ولم يشاهد سكان الأحياء سوى الأمريكان يرابطون بدباباتهم ودروعهم وسط المدينة ممسكين نهايات الشوارع، ويلوحون للعيون المحتشدة دهشةً بأكفهم. يلاطفون أطفالاً اثار فضولهم هياكل الدبابات بمدافعها العملاقة وجنود ذوي بشرة حمراء أو سوداء فاندفعوا يتلقون منهم حلوى مجففة وقناني مياه معدنية. تضاءلت شكوى الأم أمام من صار يزورها ، وصارت تُعلن وهي تقص اتصال فاهم بهم واطمئنانها عليه أنَّ رحيلها عن الدنيا سيكون بأقل الأسف، وقد ظنت قبل اتصاله أنه انتهى إلى غياهب المجهول وغدت سلامته من عداد المعجزة.

جاهدت في رفع رأسها عن الوسادة وبعث نظراتها باتجاه الصورة المزججة بإطار خشبي ذهبي محفور بنقش شاع عند مصور المدينة. إطار استورده في سبعينات القرن الماضي من تركيا فتهافت عليه الشباب يطلبون تكبير صورهم وتزجيجها حبّا بتميّزه، ما لبث الكبار من جيل الآباء أن فضلوا تأطير صورهم وهم ينتصبون بكروشهم الكبيرة

وخدودهم المترهلة.

- بدأتُ أُوقن أنكَ حسناً فعلت ببقائك بعيداً عن البلاد. وجَّهت كلامها لولدها سالم الذي كان يقف مع جاسم في الصورة.. قليلاً وتمتمت كأنها في عتاب مع الله: ماذا فعلت هذه البلاد حتى يلاقي أهلها كل هذا العذاب؟!

الصورة بالأسود والأبيض تظهر سالم وفاهم نهار عيد الأضحى من العام ١٩٧٢. تتذكّر كيف عاد سالم وكان بعمر الرابعة عشر، وجاسم بعشرة أعوام فرحين يعرضون عليها الصورة وقد ألبسهما المصور ربطتي عنق أضفت عليهما نوعاً من الجمال والاتزان. بيد أن تلك الذكرى صاحبتها مرارة لا تريد تذكرها، بلحظاتها القاسية.. فبعد يومين على تلك السعادة المتولدة من هناء صبيين وفي ساعة انتصاف ليل شتائي بارد بوغتت بسيارة لاندكروز بيضاء واقتحام البيت بثلاثة رجال وضع احدهم المسدس في رأس سالم السادر في نوم عميق تحت لحاف قطني سميك وصوت الحقد يأمر: انهض يا شلال جابر؟ بينما حذرها الاثنان من إطلاق أية صرخة أو توجيه سؤال.. ما زالت ملامح ولدها سالم تهتف برعب، وهو يردد كمن هو في كابوس: لا !.. لا.. يومها ولحسن الحظ أن رب الأسرة شلال لم يكن موجوداً فقد جاءه مَن يسر إليه صدور أمر اعتقاله وتغييبه

وضرورة هربه وتواريه.. تلك اللحظة هرع سالم بفتوته البريئة فاحتضنته تهدئ من روعه.. تلك اللحظة تحديداً حفرت وجودها في رأس ولدها حفراً لا ينسى. فما أن بلغ الشباب ونال الشهادة الثانوية حتى ترك البلاد لغرض الدراسة؛ وفي رأسه تصميم على النضال من أجل جعل بلاده تعيش الحرية، فالتحقَ بمنظمات إنسانية ترفع شعار مناهضة الدكتاتورية وتتابع مصير المغيبين من أبناء الوطن في السجون، داعية لأن يأخذ الإنسان حقه من الحياة.

سالم

هاجر سالم إلى ألمانيا، تاركاً بلاداً تُدار بقبضة حديدية وحروب أحرقت كل الآمال.. تركها بما قرأ من كتب فلسفة وما جاب عوالم فكر إنساني احتوته دواليب وصناديق كارتونية قضى الأب يقتنيها، ويقرأها، ويتأثر بها.. سنوات الشباب فتحت أمامه آفاق معرفة عمَّقت لديه مهمّة التوصل لماهيّة البشرية، فخرج بحصيلة أنَّ الإنسان طالما وِلد ليحيا حياة واحدة فعليه تجسيدها كلَّ وقت بقيمته ومقداره. شحذ الهمم وأطلق للعقل العنان. واصل القراءة والتعلم.. صار موسيقياً، وقبلها كان رياضياً، استخدم قلم الرصاص يخطط أشكالاً وأعضاء بشرية، ثم

دخل عالم استخدام الزيت والفرشاة فرسم. سمّوه فناناً تشكيلياً بعدما كانوا يقولون عنه أن موهبته في الموسيقى، وتخلّوا عن توصيفه بالرياضي. كان يرى نفسه مفعماً بطاقة لا تُحد، وكان عند الآخرين نموذجَ الشاب المتمتِّع بكاريزما تحبِّب إليه الآخرين وتدفعهم للتحدث عنه مشيدةً بمواهبه المتعددة. ولأنه مخلوق بمواصفات كهذه في بلد تُطبق فوق ربوعه كفُّ التجني فكّروا في تحطيمه.. بعثوا إليه مَن تتصل به هاتفياً لتدَّعي اهتمامها بما فيه من مواهب وترجوه أن يكون عوناً لها في موهبةٍ لديها وتسعى لتنميتها وتطويرها. أخذ الموضوع مأخذ الجد وبحسن نية، فراح يستقبل نداءها من وقتٍ لآخر، ومن بين مجرى الحديث كانت كلمات عشق ومحاولة غواية يسربها لسانها عبر الهاتف. مرة وكما لو قدحت شرارة في رأسه تساءل: لحد الآن لا أعرف مَن تكون، فقط أعطته اسمها؟ في النداء التالي سألها، وكان ردها: كنت أظنك عرفتني.. أعطته اسمها الثلاثي. كادت عيناه تنطفئان ورأسه بغتة غزاه صداع قاهر.. ملأ سماعة الهاتف بأنفاسه: فجاء سؤالها: هل أنت معي؟.. كانت تلك البنت النزقة القبيحة التي تعالت شكاوى الناس في الشارع الذي يقع فيه بيتهم من رجال أمن السلطة المراهقين. رجال كان همُّهم أن تصاحبهم او

يحصلون منها على موعد للقاء... طلبت موعداً للمكالمة فأعطاه بعيدا : ثلاثة أسابيع قال لأني سأكون مزدحماً بالمشاغل. عادت ذكرى ذلك الشاب المتزوج حديثاً الذي وجد منتحراً يتدلى جسده في غرفته وأطلقت إشاعة ضيق العيش كسبب لفعل الانتحار تغطيةً عن جريمة حقيقية ارتكبت بحقّه فيما أسر هو لصديق يثق به قبل إقدامه على فعلته أنَّ تلك القبيحة كانت تهاتفه وتتغزل به وتدعوه لمراودتها وتحاول إيقاعه في حبائل السلطة ليكون عيناً من عيونها.. عادت إليه ذكرى وهاب شاكر، صديقه الذي ترك البلاد قبل أعوام عندما تحدَّث عن ضجره من سلطة تعلمت كل الوسائل البغيضة من مخابرات وأمن بلدان شمولية الحكم.. إنهم تلامذة أمن أنظمة ترفع شعار الإنسانية وحتمية سيادة البروليتارية في حين تسعى وبكل الوسائل القذرة لتحطيم مَن لا يرغبون به.. محاولة التسقيط باستخدام المرأة، هذا المخلوق الذي كان وهّاب يتعاطف معه فيلعن سلطة تجيّره بخسّة ودناءة.. حتماً فعلوا مع وهاب ما أرادوا فعله معي.. وقطعاً دفعوا الشاب المتزوج حديثاً للانتحار بعدما رأى من العار أن يكون مخبراً لنظام يثير القيء لمجرد التفكير بمد اليد للمصافحة؟.. بخروجه ومساهماته الإنسانية في المحافل والمؤتمرات كانت تلك الأحداث أمثلة يدعم بها رؤاه

وتوجهاتـه.. لم توقفـه تهديـدات كانـت تأتيـه عـبر الهاتف، ورسائل وعيد مكتوبة، وملاحقات يومية رأى فيها وسائل غبية لأنظمة سقطت أقنعة كانت تجمّل بها وجهاً قميئاً وشعارات تلمَّسها المواطن زائفة كزيف مساحيق التجميل المؤقتة، وكاذبة ككذبة من يبرىء قاتل بادعاء الإيمان والتقوى.

ما زال يتذكَّر طرقات البيت ليلاً وارتعاش أمّه من الخوف لممارسات لم تعتد عليها، يأتيها السؤال ببغض وكراهية عن شلال، زوجها: أين يكون، ومن هم أقاربه، وأين احتمال تواجده. وهي من خلف الباب تجيب مرتعبة بجهلها وعدم درايتها.. كانت فعلاً لا تدري أين يكون، فقد غاب منذ ذلك اليوم ولم تعرف عنه خبراً؛ وظلت معتمدة على أخيها بائع السمك في تمشية حال العائلة فكانت بين مطرقة غضب السلطة وتهديداتها وسندان الاعتماد على أخ كثيراً ما أدان الزوج على فعلته: لابد ان هذا الرجل مجنون.. هؤلاء تربّوا في وجر الضباع فكيف له هو الرجل الموظف المتعلم مناهضتهم وترك زوجة وصغار في مصير مجهول؟.. أشهر ظلت الزوجة والأولاد يجهلون وجوده حتى ظنوا أن السلطة ألقت القبض عليه، وبوسائل دهاء وخبث تدَّعي ملاحقته وتأتي بين حين وحين للسؤال عنه. وفي يوم توقفت عند

دكّان أخيها امرأة أربعينية العمر تسأله عن سعر السمك المعروض. ومن بين التعامل والأسعار فاهت بسر وجود نسيبه شلال، وترجته نقل خبر سلامته إلى شقيقته وإعلامها بالتحاقه بمناهضي السلطة في شمال البلاد.

وما زال يتذكر حضور خاله للبيت، يوماً، بوجه يحمل قسمات الحزن. دعا أخته أن تطلب منه ومن أخيه فاهم أن يخرجا للشارع أو يصعدا للسطح. ولمّا لم ينفذا كلامها وشعرا بغموض الطلب طلب من أخته أن يدخلا غرفتها. وهناك؛ من خلف الباب الموصد سمع خاله يعلن مقتل زوجها / أبيه. سمع خاله يقول: جاءتني المرأة نفسها فأعلمتني بالخبر وسلمتني شهادة مقتله هذه. احتفظي بها فلعل يوماً يأتي لينصَف.. سمع خاله يطلق آهةً وسمع أمّه تنتحب فيحاول إسكاتها لئلا يسمع الأولاد.. ومن بين شهقات بكاء أمه سمع خاله: لقد ضحى بنفسه، وترككم للقدر من أجل حلم بمثابة كابوس في هذا العالم المتوحش.. رحمه الله.

الهروب

القصف الذي طال مقر الشعبة الخامسة ونقاط المدفعية المرابطة بالقرب منها أحدث إرباكاً.. كان كبار ضباط الشعبة قد انتقلوا إلى مكان سرّي وبقي ثلاثة ضباط

وكـادر مـن ضـباط الصـف؛ بيـنهم العريـف برهـان جـابر. العريف برهان وجد في الإرباك الحاصل جراء القصف فرصة أن يفعل خيراً علّه يشفع له أمام خالقه فيمسح عذابات سببها لأناس يدرك أنَّ غالبيتهم أبريـاء لا جنايـة ارتكبـوا ولا موبقـة فعلوا؛ فقط كانوا أقرباء لمتَّهمين أُعدموا ظلماً أو هـاربين لا يد طولى للسلطة على اعتقالهم وقتلهم. العريف برهـان فكَّـر في القصـف الـذي جـرى قبـل يـومين في فـتح أبـواب الزنـازين وترك السجناء يفـرون مـن قفـص القهـر لفضـاء الحريـة بينمـا يتـوارى هـو عـن الأنظـار، فالسـلطة كمـا يتلمَّسـها خـارت ووهنت، والتواصل مع القيادات العليا يكـاد يكـون معدومـاً لكنـه آثـر الانتظـار لحـين تغدوا قبضـة السـلطة أكثـر وهنـاً واشد رخاوة. وإذ جاء القصف هذه المرة عنيفاً بشـكلٍ أيقـن الجميـع أنَّ قذيفـة واحـدة مـن طـائرة مغـيرة سـتهد السـجن بكامل أجنحته ويستحيل الجميع شـظايا ومزقـاً قـرر تنفيـذ ما خطط له.

انسـلَّ مـن بـين أربعـة مراتـب تحـت إمرتـه وراح يخطـو في الممـر وصـولاً إلى بهـو المطعـم حيـث ألفـاه فارغـاً بينمـا حـدس وجـود الضـابطَ المـلازم الأول والضـابطين الـذين برتبـة مـلازم ثـاني سيجدهم في المكـان. عـاملا المطعـم اعلمـاه بخـروجهم للموضـع للاحتمـاء.. خـرج مسـرعاً وبشـجاعة أظهرهـا جليـة

إمامهم قال: لابد ان الهجوم سيشتد وانه يخاف عليهم.. اقترح تسللهم خارج الشعبة فيما يبقى هو مع المراتب حراساً وسجانين.

طالع الثلاثة وجوهَ بعضِهم كما لو كانوا يناقشون الفكرة. الهرب لابد منه والقتل آت في حال بقائهم بأماكنهم.... يسترجعون أخبار هروب أمراء الوحدات المدرعة والمشاة في المحافظات الجنوبية والوسطى، هروب آمري بطاريات المدفعية والصواريخ المنتشرين في مناطق شتى من البلاد وعودتهم لبيوتهم سالمين مثلما يذكرون أسماء قادة خافوا من بطش القيادة العليا فبقوا مع جنودهم فصُهِروا وآلياتهم بالقنابل الفسفورية والمنضَّبة.. اقترح أحد الضابطين على زميليه أن ينسحبا ويبرحا الشعبة ويبقى هو مع العريف برهان ومراتبه. لا خوف فالسجناء في الزنازين.

من بين لحظات القذائف وانهيالها وهدير الطائرات واكروباتها في سماء فارغة ومفتوحة تسلل الاثنان بينما العريف برهان يضع لمسات أصابعه على تنفيذ الخطة.

تناول قرص المفاتيح تاركاً الملازم في الموضع يخشى الخروج متطيّراً من صاروخ يطلقه طيار قد يكون أطبق دائرته على صليب الهدف في الشاشة الالكترونية وبلحظة يضغط زرَّ الإطلاق ليستحيل هو هدفاً سهلاً.

خطـا العريـف برهـان صـوب غـرف التأمينـات. فـتح كابينات حديدية يضم بعضها أسماء كتبت بلون أحمر على قطعة كارتون ابيض وبعض خلت من الأسماء.

خرج..

دخـل الممـر المعتم الـذي تتـوزع فيـه أبـواب غـرف السـجن وراح يفـتح إقفالهـا ويـدعو سـجناءها للخـروج.. طلـب منهم ان يتبعوه وهو يردد بهمس كأنه يذكرهم بوعد قطعه وها هـو يفي به: ألم اقل لكم ان الفرج قادم.. صدَّقوه هذه المرّة ولم يضعوا في بالهم انه فخٌّ من فخاخ سلطة دموية اعتادت على تطبيق عكس ما تُعلم السجناء به، والشواهد كثيرة والحكايات لا نهاية لها.. أدخلهم إلى غرفة التأمينات وكانوا ثلاثة عشر.. قرأوا أسماءهم على الأبواب الحديدية.. قال هيا ، افتحوا.. فتحوها. استخرجوا ملابس كانت لهم يوم اعتقلوا فجُرِّدوا منها..

"ارتدوا سريعاً واتبعوني."

الهدير يدوّي ويدوّم، ومعه تدوّي صفارات الإنذار.. ومع الاثنين تعلو نافورات دخان لنفط اسود يشتعل فيرتفع.. تلك إحدى أفكار نبوغ تفتقت في فكر النظام لإرباك شاشات الطائرات المغيرة.. كان الوقت عصراً والتسلل كان ناجحاً ، وتواري العريف برهان حصل بما لا يثير الشك، والضابط

ينتظر انتهاء الغارة، والمراتب ينتظرون عودة عريفهم ليسألوه عما يفعلوا، وعاملا مطعم بهو الضباط خرجوا وطلبوا من الملازم مغادرة الموضع والعودة ليعملوا له شاياً يطرد قلقاً وينهي تشوّشاً، والملازم يأخذ بكلامهم ويطلب من احدهم بعدما وضع أمامه قدح الشاي دعوة برهان ليأتيه.

عامل المطعم يحيِّ المراتب ويحمد الله على سلامتهم. يخبرهم انه شاهد صاروخ طائرة سوبر هنتر بيضاء يضرب بطارية المدفعية على يمين الشعبة ويشاهد أجزاء المدفع تتطاير في الفضاء: مساكين جنود البطارية لابد أنهم قضوا جميعاً.. يسألهم عن برهان ويعلمهم ان الملازم يطلبه.. يجيبون أن العريف برهان مع الضباط الثلاثة.. هو تركهم وقال أخشى على آمرينا من الموت، فذهب يتفقدهم.

خرج العامل.. اعتقدَ أن عريفهم يتفقد السجناء.. تحرك احدهم ليخبره بطلب الملازم له... كان الصمت يشيع في الممر.. أبواب غرف السجن مشرعة.

لا سجناء.. ولا برهان.

ستراتفورد

سافرا إلى ستراتفورد بناء على اقتراح عرضه على جوليا ليكونا بحضرة وليم شكسبير. يلجّان بيتاً سكنه، ويتحاوران مع أنفاس تطوف في فضاء الغرف. يعلنان دهشتَهما لذلك الفيض المسرحي الذي رغم انهيال الأعوام æتعاقب القرون ما يزال يسحر القراء، ويفتن المشاهدين.

ركبا القطار السريع وبغضون ساعة وربع كانت أقدامهما تضرب بلاطات الرصيف. الخطى قادتهم لموقف باص استقلاه اثر سؤال وجهته جوليا لأحد رجال البوليس فأشار إليه ونصحهم بالباص الذي يحمل الرقم ٣: سيضعكم عند شارع شارلي. انعطفوا يميناً ستجدون أنفسكم عند شارع هنلي المخصص للمشاة. أرضه بلاط من الحجر ورخام ابيض. واصلوا سيركم فيه. سترون على اليمين مقاه وعلى اليسار صف بيوت. احد تلك البيوت بيت شكسبير. ستجدونه ينتظركم.. الجملة الأخيرة قالها بأداء تمثيلي فيه روح دعابة، ثم كأنه استلطف السؤال: وقد يكون مشغولا عنكم بضيوف سبقوكم، فهم مثلكم بلهفة للقائه.

لم يكن رجل البوليس مبالغاً في كلامه وما رسمه لهما جاء مطابقاً؛ فقد أبصروا مَن جاء مبكراً ليلتقط من زوايا

متعددة صوراً للذكرى كان فيها المظهر الخارجي لبيت شكسبير مطابقاً لما شاهداه في طريقهما من بيوت بطابقين، وثمة طابق ثالث يشكل هيئة كوخ. استدلا على البيت من حشد الزائرين. بيت تركُ ليعبر عن روح عصره ومعماره.

وهما يضعان خطوهما على دكّة باب الدخول للبيت همست في أذنه مع ضحكة مكتومة:

- أتدري أنَّ هناك من يشكك بأن شكسبير ليس هو مؤلف كل هذا الإبداع الإنساني من المسرحيات والشعر. غيرهُ مَن كتبها ودفعه لإعلان أنها من فيض خلقه، بدليل أن لا مكتبةً سنشاهد في البيت ولا كتاباً سنرى. وما هذا الذي تعظّمه بلادنا وتحتفي به الأمم سوى كومبارس بسيط."

وهما يقفان في صالة تشع بنور شمس تموز مقتحمة النوافذ العديدة أدار وجهه إليها وابتسم.. وكما لو كان يريد دعم رأيها أو إعطاءها معلومة لا تعرفها قال:

- أتدرين أنَّ شكسبير ما كان انكليزياً، إنما عربياً بدوياً اسمه شيخ زبير؟

لمحَ عدم فهمِها للكلمتين الأخيرتين، فهمَّ بجعلها تفهمهما، وتقر بصحة رأيه:

- قولي: شيخ زبير.

استُنفرت قسمات الوجه، انثنت الغمازتان، تراجعت الشفتان، بعدها جاء الصوت:

- شيك سبير.

- انطقي الكلمتين كما لو كانتا كلمة واحدة.. همس في أذنها محاولا عدم إثارة فضول إحدى الموظفات المنتصبات عند الباب المؤدي لغرفة نوم الرجل لأداء مهمة التوضيح والإجابة على أسئلة الزوار.

قالت في محاولة أداء ناجح:

- شكسبير!..... وتوقفت تراجع في رأسها الكلمتين الملتصقتين، ثم هتفت:

- OH , MY GOD !.. YOU ARE RIGHT

- هذا ليس رأيي.. إنما رأي أستاذ جامعي في الأدب المقارن، اسمه صفاء خلّوصي كان يعيش هنا في انكلترا. أعلن ذلك في بحث ألقاه أمام أساتذة أكاديميين وطلبة دراسات عليا متسلّحاً بأدلة سخر منها الكثيرون، عدّوها استنتاجات مضحكة، وهراء.

فعلاً؛ لم تكن ثمّة مكتبة ولا رفوف تزدحم بالكتب. لكنّ غرفةَ نومِه عرضت رهافة ذوقه، وجعلتهما يتهامسان بانبهار عن جمالية نقوش جدران الغرفة. عن تآلف الورود الثلجية اللون مع الأزرق الداكن، ونقوش الإفريز المحاذي

للسقف وهو يدور على الجدران الأربع ليتناغم من الهودج ذي اللونين الأخضر والأحمر المعمول من قماش قطني يخلق عالماً مُغلقاً لحظة الاسترخاء ورمي الرأس المتعب على الوسادة.

- تراودني رغبة أن أرمي بجسدي على السرير وأتقمص شخص شكسبير لولا الحبل الذي وضعوه حاجزاً... همس في أذنها.

- بودّي عمل عصيدة من دقيق الذرة، واسكب من تلك الجرّة الفخارية السمن الحيواني، ومن الجرّة المجاورة عسلاً وأجعلكَ تصورني لو لم يمنعوا عنّا استخدام الكاميرا.

مرّا على الغرف، وتركا المطبخ. صارا بمواجهة الحديقة الخلفية. كانت الحديقة رغم احتفاظها بالحجارة المتراصفة وسياج الخشب البني اللون إلا أن يد الإنسان المعاصر كانت حاضرة لترتّب وتنظم وتشذِّب؛ فكانت حشود الورود ونهوض الشجيرات اكسسوارات للجمال. بينها كان تمثال طاغور بلحية سارحة على الصدر ينتصب على قاعدة بيضاء بارتفاع متر يجاور المشى الأسمنتي للحديقة. لكأنَّ من وضعه في هذا المكان يدعو المترجّل الى قراءة ما كتب على القاعدة من كلمات.. والكلمات تشير إلى عشق طاغور بشكسبير، وجعله من قبل شعب الهند محط اعتزاز وفخر قريناً لشكسبير الذي يفخر به الانكليز.

حسبا حضورهما سوياً رحلة استجمام بقدر ما اعتبراها نهل معرفة.. دخلا مبنى قديم انتصبت فوق مدخله لافتة كتب عليها (THE SHAKESPEARE GIFTSHOP). إشهار خشبي بنّي يتدلى من حلقتين مشدودتين الى قضيب حديدي استند على المبنى ذي الطابوق الأحمر. وللذكرى كان كتاب مسرحية هاملت حصَّة الشراء. وابتسامة رسمتها البائعة الشابة التي ارتدت زيَّ القرن السادس عشر لتثير في الداخل إحساس انه يعيش تلك الأجواء.

شاي وخبر

سمع موظفين ثلاثة عرفهم من سيقانهم الستة (الأول بنطلون بلون رمادي وحذاء اسود لمّاع، الثاني بنطلون سرج اخضر وحذاء اسود عتيق مرت خيوط الإصلاح على جانب فردة اليمين بمكان الإصبع الخامس.. والثالث بنطلون جينز ازرق وحذاء شامو).. كان ذو البنطلون الأخضر هو مَن سكب الشاي له ولزميليه. زميلاه جلسا على حافة السرير. دقَّ قلبه فجأة بعنف حين سمع تفوه احدهم عن جنون السلطة وانتشار الدوريات الراجلة، والتفتيش بحالة من الهستيرية والارتباك في ساحة عنتر حتى باب المعظم في وقت كان هدير الطائرات الحربية مصمّاً للمسامع وأخبار اقتراب

قطعات المحتلين من مدينة الحلّة تتوالى. وحين أبدى أحدهم استفهاماً عن السبب، أجاب انه قدم من راغبة خاتون فعلقَ في استدارة ساحة عنتر ما يزيد على النصف ساعة بسبب تفتيش دقيق يقوم به مدنيون لابد أنهم من مخابرات السلطة. أيَّد الثالث كلامه، فقال:

- سمعتُ مَن يشير لهروب عشرة سجناء خطرين على أمن السلطة من الشعبة الخامسة (خفض صوته وهمس: من يقول أنهم خطرون.. قد يكونوا مفكرين وأصحاب رأي معارض؟).. السلطة تبحث عنهم، وتتهم أحد السجانين بتهريبهم. لا أحد يعرف أين أصبحوا، ولم يفلحوا بإلقاء القبض على أيٍّ منهم.

الذي تساءل قال:

- لقد رأيت الاستنفار عند نقاط انتشار رجال الجيش الشعبي لكني حسبت ذلك من باب الإنذار وأخبار قدوم الأمريكان في أيّة لحظة.

همس احدهم بعدما تحركت قدماه وصارتا خارج الغرفة ثم عادتا. يبدو انه نظر إلى الرواق ليتأكد من عدم وجود أحد يسمعه، كان خائفاً حتى وهو بين زملائه وأقرانه الموثوقين:

- مجانين.. ما زالوا يعتقدون إنهم يمسكون بدفّة

السفينة.. السفينة غارقة؛ هذا شيءٌ مؤكَّد.. صدقوني خلال يومين أو ثلاثة وسيدخل الأمريكان بغداد.. ألا ترونهم كيف تحايلوا فانطلت الحيلة على قادتنا.. تركوا الأنظار منصبّة على أم قصر وجعلوا القتال سجالاً هناك ثم تسللوا عبر الصحراء والتفوا على بغداد.. الرئيس ومنظومته هاربة.. لا احد يعرف أين هُم. المدن تتساقط والجيش يحارب بلا قيادة. لا خطوط اتصال، ولا خطط مواجهة.

- طمعَ بالاستحواذ على ما ليس له (سمع صوت لم يحدده).. سترون الآتيات من الأيام أشد مذلة عليه.. سينطبق عليه مَثل جداتنا: اليريد كُل شي ما يحصَّل شي.

- الأمر صعب، يا أخوان... سمع صوت يحشرج، كأن قائلهُ سيموت اللحظة.

تداخلوا في الحديث، وتباروا في قول ما سمعوا. أصواتهم استحالت قصيدة رثاء حزينة عن وطن لم يعرف عبر سجلات حياته غير الحروب المتوالية، والاحتلالات الدامية، وأنهار الآلام تجري بسيمفونية دافقة على ثرى جبهته وخديه ، تنزل هابطة على عنقه المحتقن اختناقاً من شدة حبس القيد على معصميه. تشق له صدره وتغرز خنجر حقدها في قلبه، تبغي خنق أنفاسه وقتله.

كانوا حائرين. كانوا صاغرين لقدرٍ وجدوا أنفسهم

محكومين لسطوة متجبِّر يلي متجبر؛ قاتل فقاتل يحمل عقده النفسية واضطراباته السلوكية ليفرض حكماً لا يخطو الا بالدم المسفوك ولا يترنَّم بغير آهات المعذبين.. يساورهم شعور أنهم لا يختلفون عن أجدادهم. فمثل ما كان أولئك الأجداد تحت سطوة جبروت الآلهة وعبيد لمن ملكهم فان أحفادهم بعد كل تهافتات القرون يعيشون الذل والهوان وإن تغيرت الوسائل، يخطون على أديم العبودية وسلب الحقوق وإن تبارت مفردات وقوانين مثل "حقوق الإنسان"، و"العدالة الاجتماعية"، و"كلكم كأسنان المشط".

طواف

حين دفع برأسه من الباب وجد الغرفة التي تحتويه تقع في نهاية رواق طويل ينحرف يميناً على ممر واسع في حين يستمر الرواق حتى ينتهي بسلَّم يرتفع ثم ينحرف شمالاً صعوداً الى السطح.. ترك الغرفة وتوقف.. صار في مقدمة الرواق. رواق ببلاط مرمري أملس ولامع؛ وجدران بطلاء تبني فاتح يوحي بموقع أثري ينقل المخيلة إلى أزمنة غابرة تكون فيها الآثار مَعلم حياة وفاتحة دخول على أناس يتحسَّسون أنفاسهم تطوف في الفضاء بين الجدران. جال ببصره في المكان المنار بمصابيح نيون تلتصق بالسقف العالي. بانت ثلاثة أبواب مقفلة على يمينه وقد عُلِّقت فوق كل باب قطعة خشب

صـــاجية مســـتطيلة كتـــب علـــى الأولى وبطـــلاء ابـــيض (المحاسـب)، والثانيـة (الذاتيـة) والثالثـة (الأوراق). فـأدرك أن الرواق مخصص للشؤون الإدارية.

في نهاية الرواق، على شمال السلَّم بابان متجاوران علت كل منهما قطعة معدنية سوداء خُط عليها حرفا (W.C). الأولى رُسم عليها مخطط رجل، والثاني امرأة.. كان محتقناً منذ الأمس لكنَّ الخشية من الاكتشاف جعله يتماسك. أمّا الآن فقرر تحمل التبعات. قرر الدخول وتفريغ ما في أمعائه وإلا فعلها في ملابسه وجعل اكتشافه يسيراً تنم به رائحة الغـائط النافـذة. سـيخرجونه مـن تحـت السـرير كمـا يستخرجون قطاً متلوثاً بروائح قمامة عفنة أو كفأرٍ ميتٍ يبعث على الغثيان.

عندما جلس على المقعد الغربي في واحدة من ثلاث تقاطعات - مقعدان غربيان ومقعد شرقي - وأتمَّ إفراغ ما جمعته أمعاؤه شعر بنشوة تشبه نشوة الحرية التي منحها له العريف برهان جابر. رفع خرطوم الماء من مسمار تعليقه ووجَّهه إلى ما بين فخذيه. استعذب الماء المتدفق من فوهة الخرطوم.. الماء الدافق أثار لديه رغبة استخدام الصابون ليغسل قضيبه وخصيتيه ومخرجه فتحرك لتناول قطعة صابون أبصرها على المغسلة كي يتخلص نهائياً من رائحة

تتعلق بزمن سجنه.. شعور بالغبطة والتطهّر ساوره فهمَّ بغسل جسده بأكمله.. كان على وشك خلع ملابسه ليعمّد الكيان الذي يُسمى إنساناً ويعتقه من ربقة حياة رُميت إلى حلبة المجهول وقيل لها تلطخي بالذنوب عندما تناهت إليه أصوات تتحاور قادمة من عمق الرواق؛ ما افسد عليه الرغبة وجعله ينهض مسرعاً؛ يحكم شد حزام بنطلونه ويعود إلى الغرفة المخبأ. ارتمى على الأرض، وزحف تحت السرير.

دخوله للمرافق الصحية أعاد له كابوس زنزانته ذات المترين طولاً ومتر ونصف عرضاً حيث جعلت واحدة من زواياه مكانا للتغوط. وبعيداً عن الممارسة الإنسانية جعل التغوط في علبة معدنية تشيع برائحتها الليل بأكمله. ولا يتم تفريغها من قِبله إلا في العاشرة صباحاً من نهار اليوم التالي حيث يساق مع جموع السجناء بشكل طابور وهم يحملون العلب ويدلقون محتوياتها في فوهة خزان مراحيض مراتب السجن. استمر ذلك طيلة فترة الاعتقال. زمن لا يمكن أن يُعرف إلاّ على انه ممارسة محق الإنسانية وتجسيد المهانة بسادية اخترعها البشري في أعلى درجات حنقه وأوطأ دركات دناءته. فغرفة بالأبعاد الحسيرة والفضاء المغلق وجيفة الغائط وعطن البول والأيام القادمة المُبهمة المشحونة بالمجاهيل، والتحقيق المتواصل على لا قضية، والغذاء الرديء والتعامل السيئ والإبقاء عليه بلا

مبرر ولا اتهام يستحق الاعتقال ترمي بوطأتها على كاهل صبره. وهو الصابر النادم، والمتألم الجزِع.. تتبارى إزاءه مشاهدٌ تمزقه وتطيح بجَلَده: الأمُّ ومعاناتها، جوليا ونصيحتها، سالم وإصراره على تأجيل السفر لوقت آخر وانتظار ما تسفر عنه قادمات الأسابيع والأيام وتحذيره المُر من ركوب موجة الخطر فالنظام متوتر وقلق ومرعوب ومستعد لارتكاب المجازر انطلاقاً من حكمة المهزومين "عليَّ وعلى أعدائي"، الأخوات ولوعتهن على عدم حضوره، هو الذي أكد لهنَّ عبر الهاتف من العاصمة السورية وصوله بغضون يوم ونصف، العقد الذي وقعه للشروع بعام تدريسي في قسم اللغات الشرقية في جامعة ليدز بعدما حاز وبامتياز شهادة الماجستير في موضوعة (الخيال وتأثيره في جعل ألف ليلة وليلة مقروءة عبر الزمن) ونجاح مسعى جوليا في إبرام الجامعة عقداً معه، الاعتقال وما رافقه من تعذيب وامتهان وعَسف وممارسات لن تُمحى من ذاكرته بيسر. وفكّر: إذا كانت أمُّه وأخواته قد اطمأنوا لسلامته بعدما اتصل بهم هاتفياً فكيف يوصل خبر سلامته لجوليا وإعلامها أنها كانت محقّةً في محاولة ثنيه عن السفر، وكيف يُطمئِن سالم الذي لابد أنَّه علِم من العائلة باختفائه المفاجئ فقلق قلق مَن يدرك حقيقة نظام متوحش لا يعير همّاً لإنسان ولا يخشى رد فعل من عالم يستنكر ممارساته

الوحشية ضد مواطنيه.

قلق يومي

صار تركُ الموظفين لمكاتبهم والخروج من الغرف تعبير عن قلق ممض يحاولون تخفيفه بالتوجه إلى غرفة إعداد الشاي. ينشغلون بتسخين الإبريق المعدني وغسل الصحون والاستكانات بأنفسهم. يدخّنون ويجترون الأحاديث المقلقة.. احتشدت الغرفة بمساحتها الحسيرة بخمسة موظفين كان أحدهم يتكلَّم بصوت أجش ينقل لهم أخباراً سمعها من مقربين له يمتلكون أسراراً خطيرة ومربكة بينما يعقب الآخرون ويتساجلون. جميع كلامهم يعبر عن هزيمة ماحقة ستلحق بالسلطة وتدمير هائل سيحيق بالوطن.

يسمع صاحب الصوت الأجش يقول بهمس:

- لقد دمّرت الطائرات الأمريكية ألوية الحرس الجمهوري المرابطة جنوب العاصمة. وبالضبط في بساتين اليوسفية. يبدو أن استطلاعات الأمريكان اكتشفت انتشارَهم فقصفت المكان متراً، متراً.. تهشَّمت رؤوس النخيل وتشظت مثلما تناثرت أجساد المراتب والضباط. تفجّرت الدبابات والدروع وخزانات الوقود المتحركة، وشبت الحرائق بمساحة واسعة. وقال مَن نقل الخبر أن لا أحد خرج سالماً.

أطلق حسرةً، وبألم تمتم:

- كانت محرقة بحق.

- فعلاً محرقة !... سمع أكثر من واحد يردد بينما انطلقت من فم أحدهم حسرة ألم:

- إنَّ لنا قريباً في تلك الوحدات. أتمنى أنْ تكتب له السلامة.

- وهنا، في بغداد!... تكلّم صاحب الصوت الأجش كأنه يبغي إكمال إعطاء الموقف الكامل.. "بدأت المفارز تفرغ، والرفاق يتبخرون.".

رد عليه زميله وصوت دوران الملعقة في قدح الشاي يُسمع بوضوح، يفصح عن الارتباك:

- دائماً هُم هكذا.. وقت الشدائد يفرون.. ألا تتذكر حرب ١٩٩١ كيف تركوا الجيش يباد بالطيران المعادي على طريق فاو – بصرة؟

- نعم، أذكر.. لكنَّ الأمر خطير جداً هذه المرّة. الأمريكان أعدوا العدّة لاحتلال البلاد بشكل قاطع.

وقع أقدام يقترب. يتلقّون تحية رئيس شعبتهم.. يردون:

- أهلا أستاذ احمد.. كيف الأحوال؟

زفرة طويلة خرجت من أعماقه:

- قواتنا تنتحر.. أين العمليات العسكرية المتقنة

والخطط الناجحة.. لم استطع البقاء وراء مكتبي. انتم جئتم إلى هنا وتركتموني لوحدي. صارت الغرفة كأنّها تفرغ من الهواء.. اختنقت.

- خير.. ما السبب؟

- قبل لحظات أذاعت قيادة القوات المشتركة للتحالف تدميرها لرتل من ١٥٠ آلية بين دبابة ودرع وبطارية مدفعية متحركة وهي تخرج من البصرة.. إلى أين؟ لا أحد يدري.. حتى المحللين العسكريين توقفوا كثيراً قبل الإدلاء برأيهم.. حسبوا العملية انتحاراً مع سبق الإصرار. خروج قطعات بلا غطاء جوي وفي أرض مكشوفة كأرض البصرة انتحار محتم. بديهة كالشمس لا يحجبها غربال الاحتمالات.

- هدفنا بغداد قال رامسفيلد بالأمس... سمع أحدهم يقول بخشية وتهجس.. "عائلات كثيرة استشرفت الخطر كبيراً وثقيلاً. شاهدتُ هذا الصباح عديد السيارات تنقل عائلات خارج العاصمة باتجاه ديالى. تعتقد تلك الأماكن آمنة وبعيدة عن العمليات العسكرية."

- سأسرُّ لكم سرّاً لا أقدر على كتمه... تفوّه صاحب الصوت الأجش.. "الدروع الأمريكية هاجمت بغداد لأول مرة. دخلت من جهة المطار ثم انسحبت.. الذي أسرَّني قال أنها محاولة جس نبض بالمصطلح العسكري، ثم يأتي

بعدها الاجتياح."

- هـذا يعـني أن يومـاً أو يـومين ويكـونـون هنـا ، في قلـب بغداد؟... جاء صوت احدهم مرتبكـاً.

- مَن يدري.. البلاد بلا قيادة ، والجيش تشـرذم ، والنـاس إمّا شرعت بملازمة بيوتها أو فضلت الهرب... جاء صوتُ آخر.

- هل نترك الدوام إذاً؟... تفجّر التساؤل من أكثر من فم.

- لا ادري؟

- كيف لا تدري؟.. أنت رئيس الشعبة. اذهب إلى مدير المتحف واخبره بخطورة الموقف. إن دخول الأمريكان يعني انحباسنا هنـا.. قد نتعرض للاعتقال لو اقتحموا المتحف ، وقد نُقتل.

صمتٌ ثقيل سادَ كأنه تفكير باتخاذ الثلاثة لقرار حاسم. رسمت مخيلاتهم مشاهدَ خطيرة... قليلاً ، و:

- اتفق مع رأيكم.".. قال رئيس شعبتهم.

الاتفاق مع رأيهم جعلهم يؤجّجون همَّته لمقابلة المدير وعرض خطورة الموقف مشروع باقتراح مفاتحة المسؤولين بضرورة منحهم إجازة مفتوحة أو تقليص عدد الموظفين على الأقل.

بعد نصف ساعة كان رئيس القسم يرافقه مَن أيقن بالخطورة العظمى يجلسون في مكتب المدير.. احترمَ الرجل اقتراحهم لموضوعيته فرفع سماعة الهاتف يتصل بسكرتير

مكتب الوزير.

اتصل.. واتصل... واتصل. فلا جواب.

لحظتها أيقن هو والجالسون أنْ لا أحد في الوزارة، وإنّهم بوجودهم في عملهم إنما يرتكبون خطأً فضيعاً سيتسبب بيُتمِ أولادهم وترميل نسائهم.. هزَّ المدير رأسه تململاً، مسح الوجوه المتشحة بالكدر والعيون الطافحة بنظرات الأسى.

- تدرَّعوا بالصبر، أرجوكم.. نحن أيضاً هنا في معركة من أجل الحفاظ على هويتنا. قلقكم مشروع، وخشيتكم على أسركم واجب. أتمنى أن تحضروا غداً. إنْ تغيبتم لن يغيظني غيابكم. أما أنا فبكل الأحوال سأحضر.

وفي مكتبها كانت د. واجدة الأستاذة المتخصصة بالتاريخ السومري والأكدي؛ تقابلها سميرة رئيسة شعبة الحسابات.. قلقتين، حائرتين.. ترتجفان من البرد والخوف معاً.. النقر المتواصل بأصابعهما على المنضدة يفضح تطيرهما من رداءة الحال.. تقول سميرة:

- دكتورة.. لا استطيع بعد الآن تحمّل بقائي في المتحف لأكثر من ذلك.. زوجي وأولادي قلقون. يلحّون عليَّ في البقاء معهم.

بقدر من التأييد تبادر د. واجدة:

- لك الحق، ولهم. إن حضورنا صار مقلقاً لنا ولأسرنا. لم

نعد نمتلك القدرة على البقاء. الأمريكان يعلنون ان قتالاً عنيفاً يدور في المطار الدولي. هذا يعني أنهم على مرمى نظر من هنا.

صمتت قبل أن تعلن خشيتها على موجودات المتحف وممتلكاته:

- هل تعلمين، يا سميرة. إن ما يقلقني بدخول المحتل الى بغداد ليس ما يحصل لأسرتي وبيتي بقدر ما قد يجري للمتحف. هذا المكان، وكل متحف في العالم، مثار شهية للسارقين الطامعين وسماسرة الآثار. سرقة الموجودات وحملها خارج البلاد يعني ضياع إرث عظيم لهذه الأرض. هناك أسواق يديرها مهربون جشعون ومافيات بلا ضمائر تنتظر مثل هكذا بضاعة تعرف أن قيمتها لا تقدر بثمن.. يا إلهي! لا يمكن تصور ذلك.. ستكون كارثة.

- هذا الشعور يراودنا جميعاً، لكن ماذا نفعل؟!.. الأمر ليس بيدنا يا دكتورة. لقد سمعت د. بياتريس أيضاً تخشى على المتحف. بل دمعت عيناها وهي تتخيّل ما قد يحصل.

- كان على مَن جعل المحتلين يعبرون البحار ليحتلوا بلدنا حساب هذا، لا ترك البلاد في ضياع.. أتدرين اني دخلت على زوجي في غرفتنا فوجدته يبكي. أدهشتني دموعه وظننته يتألم من وجع أو مرض مفاجئ فأعلمني أن مرد دموعه لألم تهشم الوطن واستشرافه أن لا هدوء ولا

سلام سينعم بهما العراقيون لسنين طويلة.

- هـو محـقٌّ بمـا قـال، أؤيـده في رؤيتـه.. مـا سيحصـل سـيجعل الـوطن يحتـاج لـزمن طويـل كـي يسـتعيد عافيتـه، ويعود للناس الأمان.

نقرات القلق برؤوس الأصابع على المنضدة تزداد سـرعة مـن كـلا المـرأتين. رؤى كابوسـية في تجسـد هتـك المتحـف وسـرقة معروضـاته والإطاحـة بهيبتـه تفاقمـت في مخيلتهمـا. قليلاً وطفحت عيونهما بالدمع الدفيق.

جد جوليا

كانت زيارةً جاءت على إلحاح من جوليا. قالت له أنها حدَّثت جدَّها لأمّها عنه فاشتاق للقائِه وودَّ الحديث معه. لا تدري ان اللقاء سيقود إلى فتح صفحة عن الحرب والدم والآلام. كان جد جوليا تجاوز الثمانين، ودار العجزة التي تقع عند مشارف ليدز على نهر (آير) تجعل زيارة الزائر للدار بمثابة عيدٍ للنزيل المُزار، ولقاء يشرع صفحات الابتهاج، ذلك أنَّ المُزار سيحيلها حديثاً مطولاً، يعيده على مسامع النزلاء حين يجلسون عند مناضد الطعام قبل بدء تقديم الوجبات، أو طقوس ارتشاف الشاي عصراً.. قال زائري كذا وقلت له كذا. أعجبني حين قال كذا،

وأُعجِبَ حين أعلمته بكذا. النزلاء ينصتون للمرة الأولى، لكن حين يعيد الحديث متصوراً انه يقصّه لأول مرة يتظاهرون بالاستماع ولا يبغون إحراجه بإعلامه بحديثه المكرر والمعاد.

حين أخبرته حفيدته جوليا بمصاحبة صديقها جاسم العراقي نطَّ برأسه وأخذ ينظر إلى الباب.

راح يتفرس بعينين كليلتين بالشاب القادم من أرض الماء والصحراء بحثاً عن آثار جراح على وجهه. طلب منه النهوض والترجّل عدة خطوات ليتأكد من سلامته وخلوّه من العوَق، ذلك أن ما قرأه في الصحافة وشاهده من دمار خلال الحرب العراقية - الإيرانية، ثم حرب تحرير الكويت بعد احتلاله لا يمكن تناسيه والتغاضي عنه.

كركر كأنه طفل، راسماً ابتسامة تقر بشيخوخة لا يمكن إغفالها رغم بقايا حيوية تدب في جسده وعينين تريدان التقاط الماثل بلا غشاوة ولا تشويه.

- أنتم شعبٌ صعب المراس. ورغم تباهيكم بأنكم علمتم العالم قبل ستة آلاف سنة، وهي خصلة تقر بإيمانكم بالتطور وسعيكم للتقدم إلاّ أنكم في العصر الحديث تعيشون بأدمغة ناشفة على عكس أمم الأرض. تتشبثون بالماضي وتتطيرون من الحاضر؛ أما المستقبل فيرعبكم مع

انه أحلى من الحاضر، وأبهى كثيراً من الماضي.

نهض من سريره وتوجّه إلى دولاب يعود له. أخرج البوم صور. وقبل ان يفتحه ويقلب صفحاته فاه:

- كان أبي جندياً في الجيش البريطاني الذي دخل بلادكم محرراً في العام ١٩١٧.

تجاوز عدة صفحات من البوم قبل أن يتوقف عند صورة:

- خذ؛ انظر إلى هذا الجندي الشجاع.. انه أبي.

كانت الصورة بالأسود والأبيض تعرض صورة شاب يحمل بندقيةً بماسورة طويلة وحربة سقطت عليها أشعة مصباح إنارة الأستوديو فولّدت بريقاً انفجر على خده الممتلئ، وتوازى مع بريق عينيه المحدقتين بعين الكاميرا. كان شاباً وسيماً ببدلة كاكية قميصها بجيبين عريضين وأزرار ذهبية وبنطلون تشد ساقيه أشرطة كتانية خضراء تتّحد مع الحذاء الجلدي الأسود اللميع. كان ذا اعتداد بنفسه ويبدو فخوراً بوطنه.

تذكّر وهو يطالع وجه الجندي رأياً قرأه للباحث الاجتماعي علي الوردي وهو يقارن بين الجندي الغربي والجندي العراقي كمثال لتحليل ازدواجية الفرد العراقي؛ فالوردي يرى "إنَّ الفرد العراقي من أكثر الناس حبّاً للوطن وتحمّساً لخدمة العلم بينما في الواقع مستعد للتملص من

خدمة العلم إذا آن الأوان."

استمر تأثير رأي الوردي في أعماقه يشيع وهو ينتقل بنظراته الى صورة أخرى لمدرعة ضخمةً، أميبية الشكل والحجم، بجنزير حديدي يلتهم الأرض التهاماً حين يدوس سائقها بقدمه على دواسة الوقود. ما يربو على الخمسين عسكرياً يعتلونها وهي في وضع نزول من كتف ترابي عالي إلى طريق ريفي ضيق. أوقفها سائقها الماهر فجعلها كأنها سترمي نفسها من حافة حادة نحو قرار نهر في وادٍ سحيق.

أوقف العجوز سبابته المرتعشة وثبتها على عسكري يرفع بيريته مع حفنة من الجنود يؤدون نفس الفعل:

- أترى هذا؟

- نعم. انه بقامة طويلة ووجه ضاحك.

- هذا قبل أن يصيبه احد الريفيين من قبائلكم برصاصتين من بندقية ألمانية زودهم بها الأتراك. كنّا نبغي تحرير بلدكم من هيمنتهم بعدما اذلّوكم قروناً.

تعكَّرت جبهته.. انكمشت عيناه وضاقتا:

- عاد إلينا معوَّقاً. أحدثت الرصاصتان غرغرينا في ساقه فجاء برجل واحدة ومرارة لم تتحرر من فمه، وهو يردد: مددنا لهم كفّاً تمتلئ عسلاً، بصقوا على العسل وبتروا الكف، ثم استداروا لخانقهم يقبّلون يده، ويركعون

ليمسحوا جبهتهم بتراب قدميه... لذا انظر لهؤلاء القادة الواقفين على جانب العربة المدرعة. هم الذين ابرقوا في ما بعد إلى حكومة ديفيد لويد جورج إبان عهد الملك جورج الخامس يرجون رئيسها ووزير دفاعها أن يسحبوا القوات، فلا فائدة من شعب تريد ان تشعره بوجوده ليكون رأسا فيرفض مندفعاً بكل أسلحة العناد ليبقى ذيلاً.

ضغطت جوليا على كفِّ جدّها ترجوه تخفيف انفعالاً لمحته احمراراً في العينين الضيقتين. فرفع الجد الكف الثانية ووضعها بحميمية على كفِّ حفيدته، ثم تكلّم:

- لستُ منفعلاً على ما أصاب أبي ـ بل على شعب كان يفترض به أن يمد لنا يدَ المصافحة طالما نحن استللناه من بين أسنان الأتراك الذين امتصوا دماءه وسلبوا ثرواته.. لم نأتِ لهم لنفعل ما فعلوا بهم؛ إنما جئنا لنتبادل مصالح.. فلو حصل ما سعينا له لما قبض على أعناقهم الآن دكتاتور بغيض، ولما بدَّدوا ثمانين عاماً من العمر والتاريخ في الفقر والجوع والحرمان.

رسم ابتسامة شيخ يبغي منها عرض الشفقة ممزوجة بالمودة:

- أفي كلامي ما يغيظ؟

نهضت جوليا، وبغمزة عين أشارت لجاسم بالنهوض،

والرد على جدِّها في وقت آخر وفي زيارة أخرى إن أراد الرد.. ظل الجد يبتسم للاثنين ويعتذر إن تسبب لهما بما يربكهما.

في الخارج؛ وهما يضربان الخطو على رصيف الشارع صوب الباص الذي يعيدهما لوسط ليدز صرح لها بأن الكثير مما قاله جدّها كان صحيحاً وموضوعيّاً.. ولكي يلطِّف الجو ويقلل من إحراج اعترى صديقته راح يردد: سَدام هوسين.. سَدام هوسين.. بوم.. بوم.. بوم.

د. بياتريس

دخلت د. بياتريس صباح اليوم على مدير عام المتحف. صارحته بخشيتها على المقتنيات والممتلكات، مقترحةً عليه الاتصال بالوزير بغية مفاتحة القيادة لتخصيص قوة عسكرية لحمايته من سرقة وعبث لا حدود لهما لو امتلك العابثون، كما قالت، زمام الوقت وحدث فراغ أمني وانفلات يصعب السيطرة عليه." يوم تعم الفوضى ينطفئ النور في عين الوطن ويعم الظلام. يلزم العراقي بعدها السعي جاهداً من أجل اعادة نظام الحياة، وهذا سيكون على حساب استقرار وسعادة الأجيال." هكذا اعتادت التصريح برؤيتها؛ وهذا ما كانت تبوح به لطلابها ممَّن يعدّون رسائل ماجستير وأطروحات دكتوراه تشرف عليها. لذلك ما أن

خرجت من غرفة المدير حتى راودها شعور بالقيام بجولة على القاعات ورغبة تأججَّ فيها الحنين الجارف لمشاهدة المعروضات. معروضات ما زالت بصمات أصابعها على الكثير منها حيث كان التصفيف والترتيب ورؤية وضع هذا الرقيم قبل ذاك، وهذه اللقية أمام تلك تمَّ من قِبلِها قبل أربعة عقود من الأعوام بناءً على معرفتها وفهمها لتاريخ حياة الأقوام وتواليات ساعات عيشهم وحركة عواطفهم.

تتذكر زيارتها لمتحف اللوفر في ستينات القرن العشرين كيف وقفت أمام تمثال الحاكم كويا المعمول من حجر الديورايت وتأملت قسمات الوجه الوديع لشاب يتَّخذ جلسة الإنسان الخاشع لحكمة قدر أجلسته حاكماً على عرش دولة لجش. ضمُّ الكفين إلى الصدر والجلوسُ على كرسي واطئ يشيان بسماحة يمتلكها وكبرياء لا يبغيه يصل حد الجبروت. وحتى نعليه خلعهما، فهو في وادي المقدس عبدٌ للآلهة وحاكمٌ طيّع لمشيئتها.. هكذا شرحت لمن وقف من الزائرين يطالع هذا الانجاز المذهل بحيث لفت انتباه الدليل الفرنسي الذي يتولى مهمة التعريف بمعروضات الجناح لزائريه ودهشته. وحين سألها بإعجاب وأجابته أنها من العراق وتخصصها بالآثار تراجعت الدهشة وحل محلها حوار معرفة عمّا تحتويه متاحف بلدها من كنوز مكتشفة وما

زالَ غير مكتشف في قلب الأرض.

إنها اليوم بعيون ملآى بالحيرة وقلب يعج بالخشية وأصابع ترتعش وهي تفتح أقفال صناديق العرض الزجاجية لتمر على اللقى. تمسسها برقة وحنين يشبهان مس خدود أطفال ينتظرون همساً دافئاً من أم حانية أو جدّة رؤوم. مرَّت على معروضات صحون فخارية فزاد ارتعاش أصابعها. أخرجت منديلاً ورقياً من جيب تنورتها قربتها من فمها. غمرته بأنفاسها ثم راحت تمسح بها الصحون صحناً فصحناً، كأنها تسقي كل صحنٍ قدراً من روحها.(إن لها مع هذه الصحون ذكريات. فقد مر عامان على عملها في دائرة الآثار ووجدت نفسها ضمن كادر التنقيب الذي توجه لموقع آثار تل الصوان في سامراء اعتماداً على ما تركه لهم هارتسفيلد من جهد تنقيبي استغرق ثلاثة أعوام ١٩١٢- ١٩١٤ كشف لهم فخاريات مميزة. هناك صرفاً أسبوعين من الحفر وحمل التراب إلى خارج الخارطة المفترضة لوجود الآثار.. أسبوعان مرّا، شعر اغلب أعضاء بعثة التنقيب بإرهاق ونضوب صبر، وظنوا إنما جاءوا إلى الموقع الخطأ، وإنهم لو حفروا إلى عمق عشرين متراً لن يحظوا بكسرة لقيا. وحين طرحوا الأمر على رئيس بعثتهم ضحك وعيناه تقطران عتب، أو لوم، أو سخرية، ثم قال: أراكم كأنما لم تعملوا في بعثة آثار من

قبل.. التنقيب يا أصدقاء من أولى أولوياته الصبر والتحدي.. الصبر على المشاق، والتحدي من أن الوصول والاكتشاف يتطلبان سكب العرق انهاراً وتوظيف الجهد جبالاً. ثم عاد ينبش بمجرفته اليدوية الصغيرة المساحة التي حدَّدها له.. وما إن مرَّ بعد هذا الحديث يومان حتى اكتشفت بصرختها النسائية الفتيّة وهي تصدم بمجرفتها شيئاً صلباً. فالتقطت فرشاة ناعمة من كيس عدتها المتدلية من حزام خصرها وراحت تمسح برؤوسها الشعرية التراب وتنبش قليلاً بالمجرفة، حتى إذا ظهر ما لم تكن تحسب من جَمال صرخت صرخةً انتفض لها الجميع وظنوا أفعى لدغتها أو عقرب لسعتها، إلاّ رئيس بعثتهم فهمها صرخة اكتشاف كبرى. فقد عهد مثل هكذا صرخة، لا تشابهها صرخة أخرى. يومها كان النهار يقدِّم للعراق على طبقٍ من زهوٍ وفِخار اكتشاف ما سمي بتنقيبات الموسم الأول في شباط العام ١٩٦٤، حيث سبعةَ صحونٍ فخارية مَطلية بألوان مختلفة براقة، برعت اليد الصانعة بطليها وسكب روعة روحها الفنية على سطوحها.. أُعتبر ذلك اليوم يوماً مشهوداً للبعثة والبلاد. وكانت بياتريس الشابة تتلقى رسائل الإعجاب وتجعل من ذلك الاكتشاف رسالة لشهادة ماجستير نالتها بامتياز في ما بعد.).

اقتربت من الصندوقي الزجاجي المتعالي. اتسعت عيناها اندهشاً على قيثارة ذهبية كأنها لم ترها من قبل، ولم تمسحها بنظرات إعجاب قلَّ مثيلُها. كان عمودها الأفقي - الملتصق طرفاه بعمودين يهبطان للداخل ليلتحما بقاعدة تبعث على الذهول - يشدُّ سبعةَ أوتار تتباعد، ثم بنزولهما إلى القاعدة يمرّان على حافة إفريز خشبي مُحزّز يدخل في كل حزٍّ وتر. ورأس الثور بقرنيه الحادّين زينةً لها تعمّق سحر الصدفِ الملوَّن المتوزِّع بفتنةٍ أخّاذة على جسدِ القيثارة كلّها.. تقمصت د. بيتاريس دور العازفة السومرية، وعادت ٢٦٠٠ عام قبل الميلاد لتعزف عشقَها لأبجديةِ الحجر والروح:

جي مالي والي بويه انعيمه..

حنطه ازرعوني بين الجرف والماي

ما ودعوني

بقدر ما شعرت باللذة وأداء الأغنية بعذوبة أثيرت الأشجان. وقفت حزينة أمام آشور بانيبال المنتصب وسط الصالة.. قالت: أخشى عليك ايها الملك العظيم من التدمير. فالأعداء اجتمعوا لتحطيم زهوك. وإن كانوا سيتجاهلونك وأنت تنتصب بهيبتك الكريمة ومقامك المُعزَّز فإنهم سيسمحون للسارقين والعابثين أن يطئوا أرض جبروتك ليهينوك ويجعلون كبرياءك نعلاً ينتعلونه، وعلى لحيتك

السمحة يتغوّطون.إنَّ الإنسان أيها الملك جُبل على الشر، وروحُ القتل لديه متجذّرة في أعماقه. دوافع السرقة، والعبث، والاستحواذ، والتشهير لا تزول من النفس البشرية أبداً، أبدا. فقابيل، أو قاين كما يسميه الكتاب المقدس، وهابيل أخوان من رحمٍ واحد. ولأن الطمع ونَيل الجاه خصلتان من خصال البشر فقد أقدم قابيل على قتل أخيه !.. نعم أخيه أيها الملك الجليل. وقبل قليل كنت أقرأ في سفر التكوين، وفيه "" قالَ قاينُ لهابيلَ أخيهِ لنَخرُج إلى الصحراء. فلمَّا كانا في الصحراء وثبَ قاين على هابيلَ أخيه فقتلَهُ. فقال الربُّ لقاين أين هابيلُ أخوك. قالَ لا أعلمُ ألعلي حارسٌ لأخي. فقال ماذا صنعتَ. إنَّ صوتَ دماءِ أخيكَ صارخٌ إليَّ من الأرض."". لاحظ أيها الملك إنَّ الربَّ يُشدّد على كلمة أخيك فلا يتركها، بل يوجدها مع كل جملة يقولها لعلَّ الإنسان يتعظ فيوجّه كوامنه وأفعاله نحو الخير. ولكن هيهات.

عندما استدارت تُطالع الثور المجنح بكت.. بكت بحرقةٍ. فقد تخيَّلت الموتورين والسارقين يجدون فيه كياناً صلباً وعنيداً لن ينفعهم بشيء فينهالون عليه بالمطارق. لن يجدوا فيه من تحطيم كبرياء وفائدة في سرقة سوى الرأس؛ فيقطعونه رغم ثقل وزنه. ستراودهم فكرة حمله لعلَّ يوماً يأتي مَن يشتريه ويهرّبه خارج البلاد، أو سيجعلونه كتلة

حجر في بيت احدهم يخيف به الصغار آن يشاكسون.

تضببت عيناها جراء دموع توالدت. غام الملك آشور بانيبال، ومعه سال الثور المجنح مع سيل الدمع. ولم يكن بيدها حولٌ غير أن تجفف المجريين بالمنديل الورقي التي مسحت به اللقى، وخرجت.

الهلع والهرب

من يُطالع فضاءَ بغداد يظن أنّ حرائقَ اندلعت تحيط بها؛ فثمة دخانٌ اسود يتعالى من نطاق يشكِّل طوقاً يشي بأنَّ المدينة داخل حلقةٍ من نيران تضيق عليها شيئاً فشيئاً حتى لتنتهي بنقطة مركزية ترتفع من قلبها لافتة سوداء تعلن موت مدينة.. الحركةُ مبعثرة.. الناس فرادى تتسارع خطاها في الشوارع والأسواق من أجل الظفر بما تحتاج ثم تعود على إيقاع اللهاث اليومي إلى مخابئ يطلقون عليها بيوتاً. أسطح البيوت البغدادية لا تزينها صحونُ الفضائيات التلفزيونية.. وجود صحن فوق سطح يعني أنَّ عقاباً صارماً وقاسياً يحيق بصاحب البيت؛ يعني العقاب الجسدي بالهراوات واللطمات والبصاق ومن ثم دفع مبالغ باهظة رشاً لإطلاق سراحه؛ يعني مصادرة الصحن ومتعلقاته. ومع كل ذلك يغامر الكثيرون في تهريب الصحون وأجهزة الرسيفر المستقبل من

شمـال الـبلاد ، مـن المنـاطق الكـرديـة الـتي لا يـد لسـلطة الحكومـة عليهـا بفعـل قـرارات الأمـم المتحـدة بعـزل الشـمال عـن بـاقي أقسـام الـبلاد حمايـة لشـعبه بعـد حـرب اسـتعادة الكويت.

يُنصَب الصـحن بعـد تمويـه يصـعب علـى عيـون السـلطة كشـفه. الفضـائيات تبـثُّ مـا هـو خـافٍ عـن المـواطن. الفضـائيات تعـرض وجـوهَ المعارضـة ونقاشـها الحـاد الموشّـى بتصـميم العـالم علـى إسـقاط النظـام وإزالتـه مـن الوجـود وإحلال بديل ديمقراطي بناء على دستور يحترم حرية الإنسان ويجعله يختار نظامه ورموزه بنفسه.

الغرابةُ تشيع في وجوه ساعات ما بعد الظهر حيث الفـراغ يمـلأ الطرقـات ويرمـي في عيـون الأسـواق العتمـة. فقـط الكـلاب والقطـط في انـدهاش وانبهـار لمـا تـرى. القطـط والكـلاب تعـرف النهـارَ للبشـر والليـلَ لهـا تسـوح بحريّـةٍ فيـه؛ فمـا بـال البشـر تركـوا لهـا حتـى النهـار تتجـول كمـا تشـاء وتعبث بأكوام القمامة كما ترغب مثلما صارت تتبول على الأرصفة وفي عـرض الشـوارع دون أن تدهسـها عجـلات عربـة مارقـة أو ترمـى بحجـر مـن صـبية يشـمئزون لرؤيـة الغـائط يندفع من مؤخراتها.

لم يحضر أبو جبار معتمد الـدائرة صـاحب النكتـة وروح

الدعابـة في اليـوم التـالي، وغـاب عـن شـعبة الادارة ثلاثـة موظفين. الغيـاب لم يغضـب المدير وإن هـو طلـب مـن مسـؤول الذاتية حين اعلمه إصدار أمر غيابهم." لهم كلُّ الحق ". قال في سـره؛ لـذلك لم يحـرك حبرَ قلمـه الأخضـر علـى كتـاب الأمر، بل دفعه إلى حضن الجارور بلا توقيع.

يعود غياب أبي جبار هـذا اليـوم الى قـرار اتخـذه البارحـة.. فبالأمس وبعدما أكمل عدد من كادر الدائرة شرب الشـاي وتركوا الغرفة واجههم بحديث تحريضي وشجاع:

- نحن مجانين، يا أخوان!
- كيف، عزيزنا أبا جبار؟
- أكثـر جيرانـي مـن المـوظفين انقطعـوا عـن الـذهاب صـوب أعمـالهم منـذ خمسـة أيـام ونحـن مـا زلنـا هنـا نجـيء ونـذهب. بقـوا في بيـوتهم ولم يـأبهوا لتهديـد رؤسـاء دوائـرهم. قالوا أن عائلاتهم بحاجـة لهـم وليس مـن العقـل المجـيء يوميـاً وسط مخاطر قد تحدث لهم في أية لحظة.
- وماذا تريدنا أن نفعل؟
- انـتم أحـرار. أمـا أنـا فـأم الأولاد هـذا الصـباح باكيـة ترجتني أن لا أذهب للدوام.

ضحكوا وهم يمازحونـه بجـزع: لهـا الحق واللّه. إذا صـار شـيء ويـن تلقـى مثـل أبـي جبـار.. ضـحكوا ، وإن كانـت في

ضحكاتهم بعض التكلف.

- لن تشاهدوني غداً. سأكون في أحضانها.

سمع تأييداً من بعضهم، وبعض أظهر حرصاً على المتحف لا خوفاً من التبعات.

بابتعادهم تركوا صدى خطواتهم تدوّم عالياً كأنه يأتي من غور عميق لقاعات فارغة إلا من أحجار وصناديق مزججة.

في العاشرة صباحاً فوجئ مسؤولو الشُّعب بمدير عام المتحف يمر على الأقسام قسماً فقسماً ويطلب من موظفيه مصاحبته في جولة شملت المتحف، بقاعاته ورواقاته والممرات. دخل مع د. بياتريس في حديث عن رؤيتها للموقف فأظهرت خشية لم تضع لها حداً، وانتظر تعقيب نائبه على ما أبدته الدكتورة من تشاؤم مطلق، والتفت الى د. واجدة التي كانت استقبلته لحظة خروجه من غرفته مُظهرة حيرة ممزوجة بخوف على ثروة قد لا يَعرف قيمتها مَن يُفكر باقتحام المكان. تمنت لو أن السلطة اهتمت بحق وأخذت تحذيراته مأخذ الجد كما فعلت في العام ١٩٩١ عندما وضعت قوة عسكرية ارتاح لها الكادر وأدّت القوّة فعل زرع الأمان.

الجميع خرج إلى حديقة المتحف. يخطون على ممراته

الإسمنتية ويتطلعون ليناعة الأشجار وبهاء الحشيش وصفاء شجيرات الآس الصانعة سياجاً أخضر يشيد بحذاقة الحدائقي ومقصّه القاطع في صناعة جمال بدا هذا الصباح أكثر توهجاً رغم لعلعة رصاص يتناهى من مناطق متفاوتة من العاصمة وأخبار لا تشي باطمئنان. توقفوا عند بقعة دائرية اتسقت فيها صفوف أزهار تعج بالحياة كأنها لافتة تدين فعل البشر القاسي المدمّر وتزدهي بإنتاج الطبيعة للنماء والرواء.

انحنى المدير العام على زهرة منها ثم أثنى ركبتيه كما لو كان سيقعي. قال: هذه وردة التوليب وتعني التصريح بالحب. كان الأوربيون يشترون بصيلتها بسعر بيت كامل، وكانت مقتصرة على بيوت الملوك والنبلاء. لكنْ ها هي بعد عصور تصبح زهرة لا تختلف عن قريناتها.".. لكل زمانٌ دولةٌ ورجالُ." رددت د.بياتريس. نهض ضاحكاً؛ شاركه المصاحبون له بالضحك متجاوزين الكمد ومتعالين على الجراح. ولم ينتبهوا لكتلة سوداء كانت تخترق صفاء السماء وتمزق ضحكة جميلة أطلقوها من صدور عامرة بالنقاء.. لم ينتبهوا للكتلة التي جعلت مبنى الإذاعة والتلفزيون هدفاً للمرة الرابعة منذ بدء الحرب. الكتلة السوداء أحدثت ارتجاجاً فضيعاً زرع هلعاً قاهراً للجميع.

فالمسافة لا تتعدى الثلاثين متراً.

كدافعٍ ذاتي هرب البعض للاحتماء تحت ظل الشجر؛ وبعض اندفع داخلاً المتحف، وبعض بقي متصلباً حنَّطه الذهول والشدَه.. أصوات متضاربة نمت عن خوف مميت. الموقف المروّع دفعهم للتنادي للهرب من المكان فقد يكون المتحف ضمن أهداف ستصيبها قذائفهم الذكية.

بعد لحظات وغب حوار سريع وتصور مربك للحال توجّه عدد منهم الى سيارته الخاصة المركونة في المرآب وعدد هرع نحو الشارع يستقل أول سيارة أجرة يبصرها لتنقذه من مخالب الموت. وكانت بياتريس بين الخشية على المتحف والخوف من القنابل ترتعش غير قادرة على مسك مقود سيارتها بموديلها السبعيني.

***

حين فتح باب الثلاجة وجدها تحوي أكياساً ورقية وأخرى من البلاستيك ممتلئة بخضار وفاكهة عرفَ أنه شاهد ذا البنطلون الرصاصي يفتح باب الثلاجة ويضعها. سمعه يقول لزميل تلاه بوضع كيس أن كل ما في جيبه صرفه في شراء كيلو خيار ونصف كيلو طماطة وعشرة أرغفة من الخبز. فيما جاء بعد خروجهم وتوقفهم عند الباب ذو البنطلون الجينز والحذاء الشامو فوضع كيساً من

النايلون وسمعه يقول لهما انه ابتاع كيلو برتقال وكيلو خليط من الشلغم والشوندر كونهما بسعر واحد.

يحزن... المساكين تركوا كل شيء. أرعبتهم الغارة ففروا ينعمون بفاكهة السلامة. تمتم مع نفسه. كان عزم على الخروج لسوق حمادة القريب لكنه اكتفى بما رأى. وجد أن وقت بقائه في المتحف بات قصيراً. فأصوات الرصاص صار يلعلع على مقربة، وطائرات هليكوبتر حربية أخذ يبصرها تحوم في السماء حاملة صواريخَ موجّهة سرعان ما تبصقها على أهداف منتخبة يسمع بعد لحظات من انطلاقها أصوات انفجارات.. تتعالى موجة الحزن في بحيرة روحه غير المستقرة، وتتبارى جملة آهات يطلقها الصدر الضاج بالوجع.. وجع زمن الاعتقال وعذاب لا يخطر على بال بشري يقدّر قيمة انسانية جعلتها الشعوب الأخرى في أسمى مرتبة؛ وجع الشغف لرؤية أمه وإملاء عينيها وإشباعها بصورته قبل مغادرتها الحياة بفعل داء لعين يقرنوه في الغرب بحاكم العراق مثلما يقرنوه بهتلر وموسوليني وستالين وشاوشيسكو وأخيرا بن لادن؛ وجع فقدان عمله وخسران صداقة جوليا؛ وجع معاناة شعب لم يعرف للراحة مكاناً ولا للهناء زمناً.

يتذكر نظرات التعاطف والمواساة تسكبها عيون كل

مَن التقاهم في ليدز، انكليز أو أجانب، معتبرين أن ما يمر به شعبه لا يمكن لشعب آخر تحمله. فبين حاكم جائر وحصار بغيض دخل الناس في دوامة المجهول والسعي المجهد للبقاء.

ذروة ما بلغه من ذلك التعاطف وتلك المواساة تمثل في ليلة لن ينساها.. فغب مرور ثلاثة أشهر دعته جوليا لحفل عيد ميلادها.. ولأنه لأول مرة يدخل مجتمعاً اسكتلندياً خالصاً جمعته المناسبة (تحرص عائلة جوليا على جعل حفلاتها الخاصة كما أعلمته تشمل العائلات الاسكتلندية حصراً) ذهب إلى شارع الملك ادوارد. لفت انتباهه بدلة كحلية تخيلها تليق به معروضة في الواجهة الزجاجية لمحل ريفر آيَند. أعطى مقاساته وسريعاً دخل الى كابينة تغيير الملابس. وقف أمام المرآة فوجدها بدلة كأنها فصلت عليه. قرن بشرائها شراء قميص أبيض وربطة عنق، ثم عرَّج على محل بيع أحذية ليس بعيداً.

وفي المساء كان باب بيت جوليا العائلي يُطرق؛ وجوليا تفتحه بنفسها.

جاءها بالبدلة الكحلية والقميص الأبيض وربطة عنق بخطين اسود وابيض متوازيين بينما استقبلته بفستان سمائي داكن تهدل منه قطرات بيض شابها لون ثلجي شرعت تلمع.

دخل وإيّاها صالة البيت وسط أضواء باهرة ومدعوين يطفح السرور من وجوههم وتضج عيونهم ببهجة مائية غامرة.

قدمته للأب والإم كقصيدة تبغي من خلالها إكمال دائرة الفرح. امتدت أكف الضيوف لمصافحته. حكت عن اهتمامها به كصديق ورغبتها بمصاحبته كطالب متفوق. تحدث هو بما استطاع من شجاعة يملكها عن اعتزازه بجوليا كطالبة ذكية وحاذقة. ولأن الفضاء مكرَّس للاحتفال جرت الساعات الأولى بتبادل الأحاديث بين المدعوين وإطفاء ثلاثين شمعة، وتوزيع قطع كيك وعصائر. أعقب ذلك ارتشاف أقداح نبيذ اسكتلندي عُتِّق لغرض المناسبات ذات الفرح العميق والبهجة العميمة.

ساعات الفرح تخلو من أي محفز للألم.. عقارب الساعة تدور وتدور؛ ومعها يتقلص عدد الحضور تاركين أمنيات بعام جديد أكثر سعادة وأبهى حياة لمضيفتهم.

ولأن للخمرة فعلُ إثارة الشجون وإن تقصَّد الفرد طردها وإبعادها ساعات الصحو فقد وجد نفسه والى جواره جوليا سعيدة بوجوده إزاء والدي جوليا. الأب يطالعه باهتمام، والأم تنظر اليه بتعاطف.

- ليس لكم إلا الديمقراطية دستورا ينظم مسيرة بلدكم السياسية. إن انقلاب ضباطكم في العام ١٩٥٨ وما

تلاه من انقلابات، وطيشهم وبلاهة أحزابكم وغباءها دمر تجربة دستورية تركناها بيدكم في العام ١٩٢١. الحمقى من سياسييكم جعلوا شعبكم كسفينة في متاهة. لا هم أحسنوا القيادة ولا فكروا بالعودة الى الديمقراطية كطريق للسلام.

كان كلام والد جوليا ككلام جدِّها لأمها. كلاهما لديه نفس الرؤية.. رؤية كل المتحضرين الذين يقرون بأحقية الإنسان بالعيش على أرضه، ينهل من ثرواتها ويعمل على ديمومة يناعتها فيما الساسة بغبائهم يسلكون سلوك جعل الأرض يبابا والشعب ضائع وجائع ومحروم.

القرار

بخروج الجميع وبقائه وحيداً في صباحٍ مهتوك أدرك حقيقة أنه غدا حراً. الوحدة تمثلت معادلاً موضوعياً لحريةٍ نالها بضربةِ حظ.. بإمكانه الآن الخروج والتوجّه صوب كراج لا يبعد غير أمتارٍ معدودة مستقلّاً سيارةً تنقله صوب مدينته الجنوبية. لأولِّ مرّة يشعر بتخلّصه من أسار السجن، فقد شرع يرى انطواء صفحات التعذيب الى الأبد، وقبضة الحاكم العسكرية والأمنية الفولاذية ارتخت. جبروته تفكك وليست إلا أيام حتى تتهاوى وتتبعثر. وعندها يحضر

التاريخ مترجلاً ومتهادياً، يمد لسانه استهزاءً وسخريةً بوجه كل مَن لا يحسبون لقلم سيدون عنهم صفحات رمادية قاتمة، ويظهرهم للأجيال القادمة هياكل كارتونية، فيقدمهم أمام محكمة الزمن مذنبين لينالوا قرار الموت قتلاً ورمياً إلى المزابل.

ترتسم أمامه صورة أمّه، أختيه، سالم يلتصق به. تقول له الأم بقلب خافق مشحون بعاطفة الخشية: لا تتركه يا سالم، لا تجعله يبتعد عنك وأنتما تلعبان في الزقاق. لا تأخذ به نحو الشارع العريض فتعرضه لخطر السيارات المجنونة أو زحام السوق.

يأتيه صوت أمه.. يعود إليها، ذلك الطفل بأعوامه الأربعة. تُلبسه بدلة جديدة ابتاعها له أخوها من باعة ملابس وسجائر وعطور مهربة من الكويت عبر البادية الجنوبية؛ عبر بصية والسلمان بطرق ميسمية لا تدركها عين ازغير بجاي دليل الشرطة الهجّانة الشهير بفراسته وسعة حيلته، ولا أبو جفّات سائق الدوج المعدة لملاحقة عمليات التهريب، قوافل وأفراداً، أو متابعة الهاربين من السلطة باتهامات سياسية أو جرائم قتل يتبعها ثأرٌ مزروع بالتصميم على قاتل الضحية من لدن الإخوان او الأبناء في صحراء لا يثبت فيها طريق ولا تبقى لها علامة بفعل تغير طوبوغرافيتها وانتقال كثبانها من مكان

لآخر.. تلبسه أمه البنطلون القصير أعلى الركبتين، ثم القميص.. بدلة يطغي عليها اللون البنّي والأبيض الثلجي، ووجه دائري حنطي وشعر بللته ومسدته بزيت الزيتون ففاحت رائحة زروع فاغمة، ثم ألبسته شبشباً أبيض بسيور زرقاء كانت خرجت إلى السوق تتابع باعة أحذية الأطفال من اجل شراء ما يليق بالبدلة فاختارته وفق ذوقها وبما يلاءم لوني البدلة.

وقفت هي أمام المرآة تطالع وجهها الثلاثيني وثوباً عزيزاً عليها تحتفظ به، جعلت ارتداءه للمناسبات فقط؛ إذ جاء به أبوه من البصرة بعد فترة عمل في سكك حديد المعقل كمدير ذاتية نُقل من السماوة معاقباً عقوبة إدارية بحجّة تطاوله على مديره المسؤول فيما الحق هو الضيق ذرعاً من نشاطه السياسي الباعث على قلق سلطة جديدة جاءت في العام ١٩٦٨ وتوجهها صوب محاربة مَن له تطلعات لا تتوافق ومسارها.. قال لها: اشتريته لك من سوق حنا الشيخ.

يتذكر وهو الطفل الذي فرح بالبدلة الجديدة مع الصباح كيف انطفأت الفرحة بفعل جلبة حدثت في البيت وبكاء أمه ونحيبها على أبيها الذي اعتقل في ما بعد من قبل السلطة الجديدة ونقل إلى مديرية أمن بغداد بتهمة التجسس والمجاهرة بالإعجاب بالأنظمة الغربية ودساتيرها المانحة

للإنسان الحرية، والفاتحة أبوابها للاقتصاد الحر.. يتذكّر الأيام التالية المعجونة بحزن امه وبكائها المستمر، ثم إطلاق سراحه بعد أسابيع معلولاً وقد بان عرج في رجله اليمنى تطلب الاستعانة بعكاز حتى مماته.. يتذكر كيف ان عمّها دعا أخيه للمطالبة بحقه طالما أنَّ التحقيقات أثبتت براءته.. ذلك الاقتراح ذكره بحكاية شرع يحكيها للجالسين عن غراب شاهد ثعلباً وفمه يريل باللعاب، وعرف أن قطعة عصب من ضحية أكلها هذا الماكر المخادع دخلت بين ضرسين من أضراسه وأنها سببت له عذاباً لثلاثة أيام متتالية وجعلته لا يتناول شيئاً، فهو جائع بحق؛ فسأل الغرابَ الثعلبَ المعلول عن مكافأة إن أخرجها له. الثعلب ردَّ: كل ما تطلبه يكون تحت يديك.. فغر الثعلب فاهه وأفرج فكّيه. أدخل الغراب رأسه بين الفكين، وبتعامل ذكي جعل الغراب منقاره يستخرج قطعة العصب العصية على الثعلب... بإزالتها شعر الثعلب بارتياح لا حد له، وصار الغراب الذي طار ووقف على غصن شجرة قريبة يطالب بمكافأته. لحظتها ابتسم الثعلب ونظر له بنظرة مكر ودهاء، ثم قال: مكافأتُك أيها الغراب رأسُك الذي دخل فمي ولم أطبق عليه بفكّي بعدما رفعت قطعة العصب وأنا جائع لم آكل منذ ثلاثة أيام.... جال أبوها برأسه بين المنصتين، وقال: أبعد الفوز برأسي من

سلطة قدِمت للانتقام تريدني ان أطالب بحقٍّ منها؟

تبتسم لـه الفتاة الآشورية العاجيّة الجميلة بحاجبيها الأسودين الكثين وشعرها المفتول الهابط على جبهتها وجدائلها المتدرِّجة النازلة على صدرها.

تريد أن تدخل حوار البهجة معه لتبدد ما قد يتجسّد وحشةً في قلبه. قد تستحيل جوليا لتعيد رغبةً كررتها مراراً في زيارة بلده لولا الخشية من سلطة قد تتهمها باتهامات مفبركة.

كان ثمة قلم رصاص على المنضدة، جوار الهاتف وضعه الحارس او عامل الشاي على المنضدة ليشطب الأيام المدونة على التقويم. أراد أن يواصل الفعل، فراح يرسم خطاً مائلاً على الأيام ٤، ٥، ٦، من شهر نيسان أهملها احدهم... همَّ بشطب رقم ٧، لكنه تراجع؛ مبرراً ذلك إلى انه ما زال في ساعات الصباح الأولى، وأنَّ من الأفضل شطبه عندما يحين المساء وتتصرف ساعاته.

***

مساء الليلة الفائتة فتح النافذة. لم يكن غير الليل يخطو على الأرصفة ويقطع الشوارع الصامتة. وليس غير المصابيح الكامدة تهمي ضوءً شاحباً من أعمدةٍ لم تعد تنتصب عمودياً بفعل ارتجاجات لا عدَّ لها أحدثها القصف

المتكرر والهدير اليومي، فصارت تُرى مائلة أو منحرفة أو آيلة إلى السقوط. وصار من عِداد المستحيل مشاهدة أحد يمر ليلاً فيمطره الضوء ويكشفه. لم يكن ثمة مارّة يقطعون الطريق ويسمع حواراتهم كما كان يشاهد خلال الثلاثة أيام الماضية. تلاحق الساعات السريع يقضي بسوء الحال. والأيام بتواليها تنبئ بأحداث عاصفة قد تدمر بغداد وتتركها عاصمة للخراب وقصيدة دمار لن تضاهيها ملحمة خراب من قبل لاسيما والإعلام المرئي والصحافة الغربية التي كان يتابعها هناك من انكلترا وفضائيات أوروبا وباقي دول العالم كانت ترسم بانوراما لخطر مهول ستحدثه أسلحة الدمار الشامل التي فصلت تلك الصحافة ووسائل الإعلام كميتها المرعبة المخزنة ليوم إذا استخدمت فيه ستحين ساعة الحشر وستجعل البشرية حتماً أمام خراب لا انتهاء منه.

أرهف السمع لأصوات متقطعة، وصوت سحب أقسام بنادق يتناهى من بعيد فأدركها نقطة تجمع ليست قريبة لبقايا حزبيين شاهد بعضاً منهم عصراً يحملون البنادق على أكتافهم ويمرون جوار سياج المتحف. قال ربما هي نقطة حراسة أو تجمع لقوة ترابط عند مبنى الإذاعة والتلفزيون.. لقد توصل من خلال مراقبته ان مبنى مديرية البريد العامة

ومبنى دائرة الموانئ المحاذية لها بلا حراسة أو أنّ حراسها شأنهم شأن حراس المتحف أداروا وجوههم واختفوا في بيوتهم.

الصمت المطبق على المكان، وخلو الشوارع، وانتظار شروع قوات الاحتلال بقصف أهداف قريبة كالقصر الجمهوري وما ينتشر فيه أو يحيط به من قوات حرس خاص وقطعات تتجحفل معها هيَّج فيه خوف مفاجئ، وأضرم ناراً في ربوع روح كان جعلها مغمورة بغابات الأمان.. أتراني على خطأ حين بقيت هنا؟ أليست هي أثمن فرصة للخروج؟ ألم يكن من الأولى اتخاذ مركبة تنقلني لمدينتي حيث سأولد من جديد بعدما يئست يأساً قاطعاً في تلك الزنزانة وحسبت أن لا خلاص منها إلا بالموت، ذلك الموت الذي سيغدو حينها رحمة بمثابة هبة من السماء؟!.

دارت في رأسه أسئلة تترى تقطر أسىً وحزناً ومرارات على بغداد المبتلات بشره الطامعين.. بغداد التي لغنجها وبهاء طلعتها تغنى بها الشعراء باصمين أرواحهم على أديم الهواء، وناجى شاطئي دجلتها عشاقٌ شفَّهم الوجد راسمين لوعتهم آهاتٍ لغزلانها النافرة، وطافت في فضائها أرواح من حلموا أن يسكنوا بيتاً من بيوتها او يستحموا في حمام من حماماتها أو ينهلوا معرفةً من فيض مستنصريتها.. بغداد هذه

المدينة الغارقة في الترف والغافية على شاطئ الرخاء نالت من فضول الحسّاد ما لم تنله مدينةً في التاريخ. قصَّرت صفحات الكتاب عن تدوين حقيقة وكشف وقائع ما نال أهلها من جور وما لاقوا من عسف. وظل الكثير من أسرارها مخزوناً في نفوس أهلها وهم يتلقون سهام القدر ورماحه سهماً فسهما، ورمحاً فرماحا.. حصار نادر قُلي الطامع القادم من الشرق أسرَّ لقادته ساعة عبر نهر ديالى في العام ١٧٣٣ انه متوجه إليها بدعوى القضاء على الوالي العثماني أحمد باشا الذي يديرها مُحتلاً قادماً من الشمال إنما كان يمنّي النفس بركوب زورقٍ يتهادى به على مياه دجلة، يُشبع النظر من عيون المها ورفلها على رمال الشاطئين مثلما يرهف السمع لغناء زرياب وجوق المنشدين: جادك الغيثُ إذا الغيثُ هما، مختطفاً من الوالي العثماني ليالٍ ملاح ملأ بها جرار الروح.

مجاعات متوالية سببتها الطبيعة فضربت المدينة بفعل قحط شديد جراء انقطاع المطر وشحة مياه النهرين وفروعهما كما جرى في العام ١٧٨٦ أو بسبب الفيضانات الجارفة كما الحال في شتاء ١٩٠٧ واستمرارها خمسة أيام متواصلة، كسرت السدود وأتلفت الزرع وأسقطت البيوت وجرفت الماشية وأغرقت الإنسان ولم يتبق غير العويل

والولولة والنواح.

فكّر أنه لن يبق إلى الأبد في هذا المكان المغلق وحيداً منعزلاً ، وإنهما فقط يومان او ثلاثة يشبع خلالها الفضول وينتهي من استطلاع القاعات بمحتويات عدّها كنوزاً لابد لذاكرته من التقاطها صورةً فصورة؛ ثم بعد ذلك العودة لمدينته.(إنَّ الولع في التعرف على حيوات أقوام عاشوا عبر امتداد جغرافي شمل الوطن برمته هو ولع لا تضاهيه نيل أمنية ولا تحقيق معجزة. لقد استمر أبوه يمنعه من الذهاب في السفرات المدرسية الى آثار الوركاء وبابل وسامراء يوم كان تلميذاً في الابتدائية والمتوسطة خشية عليه من الحوادث فحرمه من نعمة الاطلاع والتعرف على فضاء أوسع من المعرفة الإنسانية. لعل هذا الحرمان في الفتوة والصغر هو ما جعله محباً لكل ما هو قديم يشير لحياة أناس كانوا ثم رحلوا ، محاولاً التعرف على أنماط وأساليب حياتهم وما يتعاملون به ومعه.).

إشراق مُبهِج شرع ينبثق داخل الروح مانحاً رغبة مضمخة بارتياح بينما انسحب الخوف وتبددت الخشية من المجهول. إشراق كالذي انبثق في سماء وجوده يوم خرج لأول مرة مع جوليا عندما اقترحت عليه أن يلتقيا.. وفي اللقاء وضعت كفاً بكف واشتبكت أصابعهما واندفعا في شوارع ليدز ثم

انتهيا إلى شارع الملك ادوارد. تمشيا كطفلين جذلين يتجولان في بستان تملأه ثمار تضحك للشمس ساعة صباح شهي؛ يطالعان الواجهات الزجاجية ويتحاوران عما خلفها من معروضات. توقفا عند معرض (رِفر آيلند).

قالت له: هذا السويتر الأزرق يليق بك. اقترح شراءه وارتداءه غداً في المحاضرة.

وافقها على جماله وحسن تفصيله لكنه أرجأ الشراء. فواصلا السير وسط حركة فتيات وشباب يجدون في التفرج على المعارض وقت تسلية حتى أدركا باباً خضراء مزججة كتب فوقها (Leeds city.. markets). دفعاها فكانا وسط أقسام تعرض بضائع موزعة باتساق.. توقفا عند لعب أطفال.. بشعور مفعم بالحميمية أشار على البائع ان يغلف دمية قطنية ذات خميلة طرية باللونين الأبيض والوردي ويطبع على المظروف إهداء ("To my darling Julia")... فوجئت جوليا بمبادرته. وكانت تتابع اختياره وكلامه مع البائع. عيناه تعجان بالرجاء في قبولها ، وعيناها تمطر شكراً وسرور.

ظلت كل لحظة تطالع الهدية وتضحك كتعبير متواصل عن الدهشة وامتنان صادق لشعوره الجليل... يومها شعر أنه يحلم... وكان الحلم طويلاً وطويلاً؛ استمر عامين من

الدراسة العليا صرفهما ينعم برفقة سعيدة وسط جو من الهناء يشبه هناء من دخل حوض سباحة وراح يمد جسده على سطح الماء ويترك أذنيه غارقتين فينقله الصمت المريح إلى دنيا سكون يشبه زمناً مقتطعاً من جنة كرسها الله لأحبابه من البشر المخلصين.

وهو يخطو، وبشعور امتلاكه للحرية بعد قيد إجباري محكم منح عينيه مهمة التجوال وجعلها تنهل ما تستطيع نهله من موجودات عزّت عليه رؤيتها في فتوته وصباه.. فحين كان صغيراً وأوروك لا تبعد كثيراً عن مدينته كانت الإجابات عن استفهامات يسكبها في مسمع جدّه لأبيه ورغبة إشباع فضول لا يكف عن التأجج تؤكِّد على تجنب الوصول للتلال المطمورة هناك.. كثيراً ما تمنى المشاركة في سفرةٍ مدرسية تأخذ تلاميذ الابتدائية لمشاهدة الآثار لكنه كان يكبح من الجد المُحذِّر، ويعاق من قبل الجّدة لمجرد ذكرِ أولئك الناس. "أولئك صبَّ الله عليهم غضبَه فأحالهم حجراً. هكذا كانا ومعهم الكثير من الناس يفسرون وجود باطن الأرض بما حوت، والتلال بما ضمَّت.

عام دخل المرحلة المتوسطة عرف من خلال منهج التاريخ أنَّ اوروك مدينة حضرية في زمانها. احتضنت شعباً استطاع بفكره المتوهج من نهل المعرفة وفك كثير من الرموز المعقدة

مثلما حل الألغاز المبهمة في الطبيعة المحيطة. عرف أن أولئك في الواقع أجداد لوالده وجدّه ومن معهم من المتطيرين. وما الساكنون قريباً من التلال إلا أحفاد لا ينبغي ان يتنكروا لأجداد عظام صنعوا تاريخاً عظيماً، وخلفوا إرثاً إنسانياً أثار دهشةَ الباحثين والمنقّبين فكتبت الدراسات عنهم وأصدرت الكتب.

أتخذ الآن دور جاسم جراد حارس آثار أوروك الذي قال عنه مرّةً زملاؤه في السفرة المدرسية التي حرم منها انه كان يتقدمهم ليستعرض حياة أناس عاشوا قبل ٦٠٠٠ عاماً تاركين ارثاً نُهب بعض منه وأهمل بعض؛ وارض يدوسونها بأقدامهم غير مبالين بقض مضاجع النائمين في ثراها.

كان الضوء يتوهج من مصباحٍ واحدٍ أصفر من مجموعة مصابيح مطفأة يُترك مضاءً كي يُظهر لمن ينظر من خارج المتحف أن ثمة أحداً يتواجد داخله، يتولّى الحراسة. واصل سير أرساه على قاعة يصلها ضوء خافت فيظهر هياكل تغطس بخثرةٍ عتمة وتبدو كما لو كانت ثمة مخلوقات بشرية تتستر بظلمة خشيةً من طارئ مجهول. كانت أزرار إشعال المصابيح على مرمى نظر. فضوله دفعه لمد سبابته تضغط الأزرار بغية إنارة القاعة الواسعة، لكن شيئاً ما لجمه في لحظة مسّت السبابة زرَّ الإشعال وكانت على وشك

أن تضغط. رعب انبثق فجأة في دروب ذاكرته. رعبٌ أعاده إلى شعور أن إطلاق الضوء قد يثير انتباه مَن في مهمة حراسة أو في دورية عسكرية لاسيما والخشية تساور السلطة في أن المناهضين لها ربما ينشطون في الشوارع، وقد يهاجمون مواقع مرابطة ميليشيا السلطة أو مراكز الشرطة.

بعد جولة كان الحذر مرافقاً لكل خطوة يخطوها عاد لغرفته.. ارتمى على الفراش، وفي الرأس رغبة تصميم على فعل شيء.. قال:

"لأنم الآن؛ ولأجعل ساعات الغد ميداناً للتجوال"... أغمض العينين. ابعد التوتر. منح الجسد شحنة استرخاء. واختفى العالم بانطباق الرموش.

المعاناة والقسوة

كان يمكن لمثله بما عانى وما قاسى ان ينام ليلة السابع من نيسان بطولها فلا يستيقظ الا والصباح يوقظه بأنامل ريشية والشمس تهمي عليه طلاً من أشعتها؛ لكن ليل الحروب لا يتعامل مع الانسان بساعات النوم الهانئ، وليس من شيمه العزف بقيثارة السَحر الجميل. فباقتراب الوقت من الثالثة صباحاً جرى قصفٌ مروّع آخر لمبنى الإذاعة والتلفزيون. ارتجت جراءه الأرض؛ وموجودات المتحف اهتزت

فتسـببت بتهشـيم ثلاثـة تماثيـل جبسـية لآلهـة كانـت تُعبـد بخشـوع وتُرتجـى مـنح هباتِهـا وإغـداقِ بركاتِهـا؛ ومعهـا تكسـرت أربعة صناديق زجاجية مسـتطيلة، منتصبة عمودياً في قاعـة الموجـودات واللقـى تعـود لمواقـع مختلفـة: الصـندوق الأول يعـرض إبريقاً من الفخار نُحت عليه بشـكل بـارز عـدد مـن الأسـود والـثيران، والصـندوق الثـاني يعـرض انـاءً فخاريـاً حفرت عليه أشـكال أبقار وسنابل قمح وجدت في أور، وضمَّ الصـندوق الثالـث قاعـدة نذريـة مـن البرونـز عبـارة عـن رجـل كُتب عليه من خفاجة في منطقـة ديـالى، ارتفاعـه ٥٥,٥ سـم. أما الصندوق الرابع فكان بثلاث رفوف حوت أختـام طينيـة يعود زمنها لجمدة نصر.

مع اشراقة الشمس وقدوم الصباح ورسـو النظـرات علـى اليوم السـابع في التقويم والابتسامة الجميلة البريئـة مـن الفتـاة الآشورية تنامى لديه فضول مشاهدة كيف تكون الشـوارع؛ ومـا جـرى بـالأمس لموقـع جهـة مبنـى الإذاعـة، فقـد كانـت الـنيران تتعـالى وثمـة مـواد تشـتعل. المنطقـة القريبـة وبضـمنها الجنـاح الشـرقي مـن المتحـف استمرت مضـاءة بفعـل الـنيران حتـى الصـباح. هـرع مُخلفـاً الغرفـة وقاطعـاً المجـاز شـبه المعتم متوجهـاً الى السـلّم. درجـات السـلّم ارتقـت بـه صـعوداً حتـى أوصلته إلى البـاب الحديـدي. سـحب المـزلاج، اسـتقبله فنـاء

السطح. المشهد أطلعه على خلو الشوارع من المارة.. لا عربة رأى ولا صوت محرك سيارة سمع.

لكأن الحياة توقفت؛ والزمن أعلن جموده.

الفضاء الممتد جنوباً اظهر له جدب الشوارع، والنفق المؤدي إلى حدائق الزوراء الذي اعتاد ابتلاع السيارات ولفظها بعد ثوان هو الآن عبارة عن عتمة تدفع بهامتها باتجاه وهج الصباح. جامع بن بنّية بقبته ومنارته الزرقاء المطعمتين بالآجر الأخضر واللازوردي ينتصب صاغراً يطالع محطة القطارات المتوقفة منذ حرب ١٩٩١. حدائق الزوراء عن بعد تفتقد خطو مَن يأمل بحنو الطبيعة وسحرها.

على يمينه ألقى نظرة على الشارع، يسار المتحف. كان مقفراً. الحصار وقبله حرب الخليج الأولى فعلا فعلهما الساحق فيه، تاركاً الأبنية جرداء لم يمر عليها الطلاء لما يزيد على العقدين من الأعوام. لا طلاء يعيد رونقها وإبقائها على قيد الذوق الملفت للانتباه. لا تجديد في إسفلت الشارع، لا تجميل للأرصفة.. معظم الدكاكين مغلقة؛ وما يفتح منها يعيش صاحبها انتظاراً قاتلاً. فلا بضاعة تتواجد ولا مشترٍ يسأل.. وحتى أبو ستار بائع البيض المقلي بالدهن الحر والخبز المداف بماء الباقلاء؛ ذاك الذي كان يقدِّم في سبعينات القرن الماضي يوم كان شاباً فطور الصباح بنشاط

مثير صار يقف وحيداً بانتظار زبون. كان رواده يأتون على دفعات.

فمع أولى لحظات الفجر تأتي دفعة الجنود الذين عليهم التواجد في وحداتهم العسكرية القريبة أو أولئك الذين ينطلقون من كراج العلاوي إلى وحدات تحيط بالعاصمة؛ تليها دفعة عمال وفراشي الدوائر الحكومية الذين يسبقون الموظفين لتهيئة أقسام وأجنحة دوائرهم؛ ثم تأتي دفعة الموظفين وبعضهم من كادر المتحف والمعلمين والمدرسين المترفين ليتحركوا غب تناول فطورهم الى دوائرهم ومدارسهم.؛ وكان هناك المارة الذين يجدون فيها فرصة لتناول فطور في الهواء الطلق على مناضد تحتل الرصيف وهي تعرض مُقبّلات المخللات والخضار: كرفس ورشاد وشرائح بصل وحبات زيتون.

لم يكن ابو ستار يدير المطعم لوحده إزاء العدد الكبير من الزبائن إنما جعل عاملين يساعدانه إضافة إلى الصبي ستار، ابنه البكر، كان هذا يتولى تقطيع الخبز وتجميعه في الصحون ورصفها عند يدي الأب اللتين تنهمكان في سكب ماء الباقلاء الأحمر الساخن ثم حبات الباقلاء بعد نزع قشرتها السميكة، ومن بعدها الدهن الحر الساخن، ثم يفرش البيضة المقلاة وهي تفح رائحة يسيل لها لعاب من

فتح الشهية وندهت عليه المعدة لإشباعها... اليوم لا عمّال معه تخدم الزبائن، والابن البكر يرابط جندياً مُساقاً في واحدة من نقاط القتال ينتظر الموت المحتَّم.

أدار رأسه يساراً يطالع شارع الصالحية الذي يقود لمبنى الإذاعة. أبصره هو الآخر مهجوراً..

تأتيه رائحة الدخان المتعالي من أطراف المدينة، رائحة بارود محترق لملايين القذائف الذكية والبليدة تلك التي تخطئ الهدف فتصنع ملحمة دماء تتناثر على مئات الأمتار من أجساد أناس ألفوا أنفسهم يحيون في مرجل عذاب لا ينتهي وتحت حجر طاحونة عسف تسحق لهم عظام أي أمل في حياة وديعة وبسيطة.، رائحة المصانع المتوقفة لما يربو على العشرين عاماً بلا مواد أولية ولا معدّات إدامة، رائحة المزارع الجرداء جراء سَوق الشباب لمحرقة الحروب المتعاقبة وتقهقر النهرين العظيمين دجلة والفرات ونضوب مياههما الغرينية العذبة، رائحة الضجر المتصاعد مع زفرات صدور فتكت بها الأمراض والعلل ونفوس آلمها عدم تلبية رجاءاتها للسماء كي تنقذهم من الهول القاهر المتجسد حصاراً بغيضاً وسلطة لا ترعوي في محق البلد بما فيه، رائحة الصحراء التي شبعت من القذائف المشعة المنضبة باليورانيوم والالغام المتحينة فرصة انفجارها بأجساد أبرياء لا يعرفون في حياتهم

غـير الجِمـال والشـياه وملاحقـة المـاء والكــلأ، رائحـة مـن هناك، رائحة من هنا. وهو المتسائل بمرارة وانشداه: ما الـذي جنــاه هــذا الــوطن الحنــون ليتربــع علــى صــدره العتــاة والمجرمون، ولماذا تطول أعمار الموتورين وعشـاق الـدم؟!.. أمـا آن لمواطنيـه (يطـأطـىء رأسـه ويتمـتم بعـذاب) أن يهنـأوا ولـو قرناً، أو عقداً من السنين؟

في العقـد الماضـي، عقـد التسـعينات المريـر، وفي سـاعة صـباح أولى ليـوم مـن أيامـه حيـث انطـلاق المـوظفين صـوب دوائرهم والعاملين نحو ميادين عملهم أبصر مخالب الحصـار المقيت تخدش جباه الرجال، تنغرز في خدود النسـاء الحاثـات الخطى نحو أماكن أداء واجبهن المجبرات عليه كي يديمنَّ بقاء أسرهنَّ في تماسـك وتواشـج ووئـام. أبصـر تمزّق حقائـب بنات المدارس وتقطع أشرطة شعورهن، والبنات بإصرار على حيـازة المعرفـة يـتحملن رداءة المظهـر ويتجـاوبن مـع قلـة حيلـة الوالدين، .أبصر تمزّق صفحاتِ كتبٍ يحملها تلاميذ وطلبـة تخلّوا عن الحقائب عندما ترجموا معاناة العائلة إزاء معركـة إنسـانية كـان فيهـا العراقـي أعـزلَ إلا مـن تصـميمه علـى البقاء وسـط شماتـة الأخـوة المتحـالفين مـع الأعـداء ولامبـالاة الأقربـاء العـائمين في نهـر الرفـاه.. أبصـر عجـوزاً آثـر البقـاء حسن الهندام رغـم حاجـة بدلتـه الإفرنجيـة للغسـل بالصـابون

ومكواة تزيل التكسرات وتخفي ما هو مدعوك فيها.

امرأة أربعينية جنوبية أبصرها موحلة العباءة رسم لفح الزمن لطخاته على وجه يشي بعز تقهقر تحمل فوق رأسها طستا جمعت فيه باقات من خضروات قطفت عند الفجر: كرفس ورشاد ومعدنوس ونعناع و سبانخ ما ان ترى تجمع حتى تتوقف فتُنزل الطست ارضاً داعية المارة والمتوقفين الى شراء بضاعتها الطريّة، الطازجة. قليلا وتحمل طستها من جديد متحركة لمكان آخر بعدما ترى قرينةً لها تحمل نفس أنواع الخضار تهم بتجاوزها والوقوف عند تجمع آخر. ابصر صِبية يحملون صناديق كرتونية فيها علكة رديئة الصنع ومعجّنات اردأ تبارى المصنعون اعتماداً على مواد أولية رديئة هي الأخرى على إنتاجها وجعل الصبية يلفون الشوارع والأزقة لبيعها. يندس الصغار بين التجمعات البشرية ويتقاطعون في ما بينهم، وبتوسل مرير يثير العطف يدعون من يقفون عنده للشراء. يتعاطف البعض معهم فيدفعون بعملة نقدية دون أخذ ما يقابلها.. سمع رجلاً غاضباً يلبس الجراوية والصاية البغدادية يكلّم صديقاً يرتدي ثوباً ابيض وعقالاً أسودَ مع كوفية بيضاء: لقد خدعني الكلب.. باعني كيس طحين اكتشفنا في البيت نصفه التحتاني مسحوقاً ابيض، كان جصّاً.. تصوَّر بلغ الغش في ضعاف النفوس والمجرمين

ان يضعوا الجص بدل الطحين. وبغضب بالغ واحتقان يبرز الرقبة حمراء يواصل.. سأبحث عنه حتى أجده. سادسٌ وجهه في الجص الذي أغراه في خداع الناس وسرقتِهم في زمن صعب يفترض تكاتف الجميع من اجل تجاوزه.. يهز الرجل الثاني رأسه تعبيراً عن أسف ومرارة، ثم كأنه يكلّم نفسه.. ماذا فعل هذا الحصار اللعين. يتوجّه بكلام مسموع لصاحبه: الناس يا أخي باعت الضمائر وداست على الإيمان وتخلّت عن الدين.. يهز المخدوع رأسه.. غضب اللّه قادم. لن يرعوِ هذا الشعب من عقاب اللّه.. انظر! أهكذا هي بغداد؟ أهكذا تكون عاصمة البلاد؟.. أتحسب هذه عاصمة، العاصمة بمثابة قلب البلد ومرآته العاكسة في نفس الوقت؟!.. أي تدهور نحن فيه؟

لقد كان الرجل محقاً وهو يتكلم وعيناه تكادان تنتفضان بالدمع. فتدهور المدن يقاس من تدهور خدماتها، من تجاهل أهلها، من الأرصفة تهمل وقمامة تتجمع عند مداخل الأزقة ونهايات الشوارع، من تقاعس الإنسان برمي ما بيده في الطرقات دون تكليف نفسه بوضعها في الحاويات المخصصة لجمع الازبال والنفايات.. لم يعد الترف سمة يتباهى بها البغداديون. لم تعد العطور تتدلع من ملابس الفتيات والنساء البغداديات المكوية، والألوان الضاحكة

ترسم وجودها كحلا في المقل، وروجاً في الشفاه. لم تعد الخدود تعلن حمرتها، سواء من يناعتها أو من احمر خدود اعتدن وضعه كهوية للرفاه وإعلان للبهرجة.

مَن يصدق أن بغداد المنصور المدوَّرة تُترك مكتوفة اليدين، خاوية، ومتهالكة، وموحشة؟!.. مَن يضع في حسبانه أن حسناء الرشيد تتقرفص على نفسها أسيرةً، عليلةً، ذليلةً، بائسة؟!

شارع الصالحية يُظهر خمسة محلات موبيليا متفحمة بفعل شظية متوهجة انفلتت منتصف ليلة البارحة من قذيفة بصقتها الطائرة على مبنى الإذاعة لتخترق نافذةً خلفية لمحل موبيليا. الشظية الحمراء المتوهجة احتضنها سرير ملوكي كان مثار متعة مخطوبين سعيدين جاءا قبل أيام صحبة أهليهم ليختاروا أثاث غرفة عرس لكنهم برحوا المكان وفي نفوسهم حسرة أنْ لا تحظى غرفتهم بالسرير المتميز، إذ وقف سعرٌ سمعوه ينسكب من فم صاحب المعرض سدّاً منيعاً لتجسيد حسن ذوقهم. حسبوه باهضاً لا قدرة لهم على شرائه في زمن حصار بغيض وجائر... توالد دخان وارتفعت رائحة حرق خشب. لم تكن إلا عتمة مهيمنة وصمت كاتم، ناهضهما فجأة ضوءٌ بزغَ من مسند السرير، جهة الأقدام. ضوء أصفر تفرقَع بعد هسيس صبغة الدملوك والثنر الملمّع.

من أين جاءت لطمة هواء أججت الذبالة الصفراء المشوبة بدخان أبيض فجعلت شعلة ترتفع. وبفعل تفرقعها جعلت ذؤابات نار تتساقط على حشوة قطنية تشكّل فراشاً وضِع نموذجاً كي يغري أيما خطيبين حال مطالعتهما له فيروحان يتخيلان انهما ينامان عليه لينعما بليلة زواج لا تنسى. الحشوة القطنية أنتجت دخاناً ثقيلاً وكثيفاً؛ والشظية الكبيرة الفاحمة التي اخترقت النافذة فعلت فعلها في جزء آخر من السرير. فتكت بأسفله، عند قائمتيه الخلفيتين، فتوهج المكان وعلا ضوء واضح كشف معروضات المحل جليّةً. عرضت مرايا الهياكل الخشبية المتخذة أجزاء جمالية في واجهات الكناتير، وصدور الأسرة، وقامات ابو تواليت عُرسَ النار ورقصتها التدميرية. وبلحظات كان جنون اللهب المتفجّر ينتقل من سرير إلى كرسي، إلى كنتور، إلى أريكة، إلى دولاب، إلى طقم مطعم بمنضدته وكراسيه فيستحيل المكان ثورة هائلة من نارٍ ودخان، وهسهسة، وصفير لهب صاحبها تحطم زجاج المرايا وزجاج شفاف يكوِّن قواطع وواجهات عرض، وسقوط هياكل، وتهشم سقف ثانوي بما يضم من قطع زخرفية ونقوش ومصابيح كانت تبعث ضوء عرض الجمال وبيان السحر... حدث وسط غياب أُنسي يفترض به التحرك لإيقاف بانوراما

الدمار. هذا الغياب أوجد فرصة أن تتطاول النار إلى محل آخر لبيع موبيليا آخر، وآخر، وآخر.. واستمر التطاول حتى بعدما انتهت الغارة وتوقف سيل دمار آخر انهال على القصر الجمهوري أيضاً. الهدف الخاص الذي نال القصف المهول منذ بدء الحرب. ما مرَّت ليلة الا وكان لبناية أو درب أو شجرة أو نقطة عسكرية فيه نصيبٌ من القذائف.. لم تكن ثمة أصوات تنبئ عن قدوم سيارات إطفاء الحرائق ولا عربات الإسعاف؛ فقد احترق صف محلات الموبيليا الخمسة واستحال كلُّ شيء إلى رماد ورائحة حرق.

المكتبة

اليوم، وعلى إيقاع رفل حرية، وشعور بطلاقة خرافية وهبتها له الآلهة السابحة في فضاء المكان تحرك وفي داخله شعور أن يتابع ببطء وتملّي. لن يترك رقيماً أو لُقية أو منحوتة أو مصوغة إلا وتوقَّف عندها يطالعها باهتمام. يريد أن يعيش تفاصيل حياة اناس دخلوا الدنيا بوعي محدود ولكن بكون مطلق لا حد لألغازه وأحاجيه، ولا خطو واحد لمساراته ودروبه.

تحرك يقطع درباً توزعت على جانبيه تماثيل حجرية. خمسة عشر متراً من ختم القدمين على البلاطات الإسمنتية

وضعته عند باب عريض ولافتة تحمل اسم (مكتبة). كانت قاعة القراءة واسعة. لم تكن مقتصرة، كما يبدو، على مطالعة موظفي المتحف وكادره المعرفي إنما هي تستقبل قرّاءً من خارجه: باحثون ومنقبون وأكاديميون تدفُعهم، للمجيء قصد القراءة او الاستعارة، حاجةُ الحصول على مصدر ثمين يتعلّق بحياة أمم صنعت ابتداءات حضارة بشرية ما زالت مليئة بالألغاز والأسرار غير المُكتَشفة.. رفوف متعالية صاجية بلون بني لامع تضم كتباً ومجلدات، مخطوطات، مجلات دورية وصحف يومية.. تطلع دهِشاً، وأفرد قلبه اتساعاً. يرى نفسه في بستان معرفي مترامي الجوانب، وثمار علمية يانعة تتدلّى من أشجار تاريخ لا انتهاء له. شاهد ملصقاً فيه رقيمين طينيين بخط مسماري. أسفل الملصق كُتب باللون الأخضر الموشّى بالأصفر (مكتبة آشور بانيبال)، وسطران يشيران الى قداسة الاحتفاظ بالكتب وجعل الآلهة تصب لعنتها على من يعامل الكتاب معاملة سيئة فلا يعتني به ولا يعيده لحاوياته مثلما يعاقب مَن يسرق الكتب أشد العقاب. الرقيم الثاني في الملصق لفت انتباهه بعدما قرأ ترجمة الرقيم الأول تنطقُ فقرةً من مسلة حمورابي: "لو أنَّ رجلاً استدان ثم أغرق آدا (إله العواصف والمطر) حقله، أو جرف سيل (التربة)، أو لم يُسبل الزرع

بسبب شح الماء، لا يدفع السنة حبّاً لدائنه؛ تشطبُ الشروطَ المكتوبة على لوحه ولا يدفع فائدة ذلك العام." تفرّس في الرقيم الثاني فكان لنظرية وضعت في ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد وتعرض مثلثين قائمي الزاوية أُعتُمِدَ في برهانها على رموز جبرية تشابه نظرية إقليدس التي قُدِّمت بعد قرون من هذا التاريخ.

شاهد كتابين عند منضدة خشبية. المنضدة تخص موظف الاستعارة والاستلام. خمّن أنَّ مستعيراً أعاده قريباً، وفرَّ الموظف مع مَن فرَّ بفعل غارة الصباح قبل إعادته إلى مكانه المعهود على الرف حسب تصنيفه وتسلسله. الكتاب حمل عنوان (الحضارات السومرية القديمة) قلب صفحاته. كان مؤلفه "سبتينو موسكاتي" أشار بالاستهلال إلى أنه قدمه لطلاب المعرفة الايطالية عام ١٩٤٩، والى الانكليزية من لندن عام ١٩٥٧ فيما الكتاب الثاني (الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور) لجورج كونتينو.

لم يكن المؤلفان عراقيين إذاً، قال في سره. الأجانب سبقونا في البحث عن ارثنا. كتبوا عنّا وقدموا للأمم حضارة إنسانية جرت على أرضنا تُلفت الانتباه وتُثير رغبةَ التعرّف عن حياة منتجيها: أين عاشوا، وكيف فكَّروا، ماذا صنعوا، وأي شيء أنتجوا.. تذكَّر وقوفه أمام هيكل

الثور المجنح في المتحف البريطاني. صورة التقطتها له جوليا ولما تزل غارقة في انبهار دقة نحته وجمال طلعته. قالت له وهي تمرر أصابعها على الرخام الأخضر الفاتح: أي فنان حاذق ذاك الذي كان يمتلك ذكاء العقل ورهافة الحس وسمو الموهبة بحيث جمع رأس إنسان شامخ وجسد ثور قوي وجناح طائر يافع؟! لم تُبدِ اندهاشاً عندما قال لها إن منتج هذا الخلق المذهل لم يعش قبل عقدين او ثلاثة أو حتى عشرة عقود من السنين بل قبل ميلاد المسيح بأربعة عقود إنما قالت: "لا بدّ أنه كان عصراً ذهبياً وحياة تعج بالسعادة.". جانبها الرأي، قائلاً: "لا يمكن الحكم على أن هذه النماذج تعكس عصر سعادة وابتهاج يعيشهما إنسان جغرافية بلاد ما بين النهرين.".. هي تمثل فخامة عيش الحاكم كوجهٍ فيما الوجه الآخر يكشف بطشه ودمويته وحبه للانتقام لمن يخالفه في الرأي والاعتقاد. أمّا الأعداء فنصيبهم عنده المحق بلا رفّة جفن.. ابتسمت بشيء من عرض الحال، وقالت: جميع شعوب الأرض مرّت بمسلسلات الدم والانتقام.. هذه سجيّة البشر. نزعةُ الشرِّ كامنةٌ في اعماقهم لم تكبحها ولا ألجمتها أديان السماء المتوالية.

مرَّ على رفٍّ متعالٍ صفّت عليه مجلة (سومر). كثيراً ما كان يشاهد الإعلان عن إصدار إعدادها في الصحف

والمجـلات. ورفّ مجـاور أشـارت قطعـة ورق ورديـة (رسـائل وأطروحـات) تراصفت علـى قاعدتـه مجلدات سـود. سـحب واحـداً منهـا فقـرأ بخـط ذهـبي لامـع "الآكـاديون بـدوٌ رحَّـل" رسـالة ماجسـتير، ومجلـد آخـر بنفس اللـون عنوانـه "سـرجون الآكـــادي.. والإمبراطوريـــة متعـــددة الاثنيـــات" أطروحـــة دكتوراه.

جناح مجـاور يأخـذ ضلعـاً مـن حـائط المكتبـة ضـمَّ رفوفـاً عديدة حملت عنوان (تراجم). سـحب كتابـاً قرأ علـى حافتـه: " THE ASSURIAN AMPIERER- A BOOK OF ANIENT AGES الإمبراطورية الآشورية " كتاب العصـور القديمـة لـ د. جيمس هنـري براسـتد. سـحبه كـان الغـلاف متهـرئً. عـزا ذلـك لاسـتخدامه المتعـدد كونـه يتمتـع بأهميتـه وقِـدَم تأليفـه. فقـد صـدر في العـام ١٩٢٦ وتولّـت "المطبعـة الامريـكانية" في بيروت إصداره.

قضـى الضـحى يقـرأ ، تضـمّه المكتبـة يسـحب كتابـاً فيقلّبـه، فيعيـده. ثـم يسـحب آخـر ويعيـده. يسـحب، ويقـرأ ، وسـط فضـول جـارف يحفـزّه للقيـام بجولـة في القاعـات واستطلاع المعروضات. يعود الى غرفته، يصنع شـاياً يرتشـفه علـى مهـل. يسـمع رشـقات رشـاش مـن بعيـد وهـدير طـائرات يدوّم في السماء ثم رويداً رويدا يتلاشى. يسمع مدرّس التاريخ

في مرحلة الصف الأول المتوسط، ذلك القصير الممتلئ، يردد " المكانة المرموقة في تاريخ التطور الحضاري للإنسانية يعود إلى مواقد الحضارة ذات القيم العظيمة التي ظهرت في بلاد الرافدين التي سكنتها أقوام وحكومات مختلفة – السومريون والبابليون والآشوريون.. هنا على ارض العراق المعاصر ظهرت واحدة من أقدم مدنيات العالم، هنا وضعت أسس الرياضيات والفلك هنا ظهرت الملاحم والأساطير، هنا شُيدت أعظم النصب المعمارية والفنية "[[تاريخ الفن القديم، تأليف د. شمس الدين فارس ود. سلمان عيسى الخطاط]].." آآآآآ! أتذكَّر الآن ألواح الموزائيك المستطيلة المطعمة باللازورد والصدف الأبيض في المعرض السنوي لمدارس المدينة، تلك التي عملها معلم درس "الفنيّة" لإحدى المدارس الابتدائية المشاركة. كانت المعروضات اعمالاً مستنسخة عن ألواح حقيقية أنتجتها ذائقة الفنان الآكادي البارع في أور العام ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وتظهر إحدى الحملات العسكرية لسرجون المطيح بمكانة لوكال زاكيزي ومملكته، والباني أول دولة بالمتعارف عليها اليوم بالدولة بعدما كانت مدناً وقرى وتجمعات بشرية مبعثرة.

ومع انه انبهر بالعربة الملوكية وملك أور الذي يقودها إلا أنه تأسّى لمرأى الأسرى المهانين، المقيدين بعد حملةٍ قال

عنها المعلم الفنان أنها إحدى الحملات العسكرية التي عادةً ما تنتهي بالقتل والدمار واستباحة المقدسات وجلب الأسرى.. كانت نظرات المعلم تسكب أسى وهو يشرح لنا ونحن نطالع إبداعه الرائع: قصدت من تقديم هذا العمل القول ان الإنسان يبقى معذباً ليس من قبل السماء بل من أخيه الإنسان مثلما قصدت إظهار أن ثمة روحاً يحب الجمال ويسعى لعرضه من خلال عمل ذلك الفنان الملتهب موهبة بصنعه هذه النتاجات بفنية عالية ترقى لمرتبة آلهة ربما كانت لا تتمتع بقابلية وموهبة هذا الفنان.. المؤلم أننا لم نر بعد ذلك اليوم المعلم الفنان، فحين توجهنا شغفين في العام القادم لما سيقدمه في المعرض أُعلمنا بهجرته إلى ايطاليا بغية إكمال دراسته في فن النحت".

يتذكّر ذلك السائح الأشقر ذا العينين الزرقاوين وبشرة الوجه الملفوحة بشمس آب، وبنطلونه الكاكي الذي يعلو ركبتيه ويحتذي حذاءً يشبه أحذية التدريب لدى الجنود عندما اقترب منه ومن معه من صبية يوم كانوا يتجولون في سوق المدينة ؛ ينظر إلى خارطة بيده ويسألهم بلغة انكليزية كيف يصل الى اوروك. لحظتها فرحوا لهذا القادم من أماكن مجهولة يسأل عن ارث لهم مُهمل ومتروك للعبث. تناهضوا ليقودوه لصوب المدينة الصغير حيث يمكنه صعود

الباص الخشبي مع الريفيين القادمين صباحاً للتسوق ثم العودة الى قراهم بعد الظهر. فنهاية خط الباص لو استقلّه يجعله على بعد كيلومترين يمكن قطعهما سيراً على الأقدام وصولاً لمراده ومراميه. ساروا معه وكان يبتسم لهم ويشكرهم ويؤشر لهم بيده على انه يسعى لتأليف كتاب عن حضارة أورورك.

لابد انه تخيَّل الوصول سهلاً ويسيراً، وحين يدرك موقع الآثار سيجد فندقاً فارهاً بخمسة نجوم يستقبل السائحين القادمين للتفرج او المعرفة، وطرقاً معبدة، وحافلات سياحية تقدم خدمات تليق بعظم المكان وأهميته التاريخية، وهيبته.. تقافزوا فرحين، وتضافروا يشرحون بالإيماءات والإشارات عن المكان، وكيف انهم ذهبوا إليه أكثر من مرة في سفرات طلابية، وكان هو يبتسم ويظهر ابتهاجه بهم وإظهار فهمه لهم عندما أوقفهم رجل أربعيني صارم؛ حاول أن يبدو ودوداً معه بينما تلفظ بكلمات خشنة وتحذيرية معهم، طالباً تركه وإلا سيتعرضون للحبس. لحظتها بهتت عيونهم وهجمت الصفرة تكتسح وجوهَهم.. خائفين، وجلين انسحبوا.

خلَّفوه للرجل يقوده إلى حيث لا يعرفون. لكنَّ الآباءَ وبجزعٍ يقرنه اهتزازُ رؤوس أعلموهم انه رجل أمن. وسلطات

حكوماتنا تتطيّر من الغريب المتحضّر وتخشى الصحبة البريئة وتقديم الخدمة الإنسانية.

المكتبة.. الكاتدرائية

عصر السابع من نيسان؛ أمام التقويم امسك القلم. رسم دائرة هذه المرّة حول رقم سبعة ولم يشطبه. اعتبره يوماً لم ينته بعد، ثم راح يخطو حرّاً بين القاعات. يجتاز الممرات مستأنساً. أمامه سجلات الشُّعَب ومحتويات المكتبة. تطوف عيناه. يدور جسده. نظراته تمسح جدران القاعة وفضاءها. تطالع السقف.. "أنا الآن أشبه بكواسيمودو بطل احدب نوتردام المتوحد مع شيئيات كنيسة نوتردام."، صار يتأمل.."هو قارع ناقوس وأنا قارع زمن.. هو يعشق ايسميرالدا وأنا أهيم بهبةٍ قادني إليها القدر لتكون عشقي الذي أتمنى وكعبتي التي أروم عدم مفارقتها.. هو ميدانه الكاتدرائية فهي تاريخه وذكرياته وأنا ميداني هذا المتحف بقاعاته وأروقته، وهذه المكتبة المتجسدة إرثي المكنون وثروتي الظاهرة.. بتُّ شيئاً فشيئاً أتعلق بالمكان.. تضاءلت رغبتي في مبارحة هذه الكينونة الجوهرة والتوجه إلى مدينتي.. صارت رغبة تحركي في القاعات وتجوالي بين الكتب كرغبةِ وولعِ مُنقّبٍ وجد نفسه أمام كنوز لم يَحسب، ولا في

الخيال، أنْ سيلج مضمار إبهارهـا.. تشـكّلت ألفـة لا تسـعها حـدودُ لهفـتي ولا تقـدِر تهافتـات الكلمـات علـى وصـفها.. لم أعُـد آبـه لقصـف ودوي يحـدث طـوال يـوم العاصـمة بقـدر مـا يهمني أن لا يتفاقم الحال سوءً فيقصـف هـذا المكـان فتـدمر ثروته فأخسر اشباع الفضول في حيازة المعرفة.".

قطع الممر شبه المعتم بعدما جعل عينيه تقرآن الكلمات الدالـة علـى الشُّعب والأقسـام.. لا شـيء غير الصـمت.. صـمت يحكي دهوراً عاشها أناس جاءوا إلى الحياة؛ كلٌّ له نصيبه الذي لم يحسـب. فهذا جاء ابن إلاهٍ وذاك جاء ابن كـاهن.. ذاك ابن تاجر، وهـؤلاء أبنـاء مـزارعين.. أولئك جاؤوا عبيـداً رعاعـاً يبـاعون ويشـترون كمـا تبـاع الأكبـاش. هـذه زوجـةٌ سترمى في النهر لأنها كثيرة التطواف ما تسبب في إهمال بيتهـا والحـط مـن زوجهـا. وهـذا حـلاق قُطِعـت يـده لأنـه أزال شارةَ عبدٍ دون عِلمَ سيده وبات من غير الممكن التعرف على العبد وملاحقته إن فر".. هذا حُكم بالموت لأنـه "أخفـى أَمـةً ولم يظهرها حين نادى المنادي" وفق شريعة وضعها القائل عن نفسه "أنا المستغرِق في الحكمة المتحمّل لمسؤولية الحكـم، أنا مَن اكتسبَ الحكمة من منبعها (...) أنا مـن وحَّـد شـعبه وقت الشدة، ومن لُطفهِ أصَّلَ جذورهم في بابل."

وتخيَّـل المكـان يعـجُّ كـل صـباح بـالموظفين والعـاملين

والمراجعين.. انه يعيش خلوة يعمُّها استقرار داخلي وطمأنينة تشيع في دروب الروح. تتجلّى أمامه الحرية فتاةً تطلق من عينيها فراشات الألوان المبهجة لترسم له عالماً خالياً من مخالب بشر تشوِّه وجه الجمال.. عالم الزمن المتجسد في هذا الحيز المكاني يوارب أبوابه. يقول: "تعال!"... عصفورٌ هو الآن في فضاء زمن رحب؛ ومكان مستعد للتحدث والتحدث مقرون بوسائل إيضاح لا حصر لها ، وأمثلة يقينية لا تنبني على أساس الخيال... دخل القاعة السومرية ، ثم انتقل إلى ما احتواه جناح العهد الاكادي، وانتهى إلى حضارة بابل، ثم دخل على فناء الزمن الآشوري. عيناه تتنقلان، والروح سفينة تبحر في محيط يصنع دهشاً وجذلاً وانبهار.

رأى جراراً وأوانٍ من ذهب، وأوانٍ كذلك من فخار تحلّيها وتطعّمها ألوان ونقوش لميعة؛ أختام اسطوانية ومنبسطة مصنوعة من حجر العقيق واللازورد والدم واليشب والحيّة؛ رُقم طينية مدونة بخط مسماري؛ دُمى طينية وعربات برونزية وعاجية؛ لبوة جريحة وأسد مطعون بسهم؛ ألواح مطعمة بالموزائيك واللازورد والأصداف وألواح نذرية كلسية؛ أفاريز من الصدف والحجر والنحاس والخشب لمعابد وقصور؛ حُلي نسائية جيء بها من مقابر ملوكية؛ مَسلات تحكي بطولات وتعرض آلهة لعلَّ مسلةَ صيد الأسود

كانت أبهاها؛ قيثارات جمّلها الصدف وأحسن صناعتها الفنان المرهف؛ مصوغات ذهبية بقلائد وأقراط ومعاضد؛ كؤوس ذهبية وفضية ومعدنية؛ خناجر قبضاتها من ذهب مُطعَّم بعاج ولازورد؛ هياكل رخامية وبازلتية بهيئة ألواح كبيرة ترتفع لثلاثة أمتار وأبعد؛ جدران مطلية بدهانات مزججة تعرض رسوماً لملوك وآلهة وفعاليات طقوس ومراسيم دفن؛ منصّات لعروش ملوكية ومسيرات لأناس يحملون العطايا ويقدمون الهبات؛ نماذج لمعارك طاحنة بسيوف وسهام ورماح وعربات وأسرى وقتلى وممتلكات منهوبة وثروات لآلهة طعنها مٌحتل أقوى منها واقدر على اذلالها جيء بها كغنائم حرب وشعار نصر. رأى نماذجَ لرجال ونساء ينتصبون وقد ضموا الكفوف الى صدورهم دلالةَ الخشوع والتعبّد فتذكّر أنَّ المصلين من المسلمين يضمون الكفوف أيضاً؛ تماماً مثلما يشاهده في هيأة هذه التماثيل والمنحوتات.

رأى تماثيل من رخام وكلس: تلك لجوديا ، وذلك لجلجامش، وتينك لسرجون، وهاتيك لحمورابي، وآخر لآشور بانيبال، وآخر لآشور ناصربال، وآخر لشلمنصر، وآلهة اتخذت اشكالاً وهيئات.. آنو إله السماء.. انليل إله الهواء.. أنكي أو أيا إله الأرض.. أدد إله الطبيعة (الأمطار والعواصف).. نسكو إله النار.. مردوك مُبلغ السيادة...إلى

جانب ذلك رأى الشياطين صاحبة الأرواح الشريرة، تلك الصاعدة من بطن الأرض أو العائدة للذين ماتوا ولم يُدفَنوا في قبور فظلّت أرواحهم هائمة؛ لا يهدأ لها بال حتى تنتقم بالهجوم على البشر والتسبب في إحداث كوارث مهولة تهدد بالفناء. عرضت إحدى اللقى صورة مفزعة لشيطان الحمى. افتك الشياطين وأشدّها هولاً. كان برأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط، يمسك بيديه أفاعٍ ضخمة ويداعب ثدييه كلبٌ اسود وخنزير.

شاهد الكاهن المعوِّذ آشب ومعه رهط من الكهنة يحيطون بمريض مُلقى على سريره. يتصدّى الكاهن لآشكو شيطان الرأس الذي يدوّم في دماغ المريض فيخلق صداعاً يرعبه وأهله ويجعل كلَّ من يعرفه من الأقارب والأصدقاء يتطيّرون قلقاً وشؤماً. يقرأ آشب سوراً من التعاويذ عند رأس المريض فيشاهَد الشيطان يولّي هارباً في البريّة بحثاً عن رأس يقيم فيه.. رأى الواحاً طينية مفخورة، عليها كتابة مسمارية انبأته الكلمات البيضاء المطبوعة على قطعة معدنية سوداء إنها تخص أسطورة أدابا.

ولما كان يجهل هذه الأسطورة برمّتها فقد عاد مسرعاً إلى المكتبة. فتح كتاب الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور وقلب صفحاته حتى وجد نفسه عند الصفحة ٣٤٦ وعنوان

كبير يشير إلى (أدابا وأتانا)، فشاهد أدابا على ظهر زورقه يمخر عباب الفرات وقد رمى شبكته في النهر. اجتاز أرضاً مزروعة بالخس والملفوف، وأخرى تظهر حبّات اللفت والشلغم من تربة محاذية للشريط الرملي الذي ينتهي بالنهر. اعتلى جذع شجرة توت ضخم ممدود وغاطس ثلثه في طراوة الرمل. كوّر كفّيه حول فمه وناداه:

- ستكون ما في سَحبِ الشبكة من حصتي.. انا ادفع ثمنها... سمع أدابا مَن يكلمه عند الضفة فتفرّس باهتمام:

- مَن أنت؟ تبدو غريباً بملبسك وكلامك؟ أأنت من عيلام أعدائنا أم من أكد حلفائنا؟

- لا يمكن الا أن أكون من حلفائكم.. ماذا تفعل؟ ألا تمنحني سمكة اشويها هذا اليوم وأتناولها. لقد اشتقت لتناول السمك؟

- ما اصطاده ليس للبيع إنما لمائدة الآلهة في المعبد.

- هل تعرف أنني كنت سجيناً وهربت من السجن؟!

- السجناء لا يتطلعون إلا للهرب والبحث عن الحرية.. ما تقول ليس غريباً.

بعث بنظراته من فوق زورقه نحو الجنوب ثم شرع يسحب شباكه بهمّةٍ ويدمدم: اللعنة.. اللعنة.. إنها قادمة.

من حافة ضفة النهر صرخ يستفهم:

- من هي القادمة؟.. ولماذا اللعنة؟

- ريح الجنوب... ستقلب زورقي وتحرمني من صيد تنتظره الالهة غداءً لها.

لحظات؛ وتغيرت معالم الطقس.. جاء الهوج، وتلاطم الهواء. ترمَّد الفضاء، وشاع لون التراب.. خفقٌ، وميلانٌ، وتبعثر.. صفيرٌ، ووشيشٌ، وهسيس.. قهقهاتٌ، واصطفاقات، وترنح.. والزورق في هذا الخضم يجاهد، وأدابا يصارع من أجل ان لا ينقلب زورقه فيضيع جهده، ويتبدد سعيه، وتُطمس كبرياؤه، ويعود خائباً إلى آلهته الجوعى.. كوّر قبضته لحظة ان تمايل الزورق وانكفأ منقلباً على المياه الهائجة ووجد نفسه يعوم في الماء، خاسراً، خائباً، منفعلاً ومحتدماً:

- اللعنة أيتها الريح. سأحطم أجنحتك وأجعل منك نورساً ذليلاً.

الغضب المحتدِّم والقَسَم الخارج من قرار الروح كسّر للريح أجنحتها فصمت كل شيء.. ساد السكون، وعمَّت في الأرجاء أبجديةُ توقّف النسمات.

وجد نفسه مع أدابا سبعة أيام يتوعَّد الريح إن قدمت مجدداً. صاحبه في حِلّه وترحاله. وكان الى جانبه حتى عندما غضب الاله آنو يوم افتقد هبوب الرياح وأُعلِم أن أدابا

كسر أجنحتها وتوعدها بالثبور إن عاودت هبوبها ، فطلب أن يمثل أمامه.

خاطبه متسائلاً: كيف ستواجه الإله آنو وتتجاوز غضبه وحكمَه؟

أجاب:

- الحكمة استلها من أبي أيا إله المعرفة؛ فهو يعرف كيف يوجهني فينجيني.

ذهبا سوية الى الأب الذي حذّرَ الابن من أنَّ آنو سيعمد إلى تسميمه بطعامٍ سيقدم إليه، وعليه حيال ذلك ان لا يتناول أيَّ شيءٍ يُعرض عليه.. بيد أن تلك النصيحة كلّفت أدابا خسارة نعمة الخلود عندما لم يتناول من الطعام الذي قُدم إليه. بعدما اقتنع الإله آنو بدفاع أدابا عن نفسه ورضي عنه وأراد مكافأته على حُسنِ الرد وقوَّة الدفاع.

كان اللوح الطيني الأخير يشير الى حالة ندم وجد فيها أدابا نفسه يُحرم من النعمة الأبدية.

أما هو فوجد في اللُّقى المعروضة بعد هذه الألواح دعوة لتطواف العينين مع شيء من الحنين لمصاحبة أدابا في رحلات الصيد دخولا للخلجان والأنهار ورسواً عند الضفاف وإرضاء شبع الآلهة من اسماك يصيدها يومياً.

أصوات رخيمة تناهت اليه متسللة من خلف باب عريض

يحمل لافتة برونزية حفرت عليها عبارة (العهد السومري). الاصوات تراغت غيمة لُهج انسانية ترتل بخشوع وتتعالى بتضرّع. دفع الباب فكانت "أور" مدينة نرام سين، وكانت مسلّة النصر نموذجاً عن الأصل المعروض بحفاوة في احدى قاعات متحف اللوفر يستقبل الداخلين. كان نرام سين بخوذته النافر منها قرنا ثور جامح، والقوس والسهم يحملهما سلاحاً فتاكاً اخضع بهما أقوام المرتفعات الجبلية شمال شرق المسيبيتيميا. انهم يصعدون الجبال فيرمون الرماح، ويطلقون السهام، وينهالون بالفؤوس على رؤوس الأعداء.

الإله شمش فوقهم يهيل عليهم مطر الضوء وشعاع البَرَكة ونسمات الانتصار.

الأميرة بو آبي تبتهج لمرأى الانتصار فتروح تعبُّ خمرةَ الهناء مَرَّة بكأسها الذهب المخروطي ومَرَّةً بالكأس الاسطواني، فالكأسان لديها أثيران يبعثان البهجة في دواخلها. بهما تتفاءل ومنهما ترتشف نبيذ الاحتفاء بالانتصار على الأعداء.

صندوق مُزجَّج، مستطيل بقاعدة حجرية بيضاء انتصبت عليها زهرةُ لوتس أبصره من بعيد. لكنه حين دنا وصار بمواجهته وحدّق في محتواه اعلمنه القطعة المعدنية السوداء التوضيحية انه "الإناء النذري" وليس كما تخيله من بعيد

زهـرة لـوتس. انـاء معمـول مـن حجـر الألبسـتر، وذا قاعـدة مخروطية. وجدوه في مدينة أوروك يحكي عهد ابتداء الألف الثالـث قبـل الميلاد. تـذكّر أن مـدرس التـاريخ في المرحلـة المتوسطة أخذ وقتاً طويلاً مـن الـدرس يشـرح لهم عـن موهبـة الفنان الذي صنعه وجعله يحاكي زهرة اللوتس في شكله.. " الفنـان، يـا أولاد ، قسَّـم الإنـاء إلى أربعـة أشـرطة تقطعهـا أفـاريز. تبـدأ قـراءة الأشـرطة مـن الأسـفل فتُظهِـر سـنابلَ وأغصان شجر فيما الشريط الثاني يقدِّم طابوراً من خراف وماعز مع صغارها؛ أما الثالث فطابور من رجالٍ أنصاف عـراة يحملـون بأيـديهم أوانـيَ وسـلال تملؤهـا الفواكـه ومنتوجات صنعتها أيديهم. وفي الصف الرابع يقدِّم الرجال الأنصاف عراة قرابين وهدايا للآلهة.".

ثم انتقل إلى عرض استخدام الإناء وأهميته: "لا اكتمال لطقس ديني ولا انتظار لهبة من الاله آنو إن لم يُملأ هذا الإناء بالبخور وأعشاب تظهر من أول زخة مطر على ربوع أوروك وبساتينها. يجمعها الرهبان وخدّام المعابد فيمزجونها بما تغدق عليهم الآلهة من بركات وما تفيض من رضا، ثم يعدّونها ليوم تجري فيه مراسيم العبادة وطلب حنو الإله. يتعالى عبق البخور وخليط الأعشاب بعدما يسقيهما الكاهن الكبير جمرات حمراء. تشيع في فضاء المعبد

رائحــةٌ تهمــي علــى محنيــي الجــذوع، مطــأطِئ الــرؤوس، مضمومي الأكـف إلى الصـدور ضـوعٌ يسـرعون في اغترافـه وملئ صـدورهم بمـا تتسـع منـه. فعبـق إلاهـي كهـذا ثـراء لإيمـانهم، ورواء لألفتهم، دواءٌ لعللهم، وطمأنينـة لنفوسـهم، وبركــات لخطــاهم، وصــون لعرضــهم، ومســار صــحيح لأولادهم، ورزق وفير لأعمالهم، وطاقة لا تحد لأجسادهم.

لــذا تبــاركوا بــه فجعلـوا في بيـوتهم نمـاذجَ مـن الأوانـي النذرية؛ يشبعون جوفها ببخور وأعشاب مـرت عليها أنفـاس الآلهـة. يشـعلونها فتعبـق الرائحـة في فنـاء الحـوش وفضـاء الغــرف. ينفخــون دخانهــا الأبــيض الكثيــف في الزوايــا والأماكن المهجورة حيث الشياطين لا مرئية تختبئ لائذة في العتمـة، تنتظـر حيـان فرصـةٍ لتغتـال طمـأنينتهم وتتركهـم مسلوبي العقول.".

يتأسى في داخله على الإنسان منذ وجد على الأرض وحتى سـاعة تفكيره اللحظـة. يسـترجع دوّامـات قلـق عصـفت بـه ودارت يوم دخل فسحة تأمل في سـاعة ضـجر رعـين مـن عمـر المراهقة بعدما طردته جنّـة الطفولـة ورمتـه مـن أسـوار هنائهـا العاليــة إلى دنيــا جديــدة. قالــت لــه الحيــاة انــك في بســتان المراهقـة الآن. هيـا انطلـق.. ابـنِ سـعادة خاصـة بـك كمـا هـم أقرانك مـن المـراهقين.. انطلاقتـه كانـت الإقبـال علـى قـراءة

الكتب بنهم، معتقداً ان الصفحات تشرع نوافذ لا حدود لها على بحار جذل، وأن الأسطر بتواليها الدائب من ورقةٍ لورقة تنتج عسلاً، وأن العناوين أشجار خرافية تهب المنّ والسلوى.. لم يدر بخلده أنها تفتح إزاءه دروب وعي مرير، فيروح يهيم في سبر أغوار ما حوله. يناقش ويساجل، يقرأ ويتأمل، يتساءل ويبحث عن إجابات مقنعة ومرضية عن سيل من الاستفهامات المتجيّشة عن الخلق والوجود. ثم يخرج بحصيلة أنَّ فكرةَ التحاور مع الذات بشأن الخلق والوجود شكلت همّاً مستديماً للإنسان منذ ابتداءات الحقب الغائرة في متاهات الزمن الغابر. وهذا الذي يحيط به يبصره مُلغَّزاً ومبهماً ومليئاً بالأحاجي.. إنسان الماضي على السواء مع إنسان الحاضر؛ لا يختلفان. كلاهما واجه جملة من متواليات غموض لا يعرف لها منتهى يرسيه على يقين يمنحه الراحة ويطعمه الاستقرار رغم تعاقب الأديان ومحاولة زرع الثقة في نفسه على أنها من فعل سماوي خارق يطمئنه عبر مغريات لا حدود لها تعرضها دنيا جميلة سرمدية وخالدة. وإلا ما هذا الجزع الذي يغمر قلب المُقبل على الموت، وما الدموع التي تسيل دافقة أمام مَن يراهم يحيطون به لتوديعه، الوداع الأبدي؟ ما هذا التوجّه نحو أداء طقوس أوجدها لتكون ممارسات وهدي وسلوكيات يتوخى منها كسب

رضا من حَسبه خالقاً له.. لكنه وأمام مغريات آنية لا يلتزم بها التزاماً صادقاً وصميمياً. ينسى أو ينتفض على فكرة الخلود الأبدي في جنّة هناء وسرور موعود بها. سريعاً يندفع إلى الموبقات والخطايا والآثام بمجرد أن تمد فتاةُ الطمع لسان غوايتها وتغمز له بعين المراودة؟

البستان.. وما بعده

من باب ضيّق ظهر له رجلٌ متوسط القامة ومربوع، بملامح جنوبية. رجلٌ حسبه سومرياً كشفته انعطافةُ درب من دروب أوروك لولا البدلة الحضرية بالسترة والبنطلون وابتسامة اتسعت أعقبتها كلمات ترحيبية.

خاطبه: أنا طه باقر كنتُ معهم، أصرف الوقت مترجّلاً في دروب أوروك بعدما مررت على أكد، وزرت مدينة آشور، ومررت بطريقي على بابل. تركت أستاذي الألماني روبرت كولفي ينقّب ويبحث ويكتشف الجنائن المعلقة في بابل ومعها قصور نبوخذ نصر وغرف القصور وفناءاتها. تركت الانكليزيين السير جارلس ليونارد وولي ومساعده ماكس مالوان في أور تحت لفح الشمس من أجل اكتشاف المقابر الملكية وخصوصاً قبر الملكة بو آبي. تركت رفقائي فؤاد سفر وفوزي رشيد وبهنام أبو الصوف. رأيتك في مكتبة

المتحــف منغمســاً تحــدّق في أســطر كتــاب الحضــارات الســومرية القديمــة فأتيــت علــى وقــع خطــاك لأصــطحبك. سأحكي لك عن سلالة حكام أوروك.. سأحدثك عن الملك الأول مســكياك كاشــر الــذي حكــم ٣٢٢ عامــاً، وأنمــر كار٤٢٠ عاما، وبعده لوكال بندا المقدس وحصته ١٢٠٠ عاماً، ثـم ديمـوزي الراعـي المولـود في أريـدو وكـان لـه ١٠٠ عام، وجلجامش ونصيبه ١٢٦ عاماً، ثم.... ".

قاطعــه عنــد هــذا الحــد. قــال: "ايهــا المنقِّــب الصــبور والمكتشف الحاذق انا جاسم شلال. كنت سجيناً في سجن مقــر الشــعبة الخامســة. كنــت في ليدز ادرس الماجســتير في أدب ألف ليلة وليلة. حصلت عليها بامتياز قبل التوجّه نحو الــوطن بنــاء علــى دعــوة القلــب ودفــع الضــمير لمشــاهدة أمــي المصــابة بســرطان الكبــد وترانــي قبــل رحيلــها الأبــدي. اعتقلوني حالما وطئت قدمي تراب بغداد. أذاقوني مُرَّ العذاب وقايضوا إطلاق سراحي باستسلام أخي سالم الذي يعيش منــذ عقــدين في ألمانيــا بــدعوى مناهضــته لنظــامهم ودوره النشط في الإطاحة بسلطتهم. عاقبوني بجريرة أخي ضاربين قول الله "ولا تزروا وازرةً وزر أخرى".. أنا جاسم شلال أيها المنقب العظيم. هربت، وهرب معي سجناء أبرياء. كل جمعةٍ يسحبوننا من الردهات العتيمة ويرمون بنا إلى ساحة المعتقل

المفتوحة على السماء والشمس الساطعة فيهاجم شعاعها الوهاج عيوننا؛ صانعة ألماً، ومظهرة لا جدوى من انكماشها المفاجئ. يتركون لنا خمس دقائق لغسل ما نرتديه من بدلة بقطعتين، وعشر دقائق للاستحمام ثم نعاد لنصرف سبعة أيام في زنازين انفرادية. لهذا كنا ننتظر إخراجنا لذلك الحيز من الوقت كي نتبادل الكلامَ على قلّته همساً وبطريقة البرقيات الخاطفة إذ الحديث ممنوع، والتواجد في الساحة تجاور وبلا اختلاط. الهراوات أنابيب مطاطية مليئة بالحصى ترتفع او تهبط او توضع تحت الإبط للحظات. عيون الحرس عدائية مركبة تتابع ما قد يخالف كلمات التحذير. سجين همس يقاربني العمر: أنا ضابط، اتهموني بنشر الشائعات والفوضى، ساقوني مغمض العينين ومكبّل من القاطع الجنوبي، حكموني بالإعدام. انتظر موتي الآن. آخر سألني: ما تهمتك؟ سياسة أم تجسس؟.. قلت: لا هذي ولا تلك؟؛ وأنتَ؟. همسَ برعب: تنظيم بخط يسمّونه مائلاً... في الجمعة التالية عرفت أربعة سجناء أوقعهم مُهرِّب يعمل للاستخبارات وعدهم بتهريبهم الى كردستان حتى إذا أدركوا النقطة الفاصلة بين القهر والحرية انقضت عليهم مفرزة مدنية. وبعد انتقالات متكررة من شعبة استخبارات لأخرى ومتوالية من تعذيب وحشي انتهوا إلى هذا السجن

بغيـة محـاكـمتهم.. وفي جمعـة تاليـة شـاهدتُ سـجيناً جزِعـاً. جزعـهُ أعلمـني باسـتدراجه لسـفارة العـراق في عمّـان بعـدما التقـى صـديقاً ولعـدة مـرات قـالوا لـه في نوبـات التحقيـق بعـد ترحيلـه إلى العـراق انـه سياسـي هـارب ينتظـر موافقـة اللجـوء لبلـد أوربـي وانـه يـزوده بالمـال باسـتمرار لحـين مجـيء موافقـة استضافته في البلاد البعيدة.

توقف منتظراً ما يعقب عليه المنقِّب.

حين قرأ الأسـى في عيني مستمعه وحـدس تقبلـه لكـل مـا قـال وأدرك معرفتـه بمعانـاة البشـرية منـذ اليـوم الأول مـن وجودهـا تجاوز الاستماع للرد ، وقال: "أغـدق علـيَّ أيهـا البهـي بكلِّ ما تجمعه جداولُك الدفاقة من معلومات، وافتح أبـواب ما في قصر معرفتك من غرف مـلآى بذهب المعرفة. أنـا ابـن أوروك؛ ومخلّفاتُها لا تبعد عن مدينتي سـوى مسـافة قصـيرة.. كـبيرٌ قصور مَن يتولون التعريف بالإرث، والمسـؤولية غائبـة ، يا سيدي.. أوروك هناك في الجنوب نائمة تحـت تـلال مهملـة ، وأنـاس لا يقـدّرون ثمـن موجوداتهـا. الريفيـون هنـاك يسـتلون طـابوق الزقـورات وسـور جلجـامش ويحملونـه صـوب قـراهم لبنـاء حظـائر لشـياههم وأبقـارهم وسـط إهمـال ولا مبـالاة السـلطات المتعاقبـة.".. "اعـرف! اعـرف! ". راح طـه بـاقر يتمـتم بوجع.. ثم خاطبه وبقايا الوجع يلاحقه:

- تعال معي لندخل عالمهم.

مرًّا من أمام بستانٍ صُنِعَ سعف وجرّيد النخيل سورا له.. كان السور واطئا. استطاع رؤية حشد من أشجار تتفاوت في ارتفاعاتها وكثافتها.. شاهد أشجار رمان. كان ثمرها يانعاً. كلُّ رمّانة تتدلّى بثقلٍ يوحي باتكاء رأس فتاة على كتفها.أشجار خوخ، خوخُها بنصفين أحمر وأصفر يتهدَّل خارجاً من بين الأوراق المهدبة وقد التصق عليها غبار ذهب بيناعتها. أشجار مشمش، أثمارها الكروية الذهبية الملطخة بحمرة توقظ الفرح في النفس ودكنة لون أوراقها الخضر قرّبت في ذهنه أشجار يرسمها انطباعيو القرن التاسع عشر بألوان زيتية تبهر الناظر.. أجاص ممتلئ بعسل وهبته المياه العذبة وخصب الأرض تتباهى به أشجارها ثمر توت بلون ابيض توشى بلون القهوة، وآخر باذنجاني المسحة بلمعان باذخ.. هناك سوابيط عنب نُظمت على أيدي مزارعين مهرة جعلوا هياكلَها تَصنع ممراتٍ مظللة يتهادى السائر تحتها بارتياح ويخطو بمتعة تهمس له عناقيد العنب العسلية اللون والطعم. وعناقيد تأخذ لون الكافيار... كثير من ثمار هاته الأشجار يتناثر على عشب طاف يغمر ارض البستان الطرية.. أما أشجار النخيل السامقة فما زالت عذوقها خضراء تنتظر لفح الشمس وحرارته المرتفعة ليتجلى رطباً شهيا..

كانت مجاميع عصافير وعنادل وكناري وفواخت تتخاطف طائرة من شجرة لشجرة وناطة من غصن لغصن. زقزقة وهديل وكركرة وحفيف. إيقاع متناغم أو متنافر كلاهما يترجم حيوية الطبيعة.

قال لندخل أيها المنقِّب.. ألا ندخل؟

ابتسم الرجل ابتسامة رضا للاقتراح سحبه من يده. سحبه من محاولة الدنو من السور والولوج من فتحة يمكن لهما اختراقها ليكونا في قلب البستان. سحبه ليواصلا السير.

- أُحب الطبيعة فهي كأمٍّ رؤوم.

- صحيح.. أتدري يا جاسم إنها تذكّرني ببساتين السماوة عندكم.. تعيد اليَّ صديقة الملاية.. "خذني وطير بيه للسماوة.. وذبني بكاع ما بيها نداوة".

- كيف جاءت إليك السماوة الآن، يا سيدي؟

- مررتُ بها أيام كنّا ننقب في الوركاء بحثاً عن سورها العظيم الذي بناه جلجامش.

من فتحةِ السور ظهرت امرأةٌ تتجاوز الثلاثين تحمل سلّة حوت ما قطفته من ثمار. رداؤها المعقود في وسط كتفها الأيسر يسربل قوامَها ويهبط إلى أسفل الركبتين قريباً من الكعبين. سوار من ذهب بهيأة أفعى يطوق معصمها.

خلفها خرج فتىً يحمل قفصاً صُنع من أغصان أشجار

حمضيات. القفص جمعَ طيورَ فاختة وحمام وخضيري وبط بريّ. "انهم يصطادونها فيفضّلون أكلها مشويةً."قال المنقّب" الطيور أطيب وجبات الغداء لديهم.". باليد الثانية حمل الصبي سلةً صغيرة حوت بيضاً تتنوع أحجامه وألوانه: بيض حمام وفواخت وبيض عصافير وبيض بلابل، وبيض عنادل وبيض ديكة رومية وبيض طواويس.

رعد انطلق في السماء. نظرا إلى أعلى. غيومٌ متفرقة لكنّها دكينة، فاجأتهما بالمطر. زخات ثقيلة رشقت الأرض؛ ضربت الأوراق والأغصان.. موسيقى الطبيعة ارتفعت صاخبة ذكّرته بمطر صاخبٍ كثيراً ما باغته في شوارعَ ليدز فدفعه للهرب والاستعانة بمظلات باصات نقل الركاب أو بعرائش الشجر على الرصيف... دقائق وهدأت. اتخذت ايقاع الرتابة، ثم توقفت.

ظهرت الشمس. صار المكانُ أكثر ضوءً. شاعت رائحة خُزامى. تقافزت حِملان لقطيع أغنام يرعى على شريط عشبي تشبّع بالماء فتطايرت قطراتٌ ضربتها الشمس فرسمت أقواس قزح تخاطفت كسهام بانحناءات تصنع في الروح بهجة تعلن متعة هاربة من خمائل الفردوس.. بعدما خلّفا البستان وجدا درباً رصف بالحصى. الدرب نقلهما إلى ممر أكثرَ سعةٍ، وبيوت تتقابل.. قليلاً وانتهيا عند ساحة

استقبلتهما بحشد يتكاثف لمشهد أسبوعي يتخصص ببيع البشر أو مقايضتهم، وعلى هامشه يحصل تعامل واتفاقات.

هناك شاهدا زحاماً.. هرجاً ومرجاً.

هناك شاهدا الإنسانية المعذبة تنهض كأمٍّ فقدت أعز أبنائها فرشقتها الأيام بالترمّل. أمٌّ تمشي متعثرة لفرط ما أنهكها النواح وأعياها ذرف الدموع. لشد ما آلمتها اثقالُ كفِّ الحزن ورمتها نخلةً متفحمة... تمرُّ الإنسانية أمام ناظريه رافعةً لافتة عذابات خطَّها أول مِخلبِ بغض، وحفرتها أولُ فأسِ كراهية وطعنها أول خنجر غدر مروراً بقرون وحقب من أزمنة رماد وأجيال من قتل وفتك بفعل ضغائن وانقلابات... يستعيد خطيئة قابيل وحقده على أخيه هابيل حد قتله بكل إصرار. يتذكر بغض إخوة يوسف لأخيهم. نزاع المأمون مع الأمين. يستذكر خمسين مليون قتيل ودمار لا يحصى في حرب قالوا عنها عالمية. بول بوت زعيم الخمير الحمر وتلال جماجم تركها كإبادةٍ جماعية لأبناء وطنه كمبوديا؛ لا لشيء الا ليبقى متربعاً على كرسي لا يدوم ومتمتعاً بجاهٍ زائل.

وسط الزحام شاهد امرأة تُباع من قبل زوجها؛ وزوجُها يعدها بأنه سيستعيدها حالما يجمع مالَ شرائها. شاهد عائلةً، همس باقر في أذنه: هذه العائلة تباع بأكملِها، الأب

والأم والفتية الثلاث مع أختهم... شاهد شيخاً يعرض نفسه للبيع لعدم مقدرته على تسديد دينٍ تعاقد على أعادته... هكذا هُم، يقول باقر!.. شاهد رجلين مفتولي السواعد، قال عنهما هذان أُرتهنا عند تاجرٍ لكنَّ مالكيهما لم يُسددا مبلغ الرهن فحلَّ للتاجر بيعهما.. شاهد جوقاً لشباب في أعمار متقاربة يساقون كالماشية، منهكي القوى. يسيلُ الأسى من عيونهم والبطون خاوية؛ أخبره انهم أسرى حرب.. الأسرى طاقةُ اشتغالٍ ثمينة، تُفرض عليهم مهامٌّ خرافية ويتحملون ما فوق طاقتهم.. شاهد عربات تجرّها ثيران مُحمَّلة بغلالِ قمح وشعير وذرة وشوفان ودخن معروضة تُباع بأجمعها، قال: هذه من غنائم الحملات العسكرية الناجحة على الأعداء.

يقطعون حقلاً فيه شغيلة يعملون وأعدادهم غفيرة. المطر غسل أجسامهم فكانت صافية لامعة. قال طه باقر هؤلاء عبيد. بعضهم كما ترى يحمل في عنقه لوح طيني مفخور عليه اسمُه واسم مالكه، وبعض يوسمون في عضلة كتفهم الأيمن. إنهم لا ينتمون لمالك واحد؛ لذا تراهم بأوسمة متفاوتة. صاحب المزرعة استقدمهم بأجور لا تعطى للعبد إنما لمالكه. هكذا هُم، وذلك هو عُرفُهم.

آآآآه.. رددها مع نفسه.

يقوده من باب (هو الذي رأى). يسقط في حبائل الاستهلال المثير لملحمة سلبت العقول وشغلت الناس، ويسعى الى وضع الأصابع على مد رؤيوي يملأ اثني عشر لوحاً طينياً. يدخلان غابة بساتين تحتل شريطاً طويلاً متراميا بمحاذاة نهر دافق. عتمةٌ خَثِرة تشيع في الفضاء تحت تشابكات سعف بعضه نافر نحو الأعلى وبعض بتقوس ظاهر يأخذ وضع التدلّي.. قال: "شعب أوروك الذي ترى جُبل على العمل؛ والحياة لديهم جملة ألغاز مبهمة؛ كلما اكتشفوا حلاً للغز انبثق لغز جديد؛ يعقبه لغز فلغز، فلغز.. وهكذا. متوالية من الألغاز. يقفون إزاءها حيارى. وحين يعجزون عن إدراك حلّ يروحون يلوذون بمن يطعمهم غذاء الطمأنينة؛ فكانت لهم الآلهة. للخوف منها في نفوسهم سيادة، وللحرية هامش ضئيل يُنتهك في أية لحظة. الآلهة مع مرور الزمن استحالت سلطة باغية لا قدرة لأحد على مناهضتها. الدمُ لها يُراق لأيّما سبب وإنْ بدا تافهاً. وجلجامش الذي ثلثاه إله وثلث بشر واحدٌ من أولئك الآلهة المتحكمين بشعب أوروك. قتلَ شبابَهم وهتكَ أعراضهم. سلبَ ثرواتهم وجعلهم عبيداً.".

يبصران الجموع واقفة أمام شرفة منفتحة تطل عليهم قامة امرأة تتصنَّع الهيبة وتتكلّف في النظر. قال يهمس في اذنه: "هذه (أرورو) إلهة الخصب يتضرعون ويتشفعون لها من

اجل غرض واحد اثقل عليهم حياتهم وجعلها لا تطاق. ذلك هو أن تتنعم عليهم بأمرٍ من آنو كي يجعل جلجامش يخفّف من وطأة أحمال ألقاها على كواهلهم. جلجامش هذا جعل حياتهم لا تطاق بسبب طيشه ونزقه وشبقه وتجنّيه. جرّاء ذلك قدَّموا شكوى؛ وأفشوا بما في الصدور. شاهد بعضَهم يبكي لأنه قتل أبناءهم لا لسبب إنما لإشباع رغبة في رؤية الدم وسماع شلالات الآهات تنز من الصدور المطعونة بسيفه النافذ؛ وأبصرا آخرين يقدّمون أفعاله الجامحة في افتضاض بكارة بناتهم ورميهن إلى العبث بلا طلب عفو أو تقديم اعتذار بينما شرح بعض آخر كيف أمر المتملقين من أتباعه والمتزلفين بنهب نتاجهم من الزرع: قمحاً، ورزاً، وذرة، وكتّان، ومصادرة ما يحتفظون من لحوم ضأن وأبقار، وأسماك مجففة، وجرار مملوءة بالسمن الحيواني."

الجو كان رطباً وخثرة دكينة تحسساها تشيع أسفل تيجان النخيل المتشكلة غابة مترامية.. لا منفذ واسع تهجم فيه الشمس بحرارتها الصيفية اللاهبة. فقط كانت حزم متوهجة تتسلل فتمنح الفضاء أسفل السعف المتدلي شيئاً من ضياء. تطلعت أرورو إليهم تقيس سعة خشوعهم لها، وإيمانهم بها قبل أن تفوه: انتم على حق. وما شكوتم منه لا أجهله.. غداً مع الفجر ستتناقل ألسنتكم خبر يثير فضول جلجامش

ويجعله في انشغال طويل.. هيا انصرفوا. فقط تحمّلوا بطء الساعات القادمات حتى الفجر.

التفت الى طه باقر يسأله: "كيف سننتظر حتى الفجر التالي؟ واين نقضي ساعات الليل؟ ماذا سيحصل لهم وما الذي يحدث لجلجامش؟".. باقر ابتسم له:" ألم تقرأ ترجمتي للملحمة؟".

السؤال اثار فيه شجن الاسترجاع، فتذكّر انه قرأ الملحمة بفضول مَن كان بعمر سبعة عشر عاماً؛ وان جلجامش مع الفجر فوجئ بمخلوق يجابهه ويقطع عليه الطريق، مخلوق صرف العمر في الغابات، ومع حيوانات البراري كان يعيش. المدينة غريبة عليه والقوة الخرافية كل ما يملك.. اشتبكا معاً وتصارعا. صفات الألوهية كادت تطيح بهيبة القوة البشرية، لكن جلف البراري خذل الكبرياءَ الإلهي فكادَ يرديه.. انقلبا، وتدحرجاً، ثم انقلبا وتدحرجا. نهضا واشتبكا، مال احدهما على الآخر. تدافعا وسقطا. نهضا وتمايلا.. خارت القوى فوجد جلجامش نفسه مع قرين يساويه في القوة ويجابهه بالثبات. في داخله هتف هاتفٌ:" ان الجبروت لن يدوم، والسمو على الآخرين لا بد له من انتهاء، وأنَّ مَن يظلم لابد أنْ يُظلم، ومن يعتدي بغرور وصلافة سيأتي يوماً يُعتدى عليه بمن هم أشد غروراً وأكثر

صلافة، وأنَّ ما من استهانة تجابه بها مخلوقاً ألا تجابهك استهانة اشد فتكاً لذاتك واشد انحطاطاً لقدرك؛ وكيفما تكونوا يولّى عليكم.".

وسَّع الرجل من ابتسامته وخاطبه: هذا الند اسمه انكيدوا. صارا منذ ذلك الاشتباك صديقين حميمين.أرجو العودة إلى المكتبة وقراءة الترجمة. جلجامش هذا سيبكي انكيدوا ساعة موته، وسيروح بعد ذلك الحدث المرير والمَهيب يبحث عمن يخلد شعبه أوروك كتكفير عن ذنوب ارتكبها بحقهم، وخطايا أوغل في وحول فعلها بهم. جلجامش هذا سيجابَه بمَن يبغي احتلال أوروك وتدميرها وسرقة ثرواتها وتهديم زقوراتها ومعابدها.

كان أجا حاكم كيش بجيشه الجرّار قادماً من الشرق يقف على مبعدة من سور اوروك. ينتصب بعين المتلهف للسيطرة والاستحواذ من فوق عربة يجرها حصان بعرفٍ هادل ورقبة منتصبة وسيقان متأهبة للانطلاق والتهام الارض فيما يقف جلجامش عند حافة السور قلقاً على مدينة شيدها بجهدٍ دائب وعرق غزير. لذلك ظل يطالع بغيظ جيشَ أجا الغازي، المتحفّز للقتل والتنكيل.. يلتفت لأتباعه يخاطبهم:

- لن أدع هذا الشقي يقلع حجراً من سور أوروك، ولا

اجعله يمس ذيلَ ثوبك أيتها الآلهة الرحيمة.. ارزقني يا أدد بأكسير عواصفك، وأتمنّي على بحر نارك لأسكبه على رؤوس أعدائنا.. هَبني من القوّة ما لم يقدر عدوي على رفع رأسه ليبلغ مستوى ركبتي. دعني اربطه كذئب كسير بحبلٍ من رقبته وألف به بين الأحراش والوهاد لينال سخريةَ الوحوش والضواري وتهكمات الخراف والثيران.. وأنت أيها الكاهن الكبير، ارفع إناءك النذري، وأشعل بخورَك لطرد الشياطين والأرواح الشريرة الهائمة حول مدينتنا المقدسة وروابينا الخالية من أنفاسهم ولمساتهم.

كانت المواجهة محتومة.. والقتال على قاب لحظات وأدنى.

وطه باقر كأنه تذكَّر شيئاً وعليه الذهاب. همس في اذن مصاحبه: انتظرني في الكافتيريا.. سنلتقي هناك.

اراد ان يسأله عن الوقت، وأين تكون الكافتيريا فما فلح.

انتبه لنفسه يقف أمام الإناء النذري. كان الإناء فارغاً؛ والمؤمنون أنصاف عراة يحملون العطايا ليضعوها على دكة الإله آنو، داخل صندوق الزجاج، يتأملون بركاته، ويأملون رضاه.

تحرك وسط شوق عارم للتطلع. توقف عند لوح مفخور

ومطلي بلون اللازورد والأبيض يمثل المجيء من غزوة وقد سيق الأسرى وحملت ما درَّت به حملةُ الغزو من قمح ورز وشعير وذرة في عربات، إضافة إلى خراف وأبقار وجواميس تُقاد بنشوة الانتصار.. واذْ حدَّق في هيأة الأسرى وتفرَّس في ملامحهم ترجم البؤس والألم والعذاب يقطر من عيونهم فتذكّر حبسه وما لاقاه من عذاب. وصلته صرخات رعب الإنسانية ومعاناة البشر. تخيل السهام تمطر عليه قتلاً والرماح تنهال لتدون بؤس البشرية المبتلاة بالطمع والبغض والاستحواذ.. أخرجه من فضاء البؤس لحظة تفجّر هديرُ طائرةٍ جاءت لتشوّه وجه بغداد، ورشقات رشاش تتابعت من السماء تعلن أنَّ أتباع أجا الجُدد قادمون.

المكتبة.. مرة أخرى

أرجأ مواصلةَ التطلّع في المعروضات، وسار متجهاً الى المكتبة يستل من رفوفها ما يطلعه على حياة يومية لشعوب سادت ثم بادت. استلَّ كتاباً حمل عنوان (تاريخ الفن القديم) الّفاه لـ د. شمس الدين فارس ود. سلمان عيسى الخطاط. قلّب الصفحات وتاه مع الفحوى. استعذب ما كتباه وجال على مدٍّ زمني لخصّاه بكتاب سيثير فيه ملكة الخيال ويطعمه لذاذة مائية غامرة. تفرّجَ على صور

وتخطيطـات، تـواريخ وانعطافـات. حفـرت جملـة (إن الفـن التشـكيلي البـدائي هـو جنين العلـم والمعرفـة البدائيـة) و(إن قصة الإنسان البدائي ما تزال مُعاشـة حتـى يومنـا هـذا.) هـذا ما سمعه من ذلك المعلم الـذي توقـف عنـد معرضـه يـوم كـان تلميذاً.. أيـن يكـون الآن.. وكيـف أصبـح. تـذكـر انـه التقـاه يومـاً، قبـل خمسـة عشـر عامـاً. كـان ذلـك في ربيـع أواخـر ثمانينات القرن الماضي يوم كان يسير في شارع الرشيد:

أذكر أني تعديت سوق الصفارين بعدما كانت مطارقهم تضـرب علـى النحـاس فتنـتج زقـورات ومعابـد، بوابـات آلهـة عشتار وجنـائن معلقـة، مسـلة حمـورابي عليهـا شـريعته وختم اسطواني لعهد بابلي قديم، دُمى لرجال ونسـاء وفتية وصبايا لعصـور مختلفـة مكتـوفي الأيـدي خشـوعاً وتضـرعاً لآلهـة وملوك، رأس امـرأة يتـزين بـأوراق شـجر وخـرزٍ. أسـد يفـترس أنسـاناً، لبـؤة جريحـة وجلجـامش منتصـباً يحتضـن بيسـراه شـبلاً وبـاليمين يمسـك صـولجان الملوكيـة.. أبصـرت النـاس منهمكين بمـا يتبضـعون مـن سـوق الشـورجة ومـن السـوق المسـقَّف بهيئـة خيمـة معدنيـة معمولـة مـن صـفائح الألمنيـوم وهياكل أعمدة الميط الخشبي المستورد من غابـات الشـمال أرى الناس في تداخل وتمازج.

يسـحبهم ظـل السـوق ثـم يـدفعهم إلى خثرتـه بينمـا يخـرج

غيرهم مثقلين بما حملت أيديهم من أكياس احتوت بهارات هندية وبنغالية وسنغافورية، وشموع ملونة. وألعاب صنعتها الصين لتبيعها بأسعار زهيدة تجني منها عملة صعبة وإن تتجمع ببطء، قطرة فقطرة كقطرات ناقوط الحِب... (هذه بغداد.. نعم بغداد. رحم الله مدحت باشا - كان أبي يردد الاسم بعشق وفخار - ثلاثة أعوام وواحد وعشرون يوماً فقط جاءها والياً. أحالها مدينة تسعى لاستعادة أمجادها في عصر الرشيد بعدما أهملت قروناً. بعدما سُحقت وديست بلا رحمة. بعدما رُميت في براري الوحشة. أرادوا لجَمالها أن يشوّه ولتاريخها أن يُلوَّث. ثلاثة أعوام وواحد وعشرون يوماً كان للمدرسة معناها الحضاري المعروف صفوفاً وساحات، والمستشفى بالمبنى والأسرّة ومعدات الفحص والعلاج والأطباء والممرضين.

ثلاثة أعوام وواحد وعشرون يوماً عرفت بغداد المطبعة والعراق الجريدة بعدما كان يسمع بها وعنها فقط. ثلاثة أعوام وواحد وعشرون يوماً صار هنالك مصنع وسكة ترام وشوارع تُعبّد بالإسفلت وحدائق تبنى وتنتظم بهندسة حضارية تجعل العراقي يتطلع الى أمام لا ان يتصمّغ في مكانه، أو يبقى مشدوداً الى الوراء.

آخر ليلة ظلت له في بغداد جلس مدحت باشا في شرفة

بيته المطلة على دجلة. جاءه العامل بآخر نارجيلة يملأ صدره بدخانها. كانت وردة الجوري التي لا يراها في القارورة الزجاجية جراء العتمة السابح بها تتراقص مع الماء وارتفاع الدخان المسحوب امتصاصاً عبر القامشي، تتبعها القرقرة. قال لعامله غفّوري، الدامع العينين والمنتصب إلى جانبه: تمنيت لو أبقى عشرة أعوام لا ثلاثة في بغداد. ففي رأسي مشاريع حضارية، بتنفيذها يا غفوري أجعل من بغداد اسطنبول ثانية، ومن العراق بلاداً يحتذى بها... يأتيه من الظلمة صوت غفوري المتهدج: بيك، لقد عملت الكثير. أهل بغداد يقرّون بإنجازاتك الكبرى، وهم اليوم مكتئبون لنبأ رحيلك. وغداً صمموا على إقامة مقام توديع. سترى دموعهم تجري على خدودهم كالسواقي.

عندما شاهدت كهلاً ينوء بحمل كيس خيش مملوء لنصفه بحبات رطب مجفف حاولت اعانته ومعاونته بحمله قال: "دعك فهذه مهنتنا.". "ولكنك تلهث بأنفاس متسارعة.". قال: "ذلك لأني حملته من سوق الغزل.." واين هو سوق الغزل.". قال:"في الجانب الآخر من سوق الشورجة، في شارع الجمهورية. اذا ذهبت الى هناك ستبصر أمثالي من الحمالين وبأجيال مختلفة بهمّة عالية يندفعون من داخل ازقة السوق وظهورهم المقوَّسة تحمّل بالات قطن مكبوسة ومحزّمة

بأحزمة معدنية تمنع ترجرجها، وأكياس خيش ذوات الخطين الأحمرين المتوازيين طولياً معبأة ببذور الكتان، وستبصر أيضاً عربات خشبية تحمل صفائح معدنية مغلقة، معبأة بالزيوت النباتية والسمن الحر، وحلاّنات تمر اسطوانية مغلفة بسفائف خوص ما زالت خضراء تشير لحداثة صناعتها وشحنها من مناشئها الجنوبية. يسلمون كل هذه إلى عمال ينتظرون في أحواض سيارات الحمل المنتظرة عند الرصيف جوار جامع الخلفاء.". زاد لهاث الرجل جرّاء استرساله بالحديث والثقل على ظهره.

استوقفني رجلٌ بشعر طويل وملابس ذكّرتني بالتي يلبسها سلفادور دالي بتقليعاته الغريبة. حدّق في وجهي فساورني شعور انه مُتوهِّم، وعيناه تقرّب إليه شخص يعرفه.. أمن بغداد أنت؟ سألني.. "لا!".. "اذاً من السماوة!.. رددتُ وقد تهشمت لدي حافات شعور الاشتباه، قلت: صحيح.

كومضٍ شعَّ بغتةً استرجعت ذاكرتي الألواح الاكَدية المطعمة باللازورد والأصداف لمعرض اقيم في مهرجان سنوي وأنا تلميذ صغير في المدرسة الابتدائية؟.. تفوَّهتُ منتفضاً: " نعم، نعم! وأنت معلم الفنية الذي وقفنا عند معروضاته مسحورين، فأعلمتنا بأنها محاكاة للفن الاكَدي؟".. ضحك: "إنَّ لك ذاكرةً قوية، عرفتك من ملامحك. لم تتغير

كـثيراً رغـم كـبرك؟.. "وأنـا لم أعرفـك للوهلـة الأولى، يـا أسـتاذ، فعـذراً. مظهـرك المتغيّـر مـوّه علـي معرفتـك. فقـط كلماتك ما زالت تحتفظ بوجودها الحفري على ذاكرتي. بقيت احتفظ بنظرتك المتأسية على محتوى الألواح وإعجابي الكبير لموهبتك الفذة.".. "إلى أين تتَّجه؟" قال كما لو كان يدعوني لمصاحبته.." في جولة لا على التعيين.". قلت.. "ما رأيك بمصاحبتي لزيارة متحف الفنون في الكرخ؟".. بكل سرور هتف قلبي فسكبت عيني قبولاً مضمَّخاً بسرور طاغٍ.. كان اللقاء لقاءَ فرح. وكنت سعيداً لأنه سيفتح أمام ناظري عالماً تشكيلياً ساحراً وخرافياً.

بهيئته التي تُفصح عن فنانٍ بحق دفع الباب الزجاجي وأشرعه كي أدخل قبله. تراجعتُ احتراماً فسبقني. وجدت نفسي أعود تلميذاً ويبقى الذي أمامي رغم الأعوام استاذاً. يومها كان الرواق مضاءً بمصابيح صفر، والفضاء كرنفالياً جميلاً بينما السقف العالي يدلي بسلاسل تنتهي بثريات نمساوية تمطر انواراً تهمي على رؤوس رواد دهشت لكثرتهم، وكنت على وشك ان أستفهم منه إن كان المكان يضج بزحام الرواد يومياً عندما قال: اليوم نشهد افتتاح لأحصنة فائق حسن ووجوه بدوية استلّها من عالم الصحراء.. أبصرنا أحصنة تخب على ايقاع فني لوني مبهر

لقماشات شكّلت مشاهد تثير الفتنة وتؤجج في الدواخل براكين اللذاذة، وأحصنة أخرى تصهل منطلقة بسيقان مستدقَّة وبأعراف وغرر تهفُّ مع تلاطم الريح تذكِّر بقول المتنبي: على قَلِقٍ كأنَّ الريح تحتي // أوجِّهها يميناً أو شمالاً.. رأينا البدوي يلف كوفيته حول وجهه. عيناه صقريتان تناهضان صد الهواء وتخترقانه بقوة مَن خَبر هول الريح وقوتها واندفاعاتها في فضاء فسيح. ريح كثيراً ما تدعو معها ذرات الرمال لتطير وتهجم على العيون الجامحة: عيون الأحصنة والبدوي على السواء.

وإذ انتهينا من التطلع وكنا على وشك الخروج قادني الى منضدة عليها دفتر مفتوح. قال لنكتب رؤيتنا. عرفت انه تقليد يفرد إداريو المعرض صفحات دفترٍ يسكب الزوار حبر رؤاهم على اسطره لتكون حفرَ ذكرى، وبصمة انطباع.

مسك القلم وكتب:

"هناك إغراء يلاحقك حين تكون على مرمى شغف ينتظركَ والعشاق ممن على ذائقتك وتطلعاتك. في فضاء تحرّيك تشيع رائحة تنده عليك فتستجب لها ولِهاً ومستضاماً.. ذلك الإغراء، وتلك الرائحة لوّحا لي وكنت ابحث عن عين ألوان ترويني وتُبريء ظمأي.

لا أقول ارتشفت بل كرعت.

لا أقول شربت بل نهلت.

وها أنا اخرج مع صاحبٍ لي دعوته معي فكان الحضورُ مزدوجَ السعادة..

لقد امتلأت."

رفع رأسه من كراسة التدوين وقال: تفضل دوِّن ما ترغب أن تقول.

امسكتُ القلم، وبخجل وارتباك رحت افوه:

"هي متعةٌ فائقة هاته التي خرجنا بها بعدما شربنا فاكهة ألوان.

وهو عسل لذاذة هذا الذي ارتشفناه وأغدقته اللوحات بكرم يتعدى حدود الوصف..

شكراً لمن أبدع. وشكراً لمن صحبني."

وخرجنا.

أذكُر أنني ليلة اللقاء والوداع معه، وبعدما اغدق عليَّ الكثير من معرفة في الأدب والتاريخ وتضاعف إعجابي به وبوحي له بان لقاءنا سيحفر وجوده البهي في ذاكرتي ولن أنساه ابداً. عدت لغرفتي في الفندق الذي كنت انزل فيه ونمت على أطياف جميلة للقاء عذب، إذ وجدت نفسي من جديد في فناء المعرض، وحيداً أطالع اللوحات وبشوق وانبهار عندما تناهى الى مسمعي طنين وأزيز يتعالى شيئاً فشيئاً وحين رفعت

الـرأس وتطلعـت إلى مصـدره هـالني مـا رأيـت.. رأيت ارتـالاً مـن الديدان والنمل النهم الأكول يأتي من الأبواب والنوافذ. يقـترب ويقـترب.. يهـاجم مـا أمامـه ومـا حولـه. يأكـل مـا يـرى. يفتـك بمقصات فكوكه مـا تطالـه لوامسـه الصـمغية. يمـزق ويهشـم. ينثر بجنون، ويعبث بهتك. تتبعثـر إزاءه الأثـاث. اللوحـات تتمـزق.. المصابيح تتهشم.. الأُطر تتفكك.. الأرض تتلوث. ويغدو المكـان بلحظـات خرابـاً ونثـاراً وأطـلالاً. أقـف عـاجزاً عـن منـع المـد المهـاجم، ويكتسـحني جـزع قـاهر. أروح اصـرخ، اسـتنجد، أتضرع، التفت يميناً وشمالاً لعلَّ مُنجداً ينـدفع مـن أسـتار الألم والتمزق... وأستيقظ على أنفـاس تتسـارع وقصبـة تختنـق ولسـان متخشـب وعطـش يكـاد يقـتلني.انهض. افـتح الثلاجـة. ومثـل مـا فعل الحارس المتذمر استخرج قارورة ماء بارد افرغه في جوفي، وأروح أتساءل: يا للرعب ! يصاحبنا حتى ونحن في المنام !.)

المطـــار

عاوده حنين التواصل مع العائلة بعدما أيقن أنَّ كـلَّ شـيء انتهى، ولا خوف نهائياً من سـلطة منتهيـة الصـلاحية، خائفـة هـي الآن ومرتعبة تتوقـع ان يجـري لهـا مـا كـانت تجريـه علـى الذين تحسبهم خصوماً واعداءً.

مـد يـده ترفـع سماعـة الهـاتف. وضعهـا علـى صيوان أذنـه

فاعلمـه الصـمت بمـوات الصـوت. أدرك أن الخطـوط قطعـت وانـه حسـناً فعـل عنـدما اتصـل بعائلتـه ليطمئنهم فقـد حـدس ذلك، فقطع خطوط الاتصال من أولى أولويات قطع التواصل بـين مركـز القيـادة العليـا مـع القيـادات الـدنيا في الأعـراف الحربية. وكـثيراً مـا يشـدد العـدو علـى قطـع خطـوط الهـاتف السلكي ليحكم تفكيك منظومة التواصل. أما الاستخدام اللاسلكي فيعد كارثة مع منظومات القتال المتطورة.. طـالع صورته في المرآة فأنبأه الماثل بشـريط أحـداث قاسـية مـر بهـا؛ ومعانـاة لا تجسـد ابجـديتها إلا الكـوابيس.. جوليـا تسـأله السؤال الأخير: "أتتراجع لنعود سوية.؟".. بودّه لـو يتراجـع؛ غـير أن السفر ضروري، وقلبه لا يطاوعه بالمكوث معها.

جملـة الآلام الـتي عانتهـا أمـه، غيابـات أبيـه المتعـددة والطويلـة الـتي تحمَّلتهـا، قسـوة الأيـام الـتي واجهتهـا، الصـبر علـى الملمـات المتتاليـة، مسـحة الأحـزان المكتسـحة وجههـا، عسـف الإنسـان حـين يمتلـك السـلطة لينـزل تعـذيباً بأخيـه الإنسان؛ كل ذلك يستعيده بشريط ذاكراتي لا يُمحى مهما حاول تمرير فرشاة النسيان والتجاهل عليه:

حركـة المسـافرين في أوجهـا. رجـال أعمـال انكليـز بوجـوه محمـرّة وبـدلات مهندمـة يرفعـون حقائـب مكتبيـة تضـم ملفـات وأوراق عقـود وخارطـات، مجـاميع أزواج بسـن الشـيخوخة في

رحلة يقودهم دليل شركة سياحية سيطير بهم إلى الصين وهم يحلمون بخطى يرومون طبعها على السور العظيم واكتشاف ذلك العالم الذي يرونه مغلقاً أو يعرفون عنه القليل، شباب وشابات ببشرة سمراء توحي أنهم من بلدان أمريكا اللاتينية وقد حملوا على ظهورهم حقائب فهُم شباب ينشدون المغامرة والاكتشاف؛ يقصدون باريس وفي أيديهم كتيبات للمدينة الساحرة: صوراً وخرائط وأماكن تستحق المشاهدة والتعرف عليها عن قرب، عائلات هندية في إجازة إلى بلدهم يصرفون شهراً أو أكثر ثم يعودون إلى أعمالهم ومصادر رزقهم وهناء عيشهم، شباب أفارقة تدلت خصلات شعورهم المفتولة على خدودهم اللامعة تتدلى من أكتافهم أحزمة تنتهي بحقائب صغيرة يضمونها تحت أذرعهم تحوي ملابس خفيفة، أطفال ضجرون يتثائبون تسحبهم أمهاتهم، تحثهم على الحركة وقد شاكستهم إضاءة صالة المطار الشديدة السطوع؛ كانوا يبغون نوماً اعتادوا الإبحار في هدوئه بوقت مبكّر فكسرَ السفرُ تلك العادة.

ساعة المطار الرقمية تقرأ الواحدة والنصف صباحاً، والرحلة تستغرق ثلاث ساعات ليهبط في مطار دمشق، وجوليا تكرر السؤال وتنتظر. وهو يقول: أمي أثمن من حياتي. لأشاهدها مرةً وليحدث الطوفان".. تقول: " أنت تصر

علـى الرحيـل إلى المجهـول. والمجهـول في بلـدانكم ملاحقـة واعتقـالات وتعـذيب وقتـل. ".. "أدري يـا جوليـا.. أدري.. كلّمـا تطلَّعتُ لا أرى غيرَ حياةٍ عليلةٍ بائسةٍ وأنـاس يتعثـرون في وحل عهر أنظمة حيوانية واعراف محراثيـة ثقيلـة يـراد لها ان تثقل كاهـل الإنسـان فتجعـل منـه ثـوراً يخـور ويـدور، وشـيطان أخرس: يرى فلا يعترض، ويُعصـر فـلا يحـتج. يـداس بأحذيـةِ العسف فلا يُطلق صرخةَ رفض. فقـط أنـين بمثابـة سـيمفونية حزينة تجسّد يومـه.. أجـري يـا جوليـا مقارنـة مـع مـواطنيكم الذين أعيش بينهم وشوارع مدنكم التي اسير عليها وكنف أمـنكم حيـث انـام فيـه، فأبصـر السـعادة هـواء جـذل يمـلأ الأرجاء، والطمأنينة نبيذ روح يرشـفونه علـى رواء. شـعوبكم خلّفت كل ما يعرقل هناءها ويتسبب في تنغيص حياتها بينما شعوبنا تصحو وتنام في ميدان أنظمة يتسابق سياسيوها علـى صناعة كـل مـا يـديم ثبـات وجودهم علـى كراسـي السـلطة لـذا تـراهم يخلقـون أعـداءً وهمـيين يخـدرون فيـه المـواطن ويبعدونه عن حقوقه مكثرين عليه الواجبات ".

قاعة المطار في ليدز تعج بمسـافرين لجنسيات متنوعـة رغـم الأغلبية الانكليزية. عيـون تتـابع الشاشـات الرقميـة المتدليـة مـن سقف الصالة لمواقيت الوصـول والانطـلاق.. عيـون تتصـالب علـى الحقائب بانتظار نداء التهيئة للسفر.. عيـون تطـالع القـادمين مـن

منعطف بعدما هبطوا من خرطوم فم طائرة حطّت للتو وقدموا لاستلام حقائبهم.. عيون مطبقة الأجفان لمسافرين يتكئون على الأرائك كأنهم نائمين؛ جاءوا مبكرين فوجدوا أن ثمة وقتاً طويلاً قبل تقدمهم لإتمام إجراءات السفر والصعود إلى الطائرة.. عيون تطالع مطراً يهطل بغزارة في الخارج مترقبة حيان توقفه كي تخرج إلى الباصات بأقل الرشقات.

يقول لها: كان عليك أن لا تأتي.. المطر لم يتوقف منذ تركنا الشقة. فتقول: لا عليكَ. لا أخشى المطر بقدر خشيتي عليك. يطبع قبلة على جبينها فترفع وجهها لتلثم شفتيه، وترصصهما، وتبكي. يسحب منديلاً شفافاً من جيب بنطاله ويروح يجفف السيلين الجاريين على خديها، ويهمس: I'll come back. Trust me. Just a few days.. هي تثق به لكنها لا تثق بنظام بلاده.

تطالع ساعة المطار فتدمع عيناها.. تضغط بأصابعها المشتبكة مع أصابعه. تستدير لتعانقه.

وقبل انفصال الجسدين وانتهاء لحظة العناق تهمس في أذنه: يخامرني هاجس انك لن تعود.. أخشى عليك.

يسحب حقيبته ذات العجلات ويتحرك مع المسافرين للطائرة المتجهة إلى دمشق بينما تظل هي كتمثال شمع تسيل قطرات دموعها حرى على خديها وكفها يلوّح بيأس،

يلوّح حتى وهو يغيب ويبتلعه الخرطوم الذي ينتهي به عند باب الطائرة.

الكافتيريا

تحرك، قاطعاً الرواق المعتم. لم يتّخذ الطريق الى القاعة السومرية التي شاهدها من قبل بل انعطف يساراً بغية الاكتشاف لعله يدرك الكافتيريا التي أشار لها طه باقر. فمن غير المعقول ان لا تكون هناك كافتيريا ويشير لها الرجل ويجعلها مكانا للقاء.

خطوات وتوقّف مسحوباً بمستطيل برونزي لامع خُطت عليه بصبغة سوداء لميعة كلمة "كافتيريا". تحته باب عريض مغلق؛ دفعه فإذا بها الكافتيريا فعلاً.

فارغةً، صامتةً استقبلته.

استقبلته برائحة الدهون والزيوت النباتية، وهتاف البهارات الهندية.

تلقته بنكهة القهوة الآتية من الشورجة والمطحونة في محلات حافظ القاضي.

طافت عيناه على مناضد كانت قبل أيام مكان التلاقي وتناول سندويشات الهمبوركر والبيض المقلي والفلافل المحمّصة المقرونة بشرائح الباذنجان والعمبّة والمخللات من

خيـار وبـراعم قرنـابيط وورق لهانـة وثـوم عجـم، وشـرب العصـائر والشـاي بنكهتـه العاديـة أو المعطـرة بـورق النعنـاع الأخضر اليانع، يجمعها الشيف هوبي الشايب الذي جعل من مسـاحة جانبيـة مـن حديقـة المتحـف رقعـةً نثـر فيهـا بـذور الكـرفس والرشـاد والريحـان والنعنـاع والقرنفـل وتابعهـا بشكلٍ يومي بعدما طرح الرأي على مدير الذاتية فاستحسن الأخير الفكـرة ووافـق طالمـاً سـتاتي الخضـار طريـة وتغسـل وتنظف بإشـراف مـن شـيف أثبـت مهارتـه وحذقـه وبراعتـه في إعداد صحون يستعذبون فحواها لاسـيما وهـو التلميـذ البـارع الـذي تعلـم الطـبخ المميـز علـى يـد الشـيف اللبنـاني الشـهير انطوان الحاج في زحلة. وكثيراً ما شوهد مع أستاذه انطـوان في برنامج "مأكول الهنا"على قناة "اللبنانية"؛ والأسـتاذ يشيد بـه كلمـا أجـريَ لقـاء معـه وأعلـن أن أفضـل مـن تعلـم منـه وأحسن إعداد الوجبات هو هوبي الشايب.

يشمُّ الآن رائحةَ النعناع وعطر الريحان. يرى قدور المطبخ مرتَّبة باتساق، نظيفة ولا أثر لطعام، الصحون متراصفة على قاعدة من معدن أبيض لاصف فيدرك أن طاقم الكـافتيريا سـبق المـوظفين في غيـابهم، وأنهـم وجـدوا أن لا ضـرورة مـن إعداد وجبات لا يقبل عليها المنتسبون لانقطاع شهيتهم جـراء حرب تهاجمهم أمواج عربدتها ومجونها وجنونها.

لم يكن طه باقر هناك!.. والباب الآخر المغلق على بعد أربع مناضد وعشرة كراسي اثار فضوله. نهض فخطا. توقف فامسك بالأكرة وأدارها فإذا به يفضي لممر ضيق حسبه ممشى فتشجع في ولوجه. اعلمه انتهاؤه برواق صغير يأتيه ضوء شحيح من كوى مزججة عديدة تمتد مع الجدار المطل على الحديقة المواجهة لمبنى الاتصالات. ممر توزعت على جانبيه تماثيل حجرية لحضارات ما قبل التاريخ بمقدور الزائر لمسها والتعرف على طبيعة الحجر الذي نحتت منه، وثمة أبواب خشبية قهوية داكنة محفورة بنقوش ومطعمة بمسامير حديدية وعتلات، ولها مقابض ومطارق معدنية. هويتها تشير إلى أنها أبواب لعهود إسلامية: عباسية وفارسية وعثمانية.. نهاية الرواق أرساه عند قاعة بابلية؛ كانت فيها مسلة حمورابي منتصبة بحجرها البازلت الأسود.

لفت انتباهه ألواح طينية كثيرة وإشارات لمعابد وقصور غرق في متابعتها وملاحقة نشاط أناس أرادوا أن يدونوا كل شيء عن عالمهم وحياتهم فلم يكلّوا ولم يملّوا من الكتابة والتدوين. أناس قطنوا الفرات الأوسط وأسسوا لمدينة تباهوا بها فأسموها ماري. ماري التي راح يتمشى على هدي عديد أوراق قرأها عن هكذا مملكة غناء بمشيداتها ومعابدها وتنظيم إروائها وبناعة زروعها. سار في الدروب وقطع الشوارع، تملّى في

وجوه النسوة وطالع قامات الرجال. لفت انتباهه نزق الفتية وحيوية أنشطة الفتيات. ماري حبيبةُ شعبها. شعبٌ تتادى لعلوِّها وتبارى لسموِّها. حفّز المواهب وشحذ الهمم حتى غدت إمارة محط أمنيات من يبغي التحضر ويسعى للمباهاة.

ولم يخرجه من رحيله مع كرنفال زهوهم بما خلّفوا وما قدّموا للإنسانية غير صندوق زجاجي ينقل الناظر لمرحلة تاريخية أخرى. صندوق يعرض قناعاً نحاسياً يرتكز على قضيب فضي. قناع بخوذة متدرجة وغطاء درع يحيط بالرأس وثقبي عينين مصنوعين بفنية راقية كشفت له الصورة هوية سرجون الآكادي ودعمتها الكتابة على القطعة البرونزية.. كان قد رأى هذا صورةً في مناهج الصف الأول يوم كان في المرحلة المتوسطة وسمع قصة هذا الحاكم التي تشبه قصة النبي موسى إذ ولدته أمه فوضعته في سلة ودفعته لماء النهر فاكتشفه عامل من عمال الملك. ما لبث حين كبر أن أصبح ساقي الملك، قربه وأحسن إليه. وحين صار قادراً على الانتفاض خلعه واخذ ملكه، وتسيّد فصار هو الملك.

لحظة التفت على لمسات صوت من خلفه أبصر طه باقر أمامه:

- سامحني.. كنتُ منهمكاً في اكمال كتابة الفصل الأخير من كتاب مقدمة في أدب العراق القديم. سأصدره

قريباً. القراء والباحثون بحاجة اليه سيطلعهم على ما دونه الأقدمون من عهد سومر حتى الخلافة الإسلامية.. أين قضيت الوقت؟

- قبل قليل كنت في ماري.. جغرافية المكان أثارت مَلَكة التحفز لدي. تداخلت العصور في رأسي وتماهت شيئيات حقبها. الكتب التي طالعتها والصفحات التي قلبتها جعلتني أتأرجح بين واقع أرى فيه قاعات وأروقة وممرات تتوزع فيها علامات وشواهد لأجيال أخذت من الزمن قروناً وأحقاباً وآثاراً؛ وخيال يحملني الى حيث عاش الناس وتناسلوا وكدّوا وجهدوا وتقاسموا وتحاربوا وتهتكوا وماتوا.. كنت قبل قليل في ماري، أتجول في ممرات المعابد عندما مرق كالخيال شخص يلبس بنطلوناً وقميصاً كاكياً ويعتمر طاقة بيضاء مترِبة، ندهت عليه فانعطف سريعاً كأنه لم يسمعني مع أنَّ ندائي كان عالياً وصوتي انتبهت له الفهود والأسود والخيول فتجمدت. عصافير كانت في موجة كركرة بين شجيرات المعبد أوقفت كركراتها وتحجّرت. تبعته مهرولاً لكن الممر العميق الذي ولجه كأنه ابتلعه. فقط ترك آثار حذاء كتاني طويل العنق كان يلبسه. - ذلك كان اندريه باروت المنقِّب الفرنسي السابق ومدير متحف اللوفر اللاحق.

ابتسم في وجهه ثم أكمل بشيء من إبداء الإعجاب برمز

علمي يستحق الاعتزاز:

- ذا طاقة اكتشافية متفجرة؛ فطنٌ وحاذق. ذكاؤه وخبرته في عالم التنقيب قاداه في العام ١٩٣٣ الى اكتشاف سلسلة من المعابد والقصور والتماثيل وأكثر من عشرين ألف لوح.. نعم؛ لا تندهش. عشرين ألف تحمل نقوشاً اقتصادية ودبلوماسية في منطقة ماري في الفرات الأوسط. الإنسانية مدينة له بالكثير. منقب حاذق اكتشف حضارة سومرية لسلالة ساميين.

خطا قليلاً وهو يطالع معروضات قلائد هي فصوص عقيق ولازورد. تتدلى من خيطها الجامع لها مصوغات ذهبية بهيئة زهرات تجمعها أغصان منبثقة من جذع مسطحٍ وعريض، وأوراق شجر توت مصفوفة، وحلقات دائرية متداخلة، وأشرطة طويلة ملتفّة.

"تعالَ الى الكافتيريا سنلتقيه هناك. انه ينتظرنا.".. اراد ان يقول ان الكافتيريا مغلقة ولا احد هناك يخدمنا. وأنني مُذ لحظات جئت منها عندما قال: سنجده هناك، وإن كانت الكافتيريا بلا عمال ولا خدمات.

لم نجد باروت هناك إنَّما أبصرنا ماكس مالوان. حيّا طه باقر، وباقر رد تحية طالب لأستاذه. كنتُ أنا كما تلميذ ضئيل المعرفة بينهما. ذكر مالوان مدينته وندزويرث. فابتسمت

ابتسامة مَن يعرف عن المدينة صفات جمالها الأخاذ وموقعها جنوب غرب لندن. لفت انتباهي ملفٌّ كتب على غلافه الورقي الثخين "مراحل العمل". ملتُ برأسي على طه باقر وهمست: ما فحوى هذا الملف؟.. قال: "لنسأل مالوان".. مالوان قال: سمعت سؤالك الهامس: "هذه خطة عملنا في التنقيب تحت إشراف رئيس بعثتنا إلى أور السير جارلس ليونارد وولي. السير أصيب في الأول من أمس بتيفوئيد جراء حرارة شمس الظهيرة التي ضربته ونحن منهمكون في الحفر فأوكل لي مهمة الإشراف على العمل. سلَّمني الملف لتطبيق خطوات ارتآها بالأمس حين جلسنا نتحاور، عند منضدة جوار سريره.. التاريخ سيكتب عنه أنه مكتشف المقبرة الملكية في أور.

افرد الملف فبانت على أوراقه آن شرع يقلّبها خطوطُ مستقيمة وأخرى متعرجة وأخرى منحنية. مثلثات ومربعات، ممرات وتقاطعات. تأشيرات بأسهم، ودوائر، وأسطر كتبت بخط يده راح مالوان يقرأها عندما سمعنا تحية لصوت نسائي.

نهض طه باقر محييّاً، يردد: مرحباً سيدة مالوان.. مرحباً سيدتي.

مال باقر على اذني وهمس: هذه اجاثا كريستي مؤلفة رواية جريمة قتل في بلاد ما بين النهرين، وعشرات الروايات البوليسية.

ذهني شرد عما راح مالوان يُكمله. شرد يطالع ذلك الوجه الأحمر والعينين الزرقاوين وراح الى الأنامل البيضاء فارتسمت مشاهد رقص القلم على الورقة ليخط روايات فيها من الحبكة ما يثير الدهشة ويبعث على الإعجاب.. قليلاً وقطع شرود ذهني مَن انتصب أمامنا فجأةً.. والذي انتصب كانَ بقامة طويلة وقبعة دائرية وعصا سوداء من اكسسوارات بدلته الإفرنجية الزرقاء وربطة عنقه المخططة باللونين الأحمر والبنفسجي. لم يهمس طه باقر من اجل تعريفي إنما مالوان هو الذي رفع نظره من الأسطر وخاطبني: "هذا المنقب الألماني كولدوي. لقد بدأ مشروعه التنقيبي في بابل، وله فيها اكتشافات باعثة على الدهشة.. ذكي وصبور.. مغامر ومجازف".. طالعت وجههَ مُرحِّباً. ابتسم الرجل حين عرفني هارباً من سجن. تعاطف معي من خلال نظرة أسى سكبت حناناً.

قال: يا لعذابات السجناء، ويا لبؤسهم. على مدى العصور، وعلى مرِّ الأزمنة هُم آلام الأرض من قسوة البشر وحقد الآلهة. صرخاتهم المتفجرة من صدورهم المهشمة نغمات تمتع الآلهة وتشفي غليل الحكام العتاة. الآلهة والحكام شياطين؛ و"الشيطان هو إله هذه الدنيا"* في لاهوت بولس الرسول.. لهثوا وراء المتعة فأوجدوا مومسات المعابد والقصور. أجساد اختيرت للمضاجعة باسم إراحة الآلهة وعدم إغضابها.

فـروج أريـد لهـا أن تُقـدَّس بتبريـك كـاهـن يتقـرب إلى إلـه. هيمنـت الآلهـة كـي تسـتعبد البشـر. الآلهـة صـناعة الأقويـاء لتطويـع الضـعفاء، لإذلال الفقـراء، لجعـل المـرأة وعـاء متعـة، وفاكهة مُستلذَّة، وكأس نبيـذ معتَّق يـؤجج النشـوة ويبـارك العظمـة.. المعابـد بيـوت مقدَّسـة لـدعارة تأخـذ طـابع العبـادة، وطقوس القداسة.

رفـع إصـبعاً وأومـأ إلى أضـابير تسـيل مـن اسـطرها آهـات الإنسانية المعذبة، قال عنها انه لم يترك شاردة وواردة مما لاقاه البشـريون المسـحوقون إلا ودوَّنهـا. أطلعـني علـى جـزء مـن مجـرى حياتك، يا سيدي.. قـال: اسـتهواني التنقيـب في ارض الرافـدين، وكانت رغبتي تحديداً في بابل.. تحققت الرغبة فوهبتها ١٨ عاماً من البحث والحفر والاكتشاف. تركتُ مدينة أسوس في إقليم مليسيا التي تقع في آسيا الصغرى وكنت قد وصلتها عـام ١٨٨٢ وأنا بعمر ٢٧. كنت مأخوذاً بلهفة اكتشاف قصـر الملـك "ساردا نابالس" وانتم تسمونه "آشور بانيبـال". هـذا القصـر بنـاه في بابل مع انه يدير مملكته من مدينة آشور.. لعظمة هـذا الملك كبر في عقول الرومان فنسجوا حوله اسطورة سميت باسمه. مالـت أجاثـا كريسـتي نحـوي. قربـت فمهـا مـن أذنـي حتـى تحسست أنفاسها تمر على خدي فيستنشق منخراي بعضاً منها فيما تتحسس شفتي أطرافها.

قالت: بودي لو تطلعني على حيثيات سجنك. لماذا سُجنت وماذا فعلوا لك؛ ما مجريات الأحداث التي مرت بك وعقوبات مورست معك... حدثني عمّن كان يشاركك الاعتقال والعذاب، وصف لي هيكلية سجنك وزنزانةً كنت بها انفراديا أو مع أقران لك من السجناء، فلقد انتهيت من رواية لقاء في بغداد توّا، وسأجعل روايتي القادمة بعنوان سجين في بغداد. أريد التخلّي عن حبكة استحداث جريمة غامضة وتفريق الخيوط مقرونة بالشكوك والاحتمالات والتوقعات ثم تجميعها واكتب رواية معاناة وألم وحرمان وحزن وخوف ورعب مقابل جبروت وظلم وفساد وجرائم وانتهاك وقتل.هل تساعدني فأكتب رواية تتقدم على جميع رواياتي السابقة؟

بكل جوارحي، وما لدي من عزم هتفت: نعم أنا سجين بغداد. كنت المليء بالطموح، المفعم بالأمل. أرسم الغيوم فراشات تمطر علي هفهفاتها فأشرع بالتحليق معها. أنتقل من زهرة لزهرة، ومن استقبال عذب لميسم لاستقبال ميسم ثانٍ أكثر عذوبة.. تنادي علي ألوان الزهور باعثة رسائل من إشراق ربيعي مبهر.. الطموح ديدن بشري وفضول لا ينقطع من حب الاكتشاف.. الأمل قصيدة تجمع أبجديات صنع المستقبل بكل ما يحشد من مسرات وانفتاحات، وجذل. وأنا أمامي عالم يفتح قلبه فتيّاً، طرياً، حييّا؛ ودنيا ترفل

فتـاةً مغنـاج تنتظـر عشـيقاً تمنحـه كـل لـذاذات جسـدها وأنوثتها الشبقية لتجعل منه لافتةً للهناء لكن العسف والجور والروح البدوية المجبولة على الغيلة والغدر والملطخة بـأمراض الحقد والبغض والكراهيـة كلها تجمعت وحُشدت لتطيح بالآمال والأماني فتخلف وطناً ينوء مواطنوه بالضياع والتعثّر.. كل الشعوب والأمم يا سيدتي تتحضَّر الا مجتمعنا البدوي الضارب في صحراء الغباء والهباء والتقهقر للوراء.

ضحكت ضحكة دفينة، وسمعتها تتمتم: هذا الهجوم الكاسح على أمتك لا يـأتي إلا على إيقـاع قسـوة خارقـة مورسـت معك.. حقّاً أنتَ خزين ثـر لرواية سـأكتبها بوقت قياسي ويسير.

❖ من لقاء مع فراس سواح عن كتابه (الرحمن والشيطان) يشير: في لاهوت بولس الرسول، الشيطان هو "إله هذه الدنيا" [الرسالة الثانية إلى الكورنثيين ٤: ٤]، هو سيد هذا العالم و"أميره". ويسوع المسيح، في أحد أقواله، وَصَفَه بـ"رئيس هذا العالم" [إنجيل يوحنا ١٢: ٣١].

الثوران المجنحان

بهيمنـةٍ تبعـث علـى الرهبـة، وتـثير في الـنفس الخشـوع انتصب ثوران مجنحـان؛ رأسـاهما بشـريان يحمـلان قسـمات الملوك بقلنسوات قطنية مطرزة بخيوط حرير، وبلحى طويلة؛ والجسـد بجنـاحين خـافقين يبـان ريشـهما واضـحاً تعكـس عظم موهبة من قدمه كريش حقيقي لنسر في يفاعته بينما الأفخاذ ممتلئة والأرجل واثقة الوقوف، مستعدة للانطلاق.

عظمة بكبرياء؛ هيبة بتحفّز، رشاقة ببهاء.

كانـت القاعـة مسـتطيلة، عاليـة السـقف وفارهـة؛ ينتصـب وسطها بهيبة تبعث علـى الاحـترام والجـلال الملك آشـور بانيبـال. كفّـاه مضـموتان لصـدره يعلـن خشـوعه للإلـه أنليـل.. الجـدران احتلتهـا علـى الجـانبين مشـاهد معـارك وحمـلات قادهـا لبسـط نفوذه على بلاد ما بين النهرين وانحداره شرقاً لاحتلال مملكـة عـيلام وتحطـيم ملكهـا وتـدمير جـبروتهم وإخضـاعهم عبيـداً لمملكة آشور الأبد... اسـترجع مشـهد حلـم مسترسـل كـان فيـه على حدود مملكة عيلام يقف إلى جوار القائد الذي بعثه الملك آشور ليهاجم الحدود الجنوبية لعيلام وتأديب عصابات كانـت تنطلـق مـن أراضـيها بعـدما شـكا المواطنـون مـن غـاراتهم المتكـررة وتضـرعوا للملك آشـور ان ينقـذهم ويـرد الاعتـداءات. كـان القائد وقادة سراياه يقفون متأهبين؛ منتظرين عودة تيمـور

الذي بعثوا ليستطلع حال العدو: أرضاً وجيشاً وعدةً واستعداداً ومقدرةً. القائد وقادته الأدنى وقفوا يطالعون سلسلة تلال على مرمى بصر، ممنين النفس بما سيكسبون من أخبار ينقلها تيمور. لكن تيمور لم يرجع رغم مرور ثلاثة أيام فأيقنوا صعوبة مهمّة تولاها ودقّة أمر أنيط به تحقيقه. صرخات الأعداء الذين اتخذوا من أعلى تلّ مكاناً، وما أعقبها من قهقهات أثارت انتباه القائد والمرابطين معه من قوات.

غب لحظات ارتفعت يدٌ لشاب فارع الطول تقبض على حزمة شعر طويل لرأس بوجه مدمّى ما زال الدم يقطر من الذقن ما يشي بحقيقةِ فصله عن الجسد قبل لحظات. رفع هذا الشاب الرأس ثم ثبّته على طرف رمح وصار يرفعه الى أعلى كي تشاهده جميع الأعين.

كان الرأسُ لتيمور. والعينان المغلقتان بأجفان مطبقة ورموش سوداء متشابكة عيني تيمور. والدم الأحمر الداكن الذي يقطر من الذقن دم تيمور... أما الشهقة المتفجرة من صدر امتلأ ألماً فشهقة والد تيمور المنتصب على يمين القائد والذي يشغل منصب مستشار. لم يشاهد ملامح الابن عن بعدٍ إنما القلب أعطى إشارة اليقين.

القائد حسِبَ اكتشاف تيمور وقتله فعلاً نمَّ عن ذكاء الأعداء ونباهة عيونهم الراصدة والمنبثة في الأزقة والدروب،

وبين التجمعات البشرية. لأن تيمور كان كما قال في سره يتقن لغتهم ويعرف دروباً مختلفة للوصول الى القرى والمدن والعيش فيها دون إثارة هاجس أحد؛ وما حصل لابدَّ من أنَّ الأعداء لديهم عيون في صفوفنا. وما الإمساك برجلنا الشجاع إلا بفعلِ خيانة.

مقتل تيمور وبهذا الاستعراض الساخر دفع بالقائد للتراجع.. تراجع جعله يعقد اجتماعاً سرياً اقتصر على مساعده والد تيمور وأمراء سراياه، ثم انتهوا بعد نقاش سادته التخمينات والاحتمالات لقرار متابعة المقرَّبين نزولاً للقاعدة. وفي المساء كتب رسالةً وجهها لملكه آشور بانيبال يصوِّر له ما حدث لتيمور ويعلمه أن ثمة مندَّسين ينقلون أسرار المملكة إلى عيلام، وثمة مَن أوقع به.

فحوى الرسالة فهمها الملك آشور استهانة من ملك عيلام وإشارة لقدرة جواسيسه النفاذ والوصول الى اية بقعة من المملكة الأشورية.. رسالة القائد المرابط على حدود عيلام ولدت غضباً قاهراً في قلب الملك فراح يقطع قاعة الاجتماع طولاً وعرضاً وسط تصالب عيون القادة والحكماء على مشهد انفعال لم يروا قبلاً له يحدث لملكهم.

الملك في لحظة حوار مع النفس انتفض بغتة..

شرع يطالع العيون الدهشة قبل أن ينطق وهو يدق

بصولجانه الخشبي المطعم بالزمرد والأصداف على الأرض الحجرية، وقبل أن ينحني للإله أنليل ويتمتم بكلمات لم يسمعوها: أقسم ألا أترك لعيلام وجوداً، وسأجعل ملكها مخلوقاً ذليلاً.. سأستعيد تمثال الإلهة إنانا فأطلقه من أسر عقود السنين الطويلة والثقيلة.انتظري يا إلهتي الجليلة النبيلة. سأحقق رؤيتك في أنني الذي سأخرجك من أسر عيلام البائسة. سأجعلك معززة مكرمة في معبد إي أنّا.

على وقع انفجار هائل استيقظَ. ما جرى في الحلم جاء تجسيداً لصفحات طالعها من كتاب "الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور" مرَّ على معظمه في قاعة المكتبة بمساعدة ضوء كانت تجود به النوافذ العليا من نهار ساعات العصر.

بعيداً عن الحلم ولملمة أحداثه فإن ما اقسم على تنفيذه الملك آشور قد حدث.. إذ جلب ملكَ عيلام غب حملةٍ مثاليةٍ ومُحكَمة ذليلاً وأودعه في مدينة اوروك، ثم اصدر أمراً بتوزيع جنوده الأسرى على المعابد والأعيان والموظفين كما توزَّع الشياه.. وإذا كان من السائد والمألوف أن يُدنِّس المنتصرون معابدَ العدو فليس من المألوف ولا السائد نبش المقابر الملكية ونهب محتوياتها. وليس مألوفاً جعل المدينة موطناً للحمير الوحشية والغزلان ووحوش الفلاة.

أعاده هذا المشهد إلى ما فعله سرجون الآكادي هو الآخر

بعيلام قبل الملك آشور بانيبال وكيف أحالها خراباً يباباً على يد قائده رتي- مردوخ.. تخيّلَ كبرياء سرجون وأمره لكاتبه ان يحفر على رقيم طيني كل ما أنجزه تحقيقاً لخلوده بما فعل وما صنع من ويلات على من كان يراه عدواً.(*).

---

* "لقد دمرت زقورات معبد سوسة الذي كان مبنياً بالطابوق المزجج، كما أحرقت قبابه المستطيلة التي كانت من البرونز اللماع ونقلت إلى بلاد آشور- شوشيناك- آلهة الكهانة في عيلام والذي كان يقيم وحده في مكان منعزل، ولا يستطيع احد من البشر أن يرى أعماله؛ هذا بالإضافة إلى الآلهة والإلهات الصغار والثروات. لقد نقلت اثنين وثلاثين تمثالاً للملوك من ذهب وفضة وبرونز ورخام مع التماثيل الكبيرة التي كانت تحرس المعبد، وكذلك الثيران التي كانت عند الباب. لقد دمرت معابد- عيلام- تدميراً تاماً، ونثرت آلهتها مع الرياح الهابة من الجهات الأربع؛ ودخل جنودي بساتينها المقدسة والتي لم يسمح لأحد بالمرور فيها، كما لم يسبق أن دخلها غريب، وهتك جنودي ستار تلك البساتين وأحرقوها، أما أنا فقد نبشت قبور ملوكهم الغابرين واللاحقين لأنهم لم يحترموا آشور= =وعشتار، تدميراً وجعلتها خاوية خالية مفتوحة للشمس، أما عظامهم فقد حملتها إلى بلاد آشور بعد أن تركت أشباحها دون راحة والى الابد، وبذلك حرمتها مما يقدم لها من ماء وطعام"... الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، جورج كونتيلة، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٩٧٩، ص٢٦٨

المقهى

استيقظَ صباحاً. التقويمُ اعلمَهُ باليوم الثامن من نيسان. نظرة من نافذةِ الغرفة كشفت له خلوَّ الشارع من العربات وبقاء أنفاس بشرٍ معدودين يرتكبون فعلَ الحماقة. الحال لا يطمئن أبداً. الأمريكان على بعد شوارع قريبة لا محالة. قصفُ الطائرات بنوبات زمنية مع هديرٍ متواصل حدث طيلة الليل يشيان بإحكام قبضتهم على العاصمة.. قلقٌ ممض تصاحبه حرقةُ مَعدِة شرعا يتفشيان بأحشائه. لا يعلم أنَّ القواتَ الأمريكية اختارت المطار الدولي كهدفٍ يجب احتلاله وأنَّ ديفيد بيركنز قائد الهجوم على بغداد أوكل لضابطه سكوت راتر مهمة الاقتحام وأنَّ ثمّة معركة ضارية أبادت قوات الحرس الجمهوري الضاربة للرئيس صدام، وأنَّ الدروع والدبابات المهاجمة تركت وراءها الهدف مُحتلاً زاحفة نحو قلب بغداد.. لا يعلم أنَّ ثمة ساعات لا غير وستكون عاصمة الرشيد بامتدادِها البنائي المنبسط على ثلاثين كيلومترا طولاً وعرضاً ستكون بقبضة قيادة أجنبية محتلة.. لا يعلم أنَّ قوات هبطت في كركوك لتحتل منابع نفطها، وأنَّ قوة دخلت غرباً عن طريق الأردن لتؤمِّن سيطرةً جوية ومعلوماتية كي تكون خارطة الوطن جسداً تؤشَّر عليه أسهم من خارجه ورؤوسها تتجه وتشير إلى داخله

كأعصاب مفصلية تشكّل كمّاشة مُحكَمة تقبض على رقبة الوطن كقبضة كف على ثمرة كمثرى.. لا يعلم أنَّ قوات من المارينز عبرت نهر دجلة من الشرق ودخلت مدينة الكوت واتخذت طريقها بيسر باتجاه بغداد.. لا يعلم أنَّ كابوسَ فيتنام على أمريكا انتهى، وها هي سفن قراصنة يقودها قرصان يانكي أعور منّى النفس طويلاً بتحقيق عرسٍ انتصار على فتاة صاغرة. أُنهِكت جوعاً، وشُلَّت مقدرةً، وأُفرِغت جمالاً، وطُعِنت تاريخاً، وهُدَّت كياناً، وأُشبِعت كمداً، وأُزيدت حزناً، وأُهلِكت تعثراً، ومُزِّقَت قلباً، وأُحرِقت دواخلَ، وأُريد لها أنْ تكون مها عليلة، ذليلة تتخلّى عن جمالها قسراً وتفقد زينتها على مضض، متلقيّةً العلل تلو العلل بلا اتِّقاء ولا حَذر.

بالأمس حين ساوره شيءٌ من الحنين الاجتماعي صعد لسطح المتحف؛ ومن الفسحة التي تبيحها له هياكل محركات مكيّفات الهواء المنصوبة استطاع متابعة حركة الناس، على قلتهم.. ركّز نظره على بائع شاي، مقهاهُ دولابٌ حديدي ببابين ومنضدة خشبية مستطيلة يضع على جزءٍ منّها الطباخ والجزء الآخر يسطِّر أقداح الشاي. وإذ ينتهي من عمله ويشحَّ حضور الرواد يرفعها فيضعها فوق الدولاب؛ وإلى بيته يتَّجه. مقهاه هذه موضعٌ من ضلعٍ لمدخل زقاق وأربع

كـراسٍ جعلـها علـى رصيف الشـارع عنـد واجهـات محـلات مغلقـة لمصلحي طبّاخـات ومـدافـىء وبـائعي منظفـات منزليـة.. معظـم رواده رجـال شـرطة نجـدة يمـرّون في واجـب دوريـات مستمرة فيتوقفون، فيهبطون مـن سـياراتهم فيرتشـفون شـاياً ساخناً يبدّد مرارة تملأ أفـواههم. بعـدهـا يسـتقلون السـيارات من جديد وينطلقـون. أحيانـاً يشـاركون شـباباً يخرجـون مـن الأزقـة المجـاورة، يجتمعـون لا لشـرب الشـاي فحسـب بـل لينفِّسـوا عـن ضـغوطات انحباسـهم الطويـل في البيـوت. يحضرون ليتشربوا من نـكـات يطلقها صانع الشاي. يراه من بعيد يتوسط الزبائن ويروح يؤشِّـر بيديـه ويهـز رأسـه فينفـرط عقدُهم المنصت بضـحكات عاليـة تصـل مكـان تطلعـه. إنـه يمتلك روح الدعابة كمـا يظهـر فيتعـالى بنكـاتـه علـى قسـوة الحرب ومعاناة تجترها المهج المحترقة والنفوس القلقة.

لحظـة التحـديق والمتابعـة سمـع احـدهم ينـادي علـى كتلـة سوداء تتحرَّك وحيدة ذاهلـة: تعـالي يـا أم راجحـة.. تعـالي اشـربي شاياً على حسابي.. أم راجحة امرأة طويلة القامة ونحيفة كـأنهـا جذع نخلة متفحمة، عباءتها موحلـة كـأن لم يمسسـها المـاء ولا مساحيق الغسيل. تحمل صرّةً قذرةً لا أحـد يـدري محتوياتهـا. أم راجحة ما أن تشرب الشاي ويتوجه أحدهم بالسـؤال عمـا تحويـه صـرتها حتـى تبصـق عليـه وتـروح تتهـال بالشـتائم والكلمـات

النابية وبصوت عالٍ غير مبالية بما سيحصل.

توقفت سيارة أجرة ودفع أحدُ ركابها رأسَه من النافذة. تفوّه كما يبدو بسؤال عمّا تفعله امرأة في ساعات الجحيم المتواصلة بلا انقطاع. يرفع أحدهم يده ويروح يدير أصابعه باستدارة ثم يرفعها قريباً من رأسه دلالة أنّها مختلة العقل ومجنونة. ما كان اختلال عقل أم راجحة عضوياً ولا هي وريثة جنون من سلالة وأسلاف إنَّما حادثة قطع رأس ابنتها راجحة في حملة السيد الرئيس الإيمانية؛ تلك التي نفذ خلالها انتقامه من النساء بعدما شرب وعلى رواء دماء الشباب عند صخرة حروبه المتتالية وقرارات إعدام صفوة أبناء الوطن أو اختطافهم وتغييبهم للأبد.. ففي واحدة من حماقات لا حصر لها أمر بقطع رؤوس من يمارسن البغاء بوطن لا ترفرف في سمائه كما يخيل إليه غير السعادة ولا تنعم عائلاته بغير الرفل على خميلة الهناء؛ أما الحصار فليس إلا كذبة نيسان سعت الدول العظمى للعبها.. ذلك الصباح الأرعن طُرِقت باب الخشب الواهية، وخرجت المرأة الخمسينية بوجه اصفر كالليمونة، وعينين ذابلتين، وشفتين زرقاوين، وعباءة موحلة ومرقعة تستقبل الطارق. ولم يكن الطارق واحداً بل ثلاثة انزلوا كيساً أبيض من سيارة بيك أب عند قدميها. بعدها ركبوا السيارة وانطلقوا.

ظنتهم فاعلي خير قدّموا لها صدقةً بلا تبجّح ولا إشهار على طريقة فاعلي الخير المؤمنين المقتدين بأخلاق الرسول الأعظم عبر إعطاء الصدقات صمتاً؛ حتى إذا فتحت الكيس وحدَّقت في المحتوى صرخت صرخةً مكتومة، وبجهد عمرها العاجز ترجَّت اللّه أن يهبها الصلابة لتحمُّل قسوةِ المشهد. تلك اللحظة، متحاملةً بما لديها من طاقة، سحبت الكيسَ وأغلقت الباب، هرعت الى الزوج القابع في الغرفة عليلاً من شدة الجوع تخبره بالمصيبة وتطلب منه كتمان الأمر خشية الفضيحة دون أنْ تدري أنَّ عيونَ الجيران أدمعت وقلوبَهم تكسَّرت وهم يتناقلون خبر ما تفتَّق به عقلُ الرئيس القائد في صونِ وخدمةِ حرائرَ العراق.

***

في لحظة رغبة تجوال، ومن مكانه جلوساً على السرير شمَّ رائحةَ جسدِه تنفذ برغوةٍ تُدلّه على زنوخة تشبه تلك التي يشمّها مَن يدخل سوق للقصابين أو علوَة للسمك. لم يستحم منذ دخل المتحف قبل خمسة أيام، والجسد الراغب بحمّام ساخن يزيل عنه بثور أشهر الاعتقال انتفض فجأة معيباً عليه هذا التأخر والإهمال. الدوش الذي سكب فوق رأسه ماءً بارداً اقشعر له جسده سرعان ما استحال ساخناً رغم انقطاع الكهرباء نهائياً اليوم الفائت. ماءٌ ظلَّ يحتفظ بسخونته في خزّان البويلر. أنعشته

رغوةُ صابون أخذها من المغسلة فأشعرته بذوبان جلد خارجي كان يسربله. مررَّ أصابعه بين طيّات شعره فضحكت جوليا. مررَّت هي الأخرى أصابعها في شعره ثم راحت تسكب سائل الشامبو على هامته وتفرك شعره وسط رحيل هناء غامر. يصله عطر جسدها من بين رغوة الصابون. شقّتها صارت ملاذاً له كلّما ضجر من جوٍّ غرفته في شقة يشاركه بها طالبان هنديان يدرسان في كلية اللغات بجامعة ليدز. كانت رائحةُ دهن شعرهما تثير حساسيته فيوشك على الغثيان. يعرض عليها غب انتهاء محاضرات ما بعد الظهر ارتشاف قدحي بيرة على مهل ورواء فتدرك بمجسّات العاطفة رغبته في مصاحبتها وصرف الليل بشقتها.

الصعود لسطح المتحف آخر مرّة كشف له خطورة الموقف. أظهر له أنفاراً قليلين يخرجون من أزقة الشوّاكة. يعبرون الشارع. يقفون في الرصيف الملاصق لجدار المتحف، يتبادلون الكلام. لا يرغب المجازفة بدفع رأسه ومشاهدة وجهتهم.. قليلاً ويعودون فيدخلون ازقّة خرجوا منها، ويختفون. بائع الشاي الذي استمتع بمطالعته يوم أمس مبدِّداً الوحشة وهو يلبّي حاجات الزبائن لا أثر له هذا الصباح.. كان بعض ممن اعتاد رؤيتهم يجلسون على كراسيه يقتربون. حين يلمحون المقهى مغلق يستديرون عائدين من

حيث أتوا. بين حين وحين تمر عربة لاندكروز بيضاء مضللة فيدرك أنها لبقايا رجالات أمن السلطة. لا يدري إن كانت تحمل عناصر منهم فعلاً أم كان السائق لوحده يلف الشوارع بأمر من بقايا القيادة الهاربة المتوارية في مسعى لإظهار أنَّ السلطة ما زالت تقبض على الموقف، وأنَّ العدوَّ بعيد، لا يجرؤ على الدخول الى وسط بغداد.

المسيبيتميا

استيقظ فجراً.. أمطارٍ ترشق النافذةَ المغلقة وخيط ماء بلون التراب يتسرب من ثقبٍ بمحاذاة إطار النافذة المسوّر بشريط إسفنجي تشبع بالماء ثم انساب بفعل قوة مجرى السيل. اعتدل في جلسته على السرير. شاهد فتاة التقويم بغير ابتسامتها المعهودة. فرك عينيه باستغراب، ونهض.. استقبله الرقم ٩ ودعاه لأن يشطب بالقلم رقم اليوم الفائت. حدّق أكثر بفتاة التقويم. بانت تقاسيمها لا تشبه ما اعتاد على رؤيتها. انحى ذلك على مزاجٍ له حسبه متعكِّراً نسبياً. كان قرأ يوماً أنَّ ابتسامة الموناليزا تُقاس بمزاج الرائي لها. فسيكتشفها تبتسم بابتسامة عريضة لحظة يكون المتطلِّع لها منشرحاً ومسروراً، وسيراها كئيبةً حين يطالعها مَن تقدم اليها ضجِراً وكئيباً.

تحرك خارج الغرفة يستطلع البهو؛ ألفاه ما زال يحتفظ بعتمة الليل. عاد فدخل الغرفة وتوجه نحو النافذة. أشرع بابها على سعته. تلقى رشقة مطر بللت وجهه وأشاعت حالة من الانتعاش في روحه. لاحظَ أرض الحديقة غارقة بالماء، وشجرة الزيتون التي آوته تلك الليلة / الحلم تستحمُّ عاريةً وقد تخلَّصت من كتل غبار أحمر علق بجذعها وأغصانها وعكّر جمال أوراقها الخضر جراء عاصفة ضربت البلاد طولاً وعرضاً قبل ثلاثة أسابيع. عاصفة أعاقت تحرك القوات المحتلة الضاربة في عرض الصحراء اتجاهاً إلى العاصمة. شاهد جدران مبنى البريد ودائرة الموانئ تمتص سيل القطرات الهاطلة لتحتفظ برطوبة أنهت لها عطش سنين عديدة لم يصلها ولا حتى ماءٌ رذاذ.. شاهد صف لافتات نقليات الركاب في الصالحية فتذكَّر سفرته من مكتب سفريات المدينة قبل ستة أعوام. صعد حافلة من نوع نيسان إلى عمّان؛ ومن هناك طار للندن.

رصاص قريب من أسلحة مورتر وقذائف دبابات قريبة خمنها تدخل القصر الجمهوري أو تأخذ طريقَ النهر لتعبر جسر الجمهورية لترابط في ساحة الأمة تحت نصب الحرية تماماً.

خرج مسرعاً يدور في الأروقة، ويندفع الى القاعات. قلبه

يعتصر وهو ينظر للتماثيل والنصب والشواهد والمقتنيات.. دخل القاعة السومرية، ثم الآشورية.. اقتحم القاعة الاكدية وهرول صوب الأروقة والممرات؛ إلى سرجون وشلمنصر، إلى نبوخذنصر وأور- نمو؛ إلى جلجامش وأنكيدو؛ إلى نابو بولصر وآشور بانيبال؛ إلى تجلت- بيلسر وآشور ناصربال، ولوكال زاكيزي.

خيل إليه اللحظة ًأنَّ حمورابي يرتعش أمامه، يتضرع للإله مردوخ أن ينجي بلده من الأعداء فالعدو متجبِّر وقاسٍ ورهيب. ويشاهد نرام سين يتقهقر هبوطاً إلى وادي الهزيمة بجيشه الذي اعتلى صهوات الجبال ويتبعثر مقاتلوه كديدانٍ مرتعبة. ويلمح سرجون عائداً إلى أكد يجر أذيال خيبة لم يحسبها، وجسد نالتهُ طعنات سيوف لامعة وانهالت عليه سهامٌ كالمطر بينما كوديا يرتعب من تزاحم الطائرات الناعبة فينكمش أكثر بجلسته التي لا تشير إلى تضرعٍ لإلهٍ بل تعبير عن هلعٍ تسبّبه ترددات قذائف الدبابات المهولة، وخشية من سحقٍ ستفعله القذائف المتساقطة مرةً كالمطر وأخرى سقوطاً مروِّعاً ترتج له جدران المتحف وتهتز الأرض حتى لتكاد أنْ تهشّم صناديق الزجاج التي تجمع مقتنياتهم الثمينة وارثهم النفيس.

يقف عند الثور المجنَّح فيشبّه له أنَّ الروح تدبُّ فيه،

والغضب يأخذ منه مأخذاً، وشعور بالكبرياء يكتسحه فيهمُّ بالانطلاق كي يحطّم بحوافره دبابات المحتلين ويسحق رجالاته الغازين ليعيد لبغداد هيبتَها التي فرَّط بها الجُناة.

في الخارج كانت حشائش حديقة المتحف تنمو بعبثٍ وبغير اتساق (لقد أهملها الجنائنيون منذ أول لعلعة رصاص سمعته بغداد). وفراشات نيسان الجذلة غابت (فراشات راعشة اعتادت الهفهفة كل صباح من فوق شجيرات الآس الكثيفة العاملة صفاً يسيّج مساحة الثيّل المستطيلة). عاملاتُ النحل التي تبكِّر في التوجه لزهور أشجار كالبتوس توارت.(تشكِّل أشجار الكالبتوس سوراً أخضر يعلو على السور الحديدي الموحل الطلاء، المحاذي للساحة الحاضنة نافورة الجِرار التي حوِّلت يوماً الى نصب المسيرة).

الساحة كانت خالية وصامتة ستصلها بعد الظهر سرفات مجنزرات تتحرك ببط قليلاً ثم تتوقف، فيتوقف عنده صوتُ الحرب محاولاً الأخذ به عن الأصوات الهادرة والمرعبة. أصوات كانت اكتسحت ساعات الليلة الماضية بطولها وعرضها. وقتها ظنَّ بغداد ستُصبِّح على بانوراما خراب مطبق ودمار كاتم لكل نأمة حياة: شوارع تفتقد هويتَها، وبنايات ينهار جبروتُها، ودم يتدفّق جرياناً يحكي نهر أناس سُحقوا تحت هول الانهيارات، وما تبقى منهم ستلتهمهم قذائف ظلت مستمرةً في

جنونها العابث لا تعرف التوقّف أو التأني، ولا يوجد ما يشير إلى انتهاء مطرِها الماحق. أناس قُيّضَ لهم أن يعتاشوا على موائد الضيم، وعليهم أن يتقبلوا التهالكات المتوارثة.. صاغرين، صابرين.. خُلقوا كي يكتبوا حزن البشرية ويمارسوا فعل التقهقر.. توارثوا تلقّي النكبات على أملِ شمسٍ ستأتي تنير، ومطر يتهاطل ليمحو جدب الأيام.

تمنى لو أن فراشات الضحى الفتية اقتحمت فناءات المتحف المغلقة وقاعاته بأجنحة نورانية حانية ولكن ليس بهذا الزمن المأساوي.. لا يريدها بضع فراشات، بل عشرات.. غيوماً تمنّاها، مهفهفة بأنغام مائية رائقة.. موسيقى تطرق بذبذبات التحليق العذب على باب قلبه.. حفيف يشبه دغدغات أنامل رخيّة على بطن طفلٍ ينتظر مفاجآت الدعابة.. استيقاظ دائم من رقاد الكون الكابوسي والنهوض بإشراق نوراني؛ ينهي عتمةَ القدر ويمحو من مملكةِ الروح مسلسلَ عذاب أثقلها. لكن الأمنيات بناتٌ يافعات كلّما هممنَ بالرفل والميس على خميلة الهناء نعبت في الفضاء غربانُ البغض، وانقضّت عليها صقور الحقد، وأطفأت عيونَها مناقيرُ بومات الحسد.

ينكمشُ ألماً، وينطعنُ قهراً.
يكتئبُ كمداً، ويتقهقرُ يأساً
يتراجعُ مخذولاً نحو الأروقة والقاعات.

ضبابٌ كثيفٌ يتعالى في قاعة آشور؛ غيّب الثورَ المجنح. ضبابٌ ينفثُه جسدُ الثور الحجري. ضبابُ غضبٍ واستعدادٍ لردّة فعل.. الثورُ المجنَّح طفقَ يستعيد حيويتَه. اهتزَّ رأسُه وتحرَّك جناحاه. صهيلٌ هادر ملأ قاعةَ العرض. استدار برأسه نحو آشور بانيبال الخاشع إلى الإله أنليل بكفّين مضمومين على الصدر وانحناءة رأس يرجو بركاته وإدامة سطوته على بلاد ما بين النهرين وعيلام وبلاد الفينيق.. أنليل كان غاضباً لسماع الهدير المتواصل ليلاً والقصف يقض نومه ويزعجه. أنليل كان حانقاً على أعداءٍ بشريين قدِموا ليدكّوا حصونَ أتباعه ويدمروا مملكتهم ويذلوا شعبهم. أنليل يذرعُ الفضاءَ رواحاً ومجيئاً يفكِّر كيف يتصرف ليسيطر على الموقف ويجعل مريديه يمتلكون زمام القدرة على مقارعة عدوِّهِم ودحره. أنليل حائرٌ ومرتبكٌ وعاجز؛ فالأعداءُ آلهةٌ جدد، كما يبدو، يمتلكون ما يعجز عن امتلاكه، ويتقدمون غير آبهين لعظمته وكبريائه وجبروته... جنود يتوزعون على جغرافية تواجه المطار.. جنود كانوا تخلصوا من عاصفة حمراء هوجاء أخرست الرادارات المثبتة على الحدود، جنوبها وشمالها وغربها، أو تلك المحمولة على عربات متحركة ترافق حركة الآليات والجنود.

عاصفة ألغت وضوح الشفرات المقدِّرة للمديات بصورة

دقيقة لا تخطئها الأشعة الليزرية. عاصفة!.. عاصفة!.

كتب أحد الجنود المحتلين في مذكراته:

"إنَّه نهارٌ مصبوغ بالأحمر، وهواء يحمل غبار يطير من بحيرات رمال خرافية آتية من أساطير يحكيها جنٌّ لجنٍّ فيرسمها نهاراً مشحوناً بالرعب، وفضاءً كلّه خشية... نحن لا نخشى المحاربين العراقيين. الطبيعة هي التي تحاربنا." بينما كتب جندي آخر رسالة الكترونية لصديقته التي وعدها في الليلة الفائتة ان يصرف الليل بطوله يحادثها حيث يكون الزمن نهاراً عندهم في أمريكا:

"أنا الآن لست عسكرياً يقاتل من أجل احتلال بلد. أنا ممثل انيط له ومجموعة من ممثلين يصاحبونني دور في فيلم من أفلام هوليوود. إننا نلوذ بعربة مدرعة والمخرج أوعز منذ بزوغ الفجر بفتح مولدات ضخمة تدفع بهواء مجنون يثير عاصفة حمراء تجعلنا نترنَّح كسكارى، ليس لنا سوى خلفية العربة نحتمي بها من عصف الريح المتكينن وغبار الأرض الذي هو في الواقع رمال تشي بصحراء لا نعرف لها مثيلاً في أمريكا.".

المطار، ميدان لقتال حقيقي. احتسبت له كل الحسابات، وهيئت له كل المتطلبات.. انليل يرى.. أنليل يطالع من رأس تل تتجسَّد له ارض المعركة صريحة وواضحة.. يرى إلغزاة يطيحون بهيبته فيظهرونه لعباده شائخاً

وبائساً وقميئاً. أنليل يضرب على صدره بقبضة كفّه مرات ومرات ليطلق جنوداً لهم أول وليس لهم آخر يقاتلون بمعنويات خرافية إلى جانب مليكه آشور بانيبال؛ لكن ليس ثمّة جنود!؛ ولا معنويات !.. هناك ضراط ينطلق من مؤخرته وبصاق سخرية تدفعها فوهات مدافع الأعداء وذروق تنفثها طائراتُهم، تلوِّث وجهه المتشرب بمساحيق الهيبة الكاذبة فتظهره كياناً هوائياً، مزيفاً.

.. تخلَّص أشور بانيبال من تحنيطه. مدَّ يداً تسحب سيفاً من غمدٍ بين إبطه وخصره. ندَه على الثور المجنح ليعتليه ويخرج إلى فضاء المعركة يقود أتباعه المرابطين في الجبهات.. الفضاء أعلمه بدخان يحيط بالعاصمة وأحياء تعيش الهمود وجسور تربط صوبي الرصافة والكرخ خالية إلا من هياكل حديدية تعود للأعداء، تدبُّ لتقف في وسطها مرابطة باقتدار. وجهت واحدة من الهياكل انبوباً طويلاً نحو بناية وزارة التخطيط الحمراء بطوابقها العديدة المطلة على دجلة وراحت تمطر نوافذها المعدنية بسيل من الرصاص.

واذ مرَّ الثور يحمل الملك المذهول من فوقها استدارت هياكل أخرى نحوه وأدارت أنابيبها باتجاهه. أطلقت رشقةً من رصاص، تبعتها رشقة ثانية فارتعب من هول الصوت والصدمة، وذاب.. لم تكن ثمّة زوارق فرجة ببهرجة واحتفال

يغصُّ بها نهر دجلة كما أعلمه هارون الرشيد يوماً عندما زاره في عالم الخلد، وليست ثمّة أفواج من ألمَها بعيونها الوسيعة تتماوج رافلة على أرضية الجسر وخميلة ضفاف الهناء اليانعة؛ لا، ولا " يَا شِرَاعاً وَرَاءَ دِجْلَة يجري"..

عندها وجّه ثورَه ليعود الى حيث كان.

عاد ليستنهض همم جده آشور ناصر بال ملك دولة آشور، وكوديا أمير لجش، وجلجامش ملك أوروك، وسرجون ملك أكد، وحمورابي ملك بابل ونبوخذنصر سلطان الدولة الكلدانية في بابل ليجمعوا قادتهم ويحشدوا جيوشهم فالطامعونَ حلفاءُ الحيثيين (آسيا الوسطى) والكاشيين (هندو اوربيين).

نهض كوديا من جلسة القرفصاء وانتبه بذعر إلى ارتجاجات تهز الأرض حسبها غضب آلهة. التفت نحو آشورناصر بال يسأله عمّا يحدث ويترجاه أن يتدارك الأمر بإدارته وحكمته وسعة حيلته ؛ فقد يكون أجا عاد طامعاً ليغزو المسيبتيميا وينتهك حرماتها، وربما فعلها العيلاميون فعاودوا رغبة الطمع ومنَّوا النفس بغزوٍ يجنون منه السيطرة على الأرض ومصادرة ممتلكات الناس فيثأرون لهزائم تترى تلقّوها في سنين خلت، أو هي جموع الآراميين تجتاح كالجراد الاهوج كل ما تراه إزاءها. لكن آشور ناصر بال

رمى وجهه بين كفيه وراح يبكي معلناً عجزه وقلة حيلته؛ طالباً من كوديا النهوض وطرق الباب على ولده شلمنصر المسترخي على كرسيه الوثير ليستنهض هممه. وبدوره أعلن شلمنصر عن عجزه وأخذَ يعدد لكوديا عِللاً تفتك بجسده ويصف آلاماً يسبّبها الروماتزم في مفاصله.

***

حين انتهى نصف النهار، وعلت الشمس تطرد سحباً تزحف ببطء وبثقلٍ كامد تناهى صوت سرفات يتوالى صريرها. والعين التي حفَّزها على النظر من خلال كوّة صغيرة في جدار المتحف الصلد أطلعته على ثلاث دبابات قتالية مترِبة توقفت وسط ساحة الجِرار قادمة من شارع الإذاعة ومارَّة عبر الشارع المليء بمكاتب السفريات.

ساد الفضاء وجوم هامد؛ والشوارع المحيطة بالمتحف اكتسحها صمت مريع لم تؤثر فيه أصوات طلقات متفرقة كانت تُسمَع من بعيد كأنّها خارج أفق الزمن.. حتى العصافير التي كانت تكركر وتتقافز كعهدها طوال النهار على شجرة الزيتون لم يُسمع لها صوت. بدت كأنها تحنّطت على الأغصان أو أنَّ الأغصان صمغتها تحت أوراقها العجفاء.. الحَمام الأليف بريشه الرمادي والأزرق الشذري انكمش على حافات نوافذ مبنى البريد المركزي. لم

يمارس طيرانه اليومي وخطفه نزولاً لحديقة المتحف لالتقاط ما يملأ قوانصها من بذور وديدان وجراد وفراشات طائرة. فقط موجات هديل متوالية تطلقها حمامة هنا وأخرى هناك يمكن احتسابه مناجاة لزمن بعيد، غابر كانت فيه بغداد فتاة تعيش الرَّفل أو قصيدة نواح ترثي حياةً كانت لحقب بعيدة تعوم على نمير بهجة غامرة.

بغداد عليلةٌ منذ أعوام، وجريحةٌ منذ أيام.

علّتُها كبيرة وجراحُها عميقة.. مَن يشفيها؟

على سطوح الدبابات ظهر جنود أمريكيون بأنصاف قاماتهم العليا يتطلعون بارتياح وبلا قلق، وجنود مشاة يخطون على الأرصفة بلا تهيئات قتالية ولا تهجّس من مقاومة.. رفع أحدُهم ناظوراً ألصقه على عينيه وراح يتطلع أمامه؛ تماماً إلى الطريق المتّجه نحو متنزه الزوراء. شاهد بعيني الناظور الطريق يدخل إلى نفق معتم. وطريقين جانبيين يأخذان مسارهما جنوباً.. كل ما أمامه كان خالياً ومهجوراً. وحين استدار بناظوره يساراً أطلعه على كراج العلاوي يشي بموت الحركة. فليس غير المظلات المتهالكة تصنع ظلاً لتقاطعات فارغة. لم يكن يعرف هذا العسكري القادم مِن ما وراء البحار والمحيطات أنه يقف وسط ساحة لم تكن تفرغ نهاراً، ولم يكن يعرف أن ذلك الكراج كان كل صباح يضخ مليوني

إنسان قادمين من مدن الشمال والجنوب: موظفون وعمال، مسافرون وجنود، تجار ومتسوقون.. ولا يدري أن هذا العدد لا يمكث في العاصمة غير ساعات ثم يعود مزدحماً في هذه الساحة والطرق الفرعية إلى مدن جاء منها... وإذ وجه ناظوره يميناً كانت ساحة محطة القطار جرداء؛ والماكنة التي وضعت في واجهة الساحة رمزاً لهذه المؤسسة العتيدة الممتدة خدمتها عشرات الأعوام كانت هيكلاً ميتاً يشهد توقف حركة ماكنات تسحب قاطرات ركاب وحاويات بضائع كانت تتجه شمالاً نحو الموصل وجنوباً صوب البصرة وتوقفت منذ أكثر من عشرة أعوام. لقد سُمِعَت آخر نفثة دخان من جوفها مساء السادس عشر من كانون ثاني / يناير ١٩٩١، ساعة اضطر مسافرو القطار الصاعد نحو الموصل النزول في سامراء، ومسافرو القطار النازل إلى البصرة في الناصرية كتحسب من قصف طائرات قد يعتبر طياروها هذين القطارين هدفين عسكريين.

وما بعد ذلك التاريخ كانت مؤسسة سكك الحديد كياناً عليلاً وهزيلاً تقصّ حياة شرائح كانت لهم مع مدن يمرون بها وركاب يصاحبونهم حكايات لا تنتهي. فكم من شباب جمعهم لقاء في قطار انتهوا إلى اقتران أبدي فخلّفوا الأولاد ليواصلوا مسيرة الحياة بعربة الزمن الجاري كنهر؟

وكم من أناس حملهم القطار بعيداً عن دفء أعشاشهم مرغمين على أمل العودة إليها لكنهم لم يعودا قَط؟ وكم من طالبي حاجة في حيازة ومتوقعي أمل في نَيل أقلّهم القطار ثم أعادهم فرحين مبتهجين بما تحقّق أو خائبين مهزومين لما حصل.. كم، وكم، وكم؟!.. تساؤلات تجمّدت تحت مظلات الركاب في أرصفة المحطات، وها هي اليوم يطالعها ناظور لدخيل غريب. يتفرّس بها ثم يتركها غير آبه ببصماتها البشرية وتاريخ حفرها على صوان الزمن.

بيت بياتريس

ما خشيت منه د. بياتريس حصل، وما توقعته حدث بشكلٍ تفصيلي وأكثر. فلقد اخترقت سكونً الشوارع وفراغ الساحات ضرباتُ خطى ووقع أقدام..عيونٌ شرهة لزحفٍ بشري كأنه نملٌ خرج باندفاع هستيري من جحورٍ كان سجينً فيها يتحين فرصةً ينتظر أوانها ، أو أمواج من جرادٍ جائعٍ شره استعد للقضم والفتك بحقول اليناعة والاخضرار. عيون انطلقت من الأزقة. وأخرى قدِمت على عرباتٍ تجرُّها أحصنة وحمير وأخرى كانت تنتظر وقد بيتت شرّاً بناءً على خططٍ أعدّتها واستعدت لتطبيقها بغية تدنيس ارث الوطن وبيرق كبريائه. كانت بياتريس تصرخ من الألم

في بيتها. تنغرز في أحشائها سكاكينٌ لا تبصرُها. ويضرب خاصرتها خنجرٌ مسموم بينما رأسُها يُدوِّم في تلافيفه وشيشُ دبابيرٍ قاتلة. وكانت بغداد تترنَّح من شعورٍ طاغ بالغثيان، تريد أن تتقيأ لتنفث من جوفها جبالاً من آهات وتلالاً من صديد. صدرُها تمزّقه ابخرةٌ حامضية وأدخنة سمّية تعالقت مثل قرادٍ فاتك في رئتيها يبغي زرع سلٍّ لا شفاء منه. ساقاها خائران كأنهما غصنا شجرة عجفاء هاجمتها ريح صفراء بموجات من لفح يحمل نذرَ الموت. ذراعاها تهاوتا فلم تعُدا قادرتين على مسك رأسها المثقل بكوابيس ظلت لقرون تهاجمها فلم تترك لها نافذة للأمل. د.بياتريس تتوسَّل بزوجها العليل أنْ يزرق أعضاءه بمصل التحدّي ليشاركها الخروج من البيت والتوجّه إلى المتحف لتطمئن على هيبته، وقد صممت في سرِّها أن لا تبرحه ابداً حتى ينجلي الموقف وتؤمّن سلامته. ستجعل من مكتبها غرفةً للنوم، وستتقمّص وظيفةَ الحارس حتى لو عارضها الزوج ووصمها بالجنون.

عويلٌ طويل، ونعيبٌ متقطع يتعالى فوق رأس بغداد. بغداد تتطيّر من هذه الأصوات المرعبة وتتشاءم. ما زالت كوابيس عام ١٩٩١ تقض مضجع هدوئها. وظلت بمدى يزيد على اثني عشر عاماً تئن من هدير يذكّرها بالخوف الأبدي، وتجفل كلما تناهى إليها مقترباً كأنه سيلطمها على وجهها لتنزف

مـن منخريهـا وفمهـا ، تتـورَّم عيناهـا وتزرقّـا. بغـداد بنـتُ الـترف الجميل، وفتاةُ الرفل على خميلة البهاء تتلقّى الصفعات، وتتعثَّـر بوحـل المنتظـرين تلطيـخ عفتِّهـا. بغـداد تُنتهـك، يركـلُهـا اولادُهـا مثلمـا يركـلُهـا الغريـب القـادم لإذلالهـا. تتحـب! نحيبهـا يشـبه نحيـب د. بيـاتريس. لا.. لا! نحيـب د. بيـاتريس يشـبه نحيبَهـا. بغداد تبكي من الوجع جراء ما يجري لها اللحظة؛ ود. بيـاتريس تبكي على ما يحصل لأقوام هـذي الأرض المبتلات بلعنـةِ طمـع الغريـب الأجـنبي. بغـداد يُـراد لهـا المـوت وإنزالهـا الى العـالم السـفلي؛ عـالم المـوات الأبـدي. لا تصـعد منـه عالمهـا الجنـائني الساحر وسعادتها المبتغاة حتى لو قدمت إلى "ايـريش كيكـال" بـديلاً، آلافـاً مـن الشـهداء، وجيوشـاً مـن البكـاء، وانهـاراً مـن الدموع.

الوحوش

راح يجـول بـين القـاعـات حـائراً، قلقـاً، موجوعـاً اعتمـاداً علـى ومـيض يتفرقّـع بـين لحظـة وأخـرى فتتمثـل موجـودات القاعات أفواه تعبّر عن رعبٍ قادم، واستحواذٍ جلي، وخشـيةٍ مـن فقـدان أمـل. الـرُّقم وراء العارضـات المزجّجـة تسـتحيل بيانـات تحكـي عـدواناً خارجيـاً وعـدوّاً مُحتلاً يُذكِّر بأجـا وهو يبتلع جغرافية اوروك ويضمّها الى قاموسِ جوعِه وشهوتِه عـابراً نهرهَـا، ومكتسـحاً بسـاتينَها، سـاخراً مـن كبريائِهـا

ومطيحاً بهيبتها.. مُحتلٌّ يدخل شوارعها الهلعة وأشجارها المرتجفة وأبنيتها الصاغرة لقدرها الأسود.. قد تلطمها كفٌّ حديدية مكينة ومهولة فتتركُها خرائبَ وأنقاض، هشيماً وحرائق..عدو جاء بشرهِ تنّين، ودهاء ثعلب، وهياج دب، وشهوة ضبع، وطمع بخيل يلعق دماء جراحها الدافقة. يلتقط بعين جائعة للاستحواذ مشاهدَ خوفِها وهلعها.. وهناك يتحرك الطامعون من كلِّ حدب، ويسيل لعاب الشرهين رغبةً في التهامها.

كانت أكد قد دُكَّت وتركها المحتلون الكوتيون القادمون من المرتفعات الجبلية وراءهم، ثم انقضوا على بابل وجعلوها في قبضتهم، ولم يشبعوا.. شراهتهم تتأجج ولعاب الاستحواذ على نينوى يسيل.. بغداد الآن أمام أمثالهم من المحتلين الطامعين اطعمُ كعكةٍ ، وأعذبُ ماءٍ نمير.. لا استقرار لهم إلا أن يشبعوا جوعهم، ويرووا ظمأهم.. بغداد الآن في لوعةٍ، وحزنٍ، وخوفٍ كأم تنال ركلاتِ الأقدار صابرة، جلدة؛ كلَّما طعنها خنجرٌ، وشقَّ صدرها رمحٌ، وانهال على رأسها سيفٌ تلقته بإباء فتقع مسفوحةَ الدماء، خزينةَ الوجع.. لكنّها بعد أيام وأعوام تتحامل على آلامها وتنهض لتعيد بناء كبريائها المُهدَّم، وتطبب جراحَها العميقة.. أتراها اليوم قادرة على النهوض بعد حصار وتجويع

مورس معها فتركها عجفاء، عليلة، خاوية.

الـوميض يـزداد، ويعقبـه الرعـدُ الهـادر، وبغـداد طفلـةٌ ترتعش هلعاً.. الهدير يعلو في السماء والأرض تهتز.. ومع توالي لحظات انصراف الليل كان الهديرُ يتفاقم والأرض تترجرج.. صرير سرف تُسمع، وانطلاق قذائف تدوّي... يريد الصعود إلى سطح المتحف.. يريد أن يجول بأنظاره في السماء ليحصي عدد الطائرات المغيرة على عاصمة الرشيد التي خلق منها مدينة المعرفة المنسابة في دروبها وأزقتها جداولَ علمٍ وفقه، والمتمايسة بجمال ورونق وغنج.. يريد أن يشهد الهول ليقيس جنونَ فاعليه ورعونةَ مرتكبيه.. يريد أن يبكي فيطلق الدموعَ قذائفَ احتجاج على تدمير مقصود مُخطَّط له بإتقان؛ وإلا هل يعقل أن تعبر الأساطيل البحارَ وتخترق الجيوشُ الصحارى مجتازةً القارات من اجل إسقاط حاكم واحد بإمكانها بحركة اظفر من كفِّها المكينة إزالته ومحقه؟!.. يريد أن يفتح نافذةَ الغرفة ليطالع ما يجري.. أين وصل المهاجمون؟ ومن أية جهة قدموا؟.. أيّةُ عمارةٍ هُدِّمت وأيُّ حيٍّ أزيل؟.. كم أعداد الذين قتلوا على دكّة البراءة وليس لهم في ثروات النظام وجاهه لا رقماً، ولا كسراً، ولا حتى حرفاً؟ كم آهةٍ تفجّرت وحسرة أطلقت؟.. كم صرخة هتكت أستار الليل أو ضاعت وسط قذائف مدفعية

الدبابات وصواريخ الطائرات.. بيد أن مراده اصطدم بجدار الخوف وضرورة الحذر. ذلك أنَّ اي ظهور على السطح أو إطلالة رأس من نافذة قد يجابه بقذيفة دبابة تطلق باتجاهه بناء على هدي ظهور هدف على شاشة رادار دبابة سرعان ما يتم التعامل معه فيتمزق اشلاءً.

كان ثمة صمت جاء على اثر رمي رشاشات وقذائف مدافع دبابات لم يتوقف أسكتت خلاله القوات المقتحمة مصادر النيران المتفرقة، بل واستمرت تطلق في الهواء اثباتاً لتمكنهم وقدرتهم العظيمة في السيطرة على المواقف التي تُستجد... الصمت أعقبه هتافات عابرة للهواء وزغاريد تتذبذب من مناطق شتى من العاصمة، منقولة على ريح شتائية باردة وإن كان اليوم يشير لظهيرة التاسع من نيسان ووقت كهذا عادةً ما يكون الجو دافئاً تنبعث في ظهيرته حرارة تؤذن بقدوم الصيف.

مجاميع بشرية بوجوه موحلة مرت جوار الدبابة المنتصبة. رفعوا أياديهم تحية للجنود المحتلين وفي أعماقهم استنفروا مؤشّرَ جسِّ النبض.

حين حصدوا ابتسامات الجنود وضحكاتهم العالية توجهت أنظارهم نحو سياج مبنى وزارة الإسكان. اندفع شاب ذو قامة قصيرة بناء على همس وإشارة إلى السياج من رأس

رجل متوسط العمر يبدو انه يقودهم فتسلّقه. العيون كانت تطالع رد فعل الجنود المحتلين.. عيون المحتلين بعثت حياداً، وبعضها تدفّق في حدقاتها الزرق ماء التفكّه. لم يكن ثمّة رد فعل سلبي يمكن لمتوسط العمر وزمرته استشفافها.

ذلك كان بمثابة إيذان بحرية تنفيذ ما جاءوا لأجله. رفع اليد وأشار على الجميع للتسلق.. بلحظات كانت ابواب الوزارة تُكسر، والأيادي بعد ومضة زمنية تظهر رافعة مناضد وكراس وأرائك وأجهزة تلفاز ومكيفات هواء ومفرغات هواء ومزهريات وأجهزة هاتف وشاشات لأجهزة كومبيوتر. أعاده المشهد لرسالة بخط اليد كتبها الرحالة جيمس بيلي فريزر أثناء وجوده في بغداد وبعثها الى زوجته يصور بها حال بغداد مؤرِّخاً من خلالها حالات سلب ونهب وفوضى صارت ذكريات مهمة لأحداث جرت في تشرين الثاني وكانون الأول من العام ١٨٣٤ كانت فيها المدينة تتوجَّس خيفةً من معركة طاحنة بين عشيرة شمر الموالية للوالي العثماني وعشيرة عنزة البدوية القادمة من الجزيرة العربية. معركة كانت الدماء تعلو على العقل، والبداوة تطيح بهيبة الحضارة، والتفكير في السلب والنهب يزيح من أمامه فكرة السلام والمحافظة على الحرمات.. معركة طاحنة أطاحت بالنظام وأعلت شأنَ الفوضى. وكان

للصوص الذين يرى الآن شبيها لهم وهم يخرجون محمَّلين بممتلكات الوزارة فرصة الإغارة والسرقة متلبسين بلبوس البدو ومنتهزين فرصة يحسبونها لا تأتي حتى في الأحلام.. واللصوص في كل زمان ومكان أناس داسوا القيم وقفزوا على الالتزامات. أغمضوا العيون عن تقاليد الحياة الإنسانية الناشدة شمس النظام وقمر الاستقرار.

ما زال يتذكّر كيف ساوره الهلع، وارتسمت إزاءه مشاهد السرقات والاعتداءات والتجاوزات فأبصر عبر الكلمات، وهو يقرأ الرسالة بخط اليد، العديد من الناس عراة إلا ما يستر عورتهم بعدما سلبهم اللصوص ما يرتدون؛ مثلما أبصر الخراف والأبقار والماعز تُجر جوقاتٍ، جوقات أمام أعين مالكيها الصاغرين لمشيئة الناهبين خشية قتلهم بدمٍ بارد وبلا اكتراث؛ مثلما أبصر أحدهم يقود عربة يجرها حمار وقد حملت قدورٍ وأوانٍ وأقفاص دجاج ومساخن وأباريق نحاسية وجفاجير ودلال نحاسية؛ ومثلما أبصر أيضاً عجوزاً تصرخ وتولول جراء اقتحام لصَّين بيتها وسرقة سجاجيد كيشانية وافرشه صوفية ووسائد قطنية، وكسر صندوق حاجياتها الصاجي المُطعم بمسامير من الفضة الخالصة واستخراج مقتنيات تعود لزوجها الذي غادرها العام الماضي الى الدنيا الآخرة ولما تزل لوعة فراقه وفقده تغمر

سماء روحها فوجدت في أشيائه الثمينة سلوى لها وذكريات.

تلك المشاهد أعادته كذلك لشتاء العام ١٩٩١ يوم عمّت الفوضى مدينته الجنوبية بعدما شاعت أخبار انهيار الحكومة في العاصمة وهرب رموزُها وموظفوها من المدينة في ليلة ممطرة هوجاء، فهبّ الموتورون والطامعون واللصوص الى دوائر الدولة ينهبونها، والى مراكز قيادات الشرطة ومراكز تجمع الجيش يستبيحونها؛ فغدت البنادق والمسدسات واللوازم العسكرية مرمية على قارعة الطريق مهشمة او ممزقة او محروقة. رأى ناهبين ومنهوبين.. سلب وفوضى.. تخبط وحيرة.. نظام يُطاح به وضياع يتسيّد.. رأى مجمَّع مباني المحافظة الحكومي يهاجم بلصوص حملوا كل ما وقع تحت أيديهم ثلاجات ومكيفات هواء ومراوح ومناضد وستائر وأرائك وكراس وأجهزة تلفاز ومصابيح ومفرغات هواء وثريات ومزهريات وإطارات صاجية معلقة على الجدران نزعوا منها صور رئيس الدولة.. رأى بعض مَن تلثموا واخفوا ملامح وجوههم وهم يتجهون نحو غرف المحاسبين وأمناء الصناديق ويجهدون في فتح القاصات المقفلة ممنين النفس بأموال تحتويها، وكيف أصيبوا بخيبة الأمل لحظة كشفت لهم بطون القاصات عن فراغها.

وها هو المشهد ينتقل من العام ١٨٣٤ إلى ١٩٩١، إلى

٢٠٠٣. وعيون من أغار على البيوت وسرق في الحقبة البعيدة هي نفسها عيون مَن اقتحموا مجمع مباني المحافظة في مدينته عام ١٩٩١، وهي ايضاً نفسها عيون مَن شبعوا الآن من استباحة مبنى وزرة الإسكان واستدارت إلى حيث المتحف الوطني.. رصد عيون ذئبية تتوهج، ولعابهم لعاب ضباع يسيل من الأشداق.. رصد مطالعتهم لوجوه بعضهم وتهامسهم بكلام دفين.. رصد خطاهم تتحرك بخفة ثعالب فتجنِّد سيقانها المستدقّة لتسلق سور المتحف الحديدي والهجوم بوحشية وضراوة. دون ان يرصد جموعَ ديدانٍ بشرية في اللحظة نفسها تسللت من الأبواب الخلفية للمتحف من جهة العلاوي واقتحمت مبنى هيئة الآثار والتراث والمتحف، وارتال ديدان أخرى اقتحمت الباب الكبيرة الخلفية المجاورة لمدرسة حكومية قريباً من مكاتب شركات السفر.. الجميع تضافروا على السرقة والتحطيم والعبث.

تناهى الى سمعه اصوات بشرية وصوت تكسر زجاج وارتطام أجسام صلبة.. اندفع في الممر ودخل أول رواق.

هاله ما رأى!!!

رأى مَن جاء بملامح إجرامية بشعة يحملون أكياس خيش جلبوها معهم وشرعوا يلتقطون الأختام بأشكالها الاسطوانية والمنبسطة، ثم اذا وجودوا فعلهم هذا يبطئهم في

السرقة الأكثر صاروا يفرشون الأكف على الرفوف التي تحملها فيدفعونها دفعا لفم الأكياس.. رأى أشخاصاً مطلية وجوههم بصبغة القار الأسود بغية إخفاء ملامحهم يتجهون للأشياء الثمينة والنفيسة والنادرة وقد جلبوا معهم صناديق كارتونية وضعوا فيها القيثارة السومرية التي توقف عندها في اليوم قبل الأمس كثيراً وتخيل أنامل رقيقة تعزف عليها فتنتج ألحاناً سومرية تطرب لها مسامع الآلهة وتهيم مُغدِقةً على البشريين عطفاً وبركات، مكحلةً عيونهم بهناء دنيوي أبدي.. صاح أحد اللصوص، بعينين يقطران شرّاً وبيده سكين طويلة يلمع نصلها، يشحذ همم أصحابه: هذه واحدة فقط.. نريد رفع الثلاثة.. ثم لا تنسوا الإناء النذري.. لا تجعلوا غيرنا يأخذه.. هيا أسرعوا.

رأى مجاميع هائجة، بمطارق جاءت بها بتخطيط مسبق، اخترقت القاعة البابلية كالضباع، وانقضت على الألواح الطينية والرقم الرخامية.. جمعت الأواني والكؤوس والخناجر الذهبية. جمعت الألواح المطعمة بالموزائيك واللازورد. حملت تمثال جوديا ومجموعة العاجيات. وإذْ اندفعت مجموعةُ ضباعٍ بشرية جديدة صدّهم السُّرَّاق؛ وصاح بهم صوت مرعب لرئيس جوقة شريرة يحذرّهم من الاقتراب: "اذهبوا إلى مكان آخر هذه القاعة لنا.. عندكم قاعات

عديدة اجعلوها من حصتكم.".

أشـار لأتباعـه أن يحملـوا جـداراً مزججـاً بـألوان جميلـة زاهيـة يعـود الى موقـع النمـرود، ثـم أومـأ باتجـاه صـندوق زجـاجي: " اجمعـوا العاجيـات والأوانـي الخزفيـة المطعمـة بالألوان.. هيا اسرعوا.".

رأى مَن حملوا الشر في نفوسهم والبغض في عيونهم يلصقون اكفّهم على تماثيل اشورية طويلة يهمّون بدفعها سوية. ما تلبث أن تترنح فتتهاوى، فتسقط أرضاً، فتتهشم. ثم يدنون من جرارٍ وأوعيةٍ وأوانٍ وصحونٍ فخارية فيركلونها بأرجلهم فيبعثرونها شظايا ونثاراً؛ مستمتعين بسادية تتدفق من عيونهم بغلٍّ وتشفٍّ، لكأن ثمة عِداءٍ دفين لكل ما هو تاريخي وإرثي يشير بهوية ثابتة لأزمنة تبصم لإنسان ما بين النهرين اعترافاً بوجوده وأصالته ومساهمته الحقّة في تواصل الإنسانية واثبات الوجود.

سمع لهجاتٍ عراقية وغير عراقية لأنفار ساهموا في الهجوم والسرقة.. صرخ في سرّه: يا إلهي، ماذا يجري؟! مَن هؤلاء؟!.. صوت العقل تناهى لمسمعه: اللصوص ليسوا لهم جنسيات محددة ولا هويات تُعرِّف بهم.. اللصوصيةُ شراهةٌ وطمع، انتهازُ فرص واقتناصُ غفلة. واللصُّ لحظة الإغراء وتلويح الغواية يزيح الضمير جانباً ويدوس على المحرّمات. فقط الغاية لديه تبرر الوسيلة.

ولكن يا ألهي! لا يمكن أن يحدث هذا!

اعترضهم.. حاول منعهم. تظاهر بالتهديد؛ لكنَّ مسدسات وسكاكين استلت من الجيوب، وكانت مستعدة أن تمزقه حيث لا شفيع يشفع له، ولا راد يردَّهم.

لا يدري لماذا تراجعت تلك اللحظة فكرة نقده للمستعمرين الذين سرقوا آثار بلده خلال عقودٍ مضت وجعلوها نفطاً ثانياً يدرّون منه ربحاً وفيراً لمجرد وضعِها في قاعات وإعلان أنها متاحف.. انه الآن يجد أولئك المستعمرين أرحم على آثار بلاده من أهلها ومالكيها؛ وانَّ المتحف البريطاني الذي زاره يوماً وشاهد منحوتة رخام مشهد صيد الأسود من نمرود فتأسّى لهو الحامي الأمين لها والحافظ الموثوق الذي يحترم الإرث فيحسبه مُلكاً إنسانياً شاملاً يستحق التقدير، وأنَّ اللوفر المكان الأنسب للتعرف على حضارة أجداده فأبقى على مسلة حمورابي مصانة غير منتهكة، وأنَّ المتحف الألماني مكانٌ لائق يحتفي بأنصاف الأعمدة المزينة بمخاريط فخارية لمنصّة الوركاء وأختام معبد اينانا، وأنَّ جامعة فيلادلفيا تعرض بفخر ما أنتجه إنسان عراقِه متمثلةً بمسلة أور- نمو بارتفاع أمتارها الثلاثة، وأنَّ اسطنبول حاضنةٌ موثوقة لما تعرضه في معرضها الشهير.

اندفعت زمرةٌ هوجاء أخرى تدنّس بعيون ذئاب غادرة طهارة المكان؛ قليلاً وخرج أربع منهم يحملون رأس ثور

مجنح هشّموه من الجسد الضخم المنتصب إلى جوار قرين له في القاعة الآشورية.. ولثقله الكبير كانوا ينزلونه أرضا كي يسحبوا الأنفاس، ويمطوا أجسادهم، ويهيئوا عضلاتهم ومن ثم يعودون لحمله من جديد.. فرحين بما فعلوا ومبتهجين بما أنجزوا.

اندفع مجدّداً فأبصر زمرةَ عابثين يتطاير شررُ الانتقام من حدقاتهم. يحملون ملفات وأضابير فأدرك أنَّ السرقة طالت الأقسام الإدارية فهرع مندفعاً بجنون. كانت زمرة تتسلَّح بالجنون ورغبة الهتك والانتقام تمزِّق الأضابير وتبعثر الأوراق بتشفٍّ مَن جاء ليساهم في التدمير مُصرّاً، ومصمّماً.. صرخ بهم صراخاً يغلّفه الرجاء والتوسل:

- لا !.. لا !... لا.. اتركوا الأقسام الإدارية. هذه لا تنفعكم بشيء. أوراق وسجلات ودبابيس لا قيمة لها.. اتركوها أرجوكم.. لا تكسروا الدواليب.. لا تمزقوا الملفات.. خذوا المناضد.. خذوا الكراسي.. خذوا الأرائك.. اقلعوا المراوح والمصابيح.. احملوا أجهزة التبريد والتكييف؛ فقط اتركوا الدواليب والملفات على حالها.

ضاع صوتُه في دهاليز العبث، وذراعاه اللذان لوح بهما رجاءً وتضرعاً هبطا بعدما كلا من التعب.. بُحَّ صوتُه وجفَّ لسانه.عابثته ملوحةُ دموعٍ جرت على خديه ووجدت

مسلكين الى فمه فراح يمسحها بكمّه بينما ترك المرارةَ تغزو ريقه.

حين أدرك خطورة الحال واستنتج أن موجودات المتحف ستُسرق أو تُحطَّم ويُترك المتحف برمته بنايةً مشوهة تُمثِّل نموذجَ الخراب العميم؛ وبغية الإبقاء على ما يمكن الإبقاء عليه اندفع خارجاً. طفق يعدو باتجاه دبابة مهيمنة على الساحة ، يستنجد علَّ أفرادَها يأخذون بنجدته فيديروا فوهة دبابتهم باتجاه مبنى المتحف فيطلقون قذيفة ، تتبعها رشقات رشاش كتخويف أولا ، وإرهاب ثانياً ، ثم إطلاق بغية قتل اللصوص والمنتقمين.

وقف أمام الدبابة. أطلق صوته يخاطبهم باللغة الانكليزية ويستدير بحرقة للذين يسرقون ويخرجون بحرية ولا خشية :

− HELP.. HELP US.

PLEASE ! STOP STEALING !.. STOP ROBBERY..

DON’T LET THEM DESTROY OUR NATION HISTORY..

PLEASE..

O MY GOD.. NO.. NO..

THEY ARE STEALING EVERY THING.

كانت تضرعاته تنطلق من القلب الموجوع بينما هُم ينظرون اليه بنظرات بلهاء.. يطالعونه بحيادية.. رجاءاته لا

تـأثير لهـا علـيهم.. يـرون أمـامهم بانوراما السـرقة والتـدمير.. يشهدون بأم أعينهم تهافت أناس شرهين.. خارجين داخلين فلا يردّون عليه.

يلح.. ويزيد بإلحاحه، فتنط خوذة من باب دائري يفتح في أعلى الدبابة. يرى رتبةً تشير إلى أنه قائدها.. يخاطبه القائد:

- SORRY. THIS IS NOT OUR DUTY.

فيهتف بالقلب الجريح:

- بل هو واجبكم. انتم تحتلون البلد فليس من العدل اهمال ارث الوطن، بل عليكم حماية الممتلكات.

ملامح الرجل العسكري لا تشي باتخاذ قرار لفعل شيء لصالح الرجاء.

شعر بأن وقوفه هباء أمام محتل لا يشعر اللحظة إلا بالانتصار والعوم في بحيرة الجذل والانتشاء.

يعود كرجل انتُهِكَت حرمة بيته.. يعاود طلب الرحمة من اللصوص علّ قلوبهم تلين فلا يسرقون كل ما في البيت من أثاث ثمينة وممتلكات تمثل ارثه وملكيته وكيانه. يعود ليصرخ بلسان التضرع أن لا يزيدوا عبثاً وان يكتفوا بما سرقوا. يتوسل بالعابثين أن لا يهشموا ما لا يريدون سرقته وحمله. يطلق دموعَ البكاء والترحّم على أجدادهم وموتاهم في إبقاء ذرّة رحمة في قلوبهم فيخرجوا ويتركوا المتبقي على حاله..

لكن محاولاته وتضرعاته وتوسلاته ودموعه كانت كأنها تؤلبهم وتزيدهم إصراراً على السرقة والعبث والتحطيم.

بقلبٍ يتمزَّق عاد. بعينين تسيل من بين أهدابها دموع الخيبة أخذ يمشى الهوينا.

صار يرى مجاميعَ جديدة تندفع إلى جوف المتحف تبغي تمزيق الأحشاء.

صار يخطو بين الأروقة والقاعات تاركاً العين تصوّر مشاهد الدمار والعبث.

صار يبحث عن طه باقر متمنياً تلك اللحظة مشاهدته ليبكي بين يديه ويرجوه أخذه معه إلى العالم الآخر ففيه راحة أبدية تبعده عن ضغينة بني البشر وعدوانيتهم ووحشيتهم.

صار يأمل مشاهدة جلجامش وسرجون ونبوخذ نصر وآشور بانيبال وجوديا ليعتذر لهم ويشكو قلة حيلته في مجابهة الأعداء المهاجمين.

وهناك خلفه بعشرات الأمتار كانت جموع من المهاجمين ينتهكون متحف الفنون منقضين على اللوحات المعروضة؛ ارث الموهوبين الخلاقين من الأجيال وهوية المدارس الفنية التي تحتفي بالجمال.. انقضوا على حروف هاشم الخطاط فمزَّقوها وهشَّموها ، وكسروا قصبةً خطت جماليات الحرفِ العربي ثم

داسوها بالأرجل كما تُداس حُلية عروس في لحظة هرج ومرج.. حطموا منحوتات يحيى جواد الخشبية واستهانوا بصاجٍ وزانٍ أحالها مخلوقات تُبهر العين وتترك جلالاً في النفوس.. هاجموا أفراس فائق حسن واقتلعوها من الجدران، وبعثروها، وقد يكون مزّقوها وهي لمّا تزل على القماشة تصهل بألوانِ الجَمال وتخب في قدسية الجلال أو تعدو في رحب الفضاء. هل كان لفائق حسن رؤية كابوسية إزاء وطنه وشعبه بحيث يطلب من زوجته الأجنبية حرق جثته بعد وفاته لا أن يضمه تراب الوطن؟!.. هل كان يتنبأ بمجيء يوم سيتنكّر له مَن يمشي ويتنفس ويعمل على أديم هذا الوطن؟! وهل تخيّل هاشم الخطّاط أن سيأتي يوماً تهان به أمّة الإسلام والعرب بقداسة لغتها وجمال حرفها؟!.. وهل خطر ليحيى جواد أن تطاح بهيبةِ خلقِه الذي ولد من يدٍ مشلولة جاهدت بكل سور الإصرار والتحمّل وآيات العنفوان والتحدي من أجل أن لا ينهزم الإنسان الخلاق أمام العوق وضمور الأعضاء.

سيهنأ السُّرّاق إذ سرقوا وبوضح النهار، وسيبتهج سماسرةُ تداولِ التحف والانتيكات النادرة. ستنتقلُ رزم الدنانير والدولارات من يدٍ ليد.. ستنتعش الأسواق السوداء وتتحرك أزقة النخاسة. ستّتسع العيون الشرهة لالتهام لقى كانوا يحلمون بمشاهدتها عن قرب فكيف بها وقد باتت

باليد مُلكاً... نعم، سيشبع السارقون، ولكن لوقت أمّا الوطن فدوماً سيبكي ويولول وينوح. لن يُشفي جرحَ قلبِه دواءُ، ولا تبدد ألمَ روحِهِ مهدئات. العارُ فقط سيبقى يلاحقُ ابناءً عاقّين.. تهوروا فتمردوا.. خانوا أرثاً ائتمنوه، وبددوا مُلكاً ولم يصونوه.

ترك المتحف منهوباً؛ وخارجاً تحرَّك..

تحرَّكَ يجرُّ خطىً واهنة، ومشاعرَ محطَّمة، وقلباً كسيراً.

العينان مغرورقتان بدمعٍ ضببَّ أمامه الطريق، فراح الفمُ يهطل بوح الروح بكلماتٍ ترثي هويةً استبيحت، ولافتةً للكبرياء لوِّثت.

اتخذ الرصيف يسار الطريق، صوب مرآب العلاوي.. هناك اتجه إلى حيث تشير لافتة انطلاق السيارات لاسم مدينته، ليتخذ واحدة تلتهم الطريق إلى الجنوب. الشوارع فارغة.. الأرصفة فارغة.. لا حركة لسيارات أجرة، ولا باصات نقل الركاب.. الناس الذين تعجُّ بهم الأمكنة ذابوا وتلاشوا إلا المحتلون واللصوص.

عيناه تطلقان شرراً وتبث حقداً: عينٌ على الدبابة المنتصبة في الساحة والجندي المدفعي يبتسم له ابتسامة سخرية واستهزاء؛ وعين على الداخلين الخارجين سعداء بما

نهبوا وفرحين بما حملوا دون أن يدركوا أنهم بفعلتهم هذه يسهمون في تهشيم ارث أجدادهم ويطيحون بهيبة الوطن؛ بكبريائه وعُلاه بينما فمه يتمتم بلعنةٍ بكبر الكارثة التي حلت بالوطن على حكّامٍ غرقوا في يمٍّ الشهوات غير مبالين بشعوب تسيدوا عليها جبروتاً وقهراً ، وجرَّعوها الذل، والمرارة، والهوان.

عادت اليه كلمات عبد الله الصغير آخر خلفاء الأندلس يوم جاء لأمّه ذليلاً خنوعاً مهاناً يُعلمها بتسليمه مفتاح غرناطة إلى ملك الفرنجة فانهالت عليه بصخور الكلمات النارية وقلبها يعتصر ألماً وجزعاً وحنقاً: "ابكِ كالنساء مُلكاً مُضاعاً لم تُحافظ عليه كالرجال."

تحرك وقد تبارت على لسانه مفردات مقولة قرأها يوماً ، فراح يدمدم بما يشبه الهذيان:

إذا غابَ

العقلُ

استيقظت

الوحوش.

السماوة

٢٥ /١٢ / ٢٠١٢

السيرة الذاتية

- ولد في السماوة– العراق ١٩٥٣/٥/١٠
- بكلوريوس / أدب انكليزي
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقي.
- عضو اتحاد الأدباء العرب.
- يكتب الرواية والقصة والشعر، ويمارس الترجمة والنقد الأدبي.
- له بحوث عديدة شارك فيها في مهرجانات: المربد، والسياب، والحبوبي، والمتنبي، وملتقيات الرواية وقصيدة النثر وغيرها.
- ١٩٩٣ صدرت له مجموعة (مدينة الحجر) القصصية، إصدارات اتحاد الأدباء العراق، تسلسل (٢).
- ٢٠٠٤ اصدر مجموعته الشعرية (أمي والسراويل) عن دار أزمنة - عمان.
- ٢٠٠٣صدرتله (حكايات عن الغرف المعلقة) قصص قصيرة جداً، دار أزمنة
- ٢٠٠٦ أصدر رواية (سبت يا ثلاثاء) عن دار أزمنة – عمّان.
- ٢٠٠٨ أصدر مجموعة (اش ليبه دِش) القصصية عن دار تراسيم – بغداد.
- ٢٠٠٨ صدر له كتاب نقدي (من الأدب الروائي – دراسة وتحليل) عن دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد
- ٢٠٠٩ أصدر مجلة (تراسيم) التي تعنى بالقصة القصيرة جداً ويرأس تحريرها. وهي أول مجلة عراقية تعنى بالقصة القصيرة جداً.
- ٢٠٠٩ أصدر كتاب ترجمة مسرحية (طريق ضيق باتجاه

الشمال العميق) للكاتب الانكليزي ادوارد بوند.

- ❖٢٠٠٩ أصدر كتاب قصصي (أسفل فنارات الوقيعة) عن دار الينابيع – دمشق يضم مجاميعه القصصية الثلاث (مدينة الحجر) و (فضاءات التيه) و (إش ليبه دِش).
- ٢٠١٠ أصدر رواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن دار الينابيع.
- ٢٠١٠ أصدر كتاب (الرؤى والأمكنة) نصوص مستلة من ذاكرة المكان عن دار الينابيع.
- ٢٠١٠ أصدر رواية (سبت يا ثلاثاء) بطبعة جديدة عن دار الينابيع.
- ٢٠١٠ أصدر (سحر المسنجر) قصص قصيرة جداً، عن دار رند - دمشق
- ٢٠١١ أصدر (فم الصحراء الناده) قصص قصيرة، عن دار رند - دمشق
- ٢٠١٠أصدررواية (أفراس الأعوام)، عن دار رند – دمشق
- ٢٠١١ أصدر (نساء تراب) قصص قصيرة جداً عن دار رند
- ٢٠١٢ صدرت له ترجمة رواية (الجواز) للألمانية هيرتا موللر عن دار رند- دمشق
- ٢٠١٢ صدرت طبعة جديدة لرواية (أفراس الأعوام)عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت
- ٢٠١٣ صدرت طبعة جديدة لرواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت
- ٢٠١٣ أصدر رواية (اسم العربة) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت
- ٢٠١٤ اصدر رواية (تراجيديا مدينة) عن المؤسسة العربية

للدراسات والنشر – بيروت

- ٢٠١٤ اصدر كتاب (مملكة الإبداع) دراسات وبحوث في القصة والرواية والشعر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر. وأعيد إصداره ٢٠١٤ من دار الشؤون الثقافية – وزارة الثقافة العراقية.

JASSIM AND JULIA ZAID Al-SHAHEED

وهما يضعان خطوهما على
دكّة باب الدخول للبيت
همست في أذنه مع ضحكةٍ
مكتومة:
-"أتدري أنَّ هناك من يشكك
بأن شكسبير ليس هو مؤلف
كل هذا الإبداع الإنساني من
المسرحيات والشعر .. غيرهُ مَن
كتبها ودفعه لإعلان أنها من
فيض خلقه ، بدليل أن لا مكتبة
سنشاهد في البيت ولا كتاب
سنرى. ولم يكن هذا الذي
تعظّمه بلادُنا وتحتفي به الأُمم
سوى كومبارس بسيط."